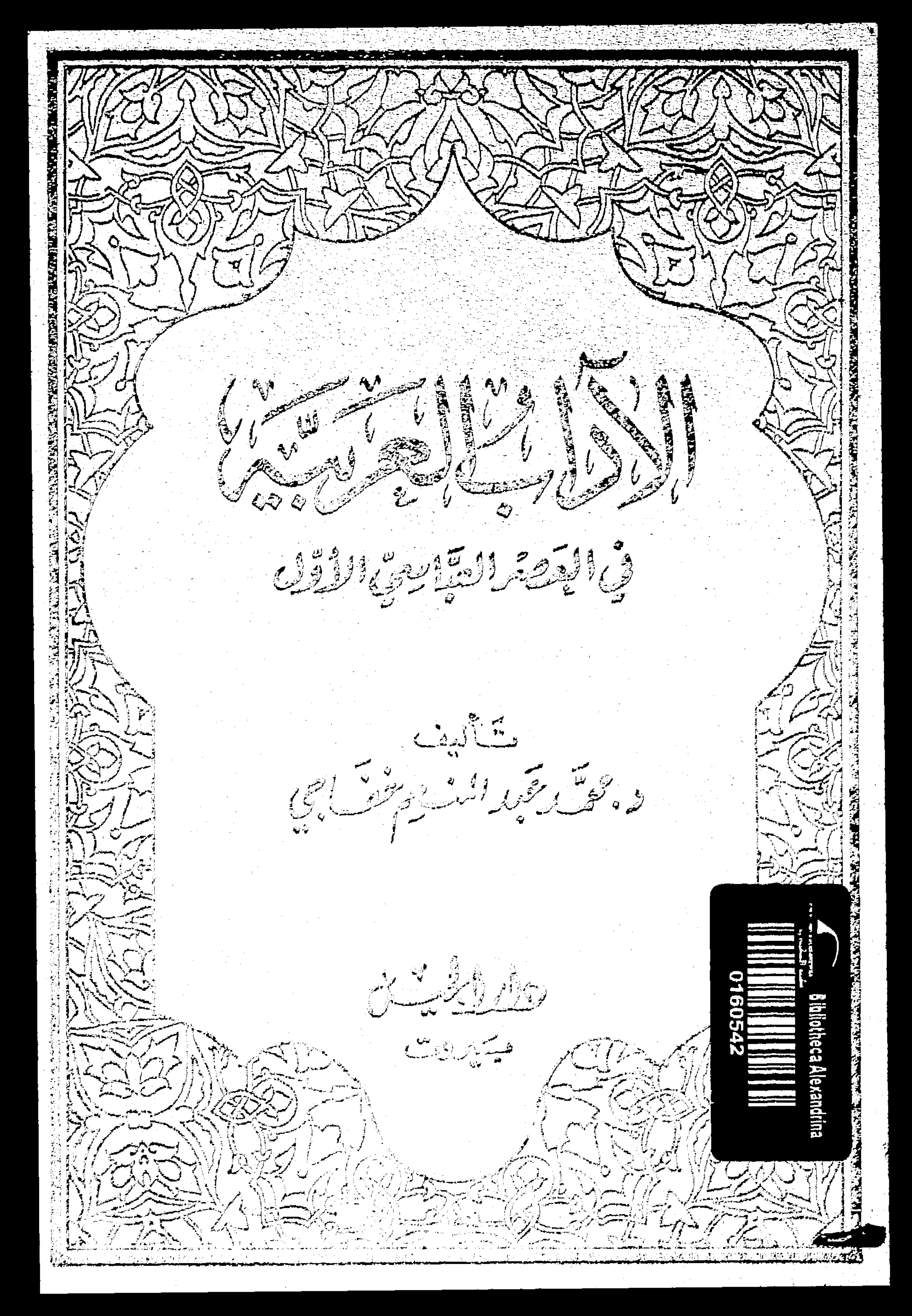


الآداب العربية

في العصر العباسي الأول

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
01160542


الآداب العربية
في العصر العباسي الأول

الآداب العربية

في العصر العباسي الأول

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

جَمِيعُ الحقُوق مَحفُوظة لِدَارِ الجيل

الطبعَة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٣٣٤ ﻫ) حافل بكثير من الأحداث السياسية والتغيرات الثقافية والأدبية ، وهو عصر ازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب ، ونبغ فيه فحول الشعراء والعلماء والكتاب ، وكان للنهضة الأدبية فيه دويها وأثرها فى كل العصور الأدبية التى تلت هذا العصر العظيم .

وهذه الدراسة التى تتنـــاول بالتحليل ، والشرح ، والنقد ، حياة الأدب العربى ، فى ظلال الخلفاء العباسيين من ذوى النفوذ والسلطان والهيمنة على مصائر العالم الإسلامى ، خلال قرنين من الزمان، سيجد القارىء لها أنها قد أحاطت بجوانب كثيرة من آفاق البحث الأدبى لهذا العصر ، المتشعب الأطراف ، المتعدد الجوانب ، وأنها تصور هذا العصر تصويرا واضحا ، مميز الالوان والسمات . . والله ولى التوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق .

وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

الحياة الأدبيـــة فى العصر العباسى الأول

١٣٢ — ٢٣٤ هـ

العصر العباسى الأول

١٣٢ – ٣٣٤ هـ

يبدأ هذا العصر منذ أن أعلن أبو العباس السفاح فى الكوفة قيام الخلافة العباسية ، ولقد أخذ أبو العباس فى توطيد دعائم الدولة الجديدة ، وتثبيت أركانها ، وتتابع الخلفاء من بعده ، يسيرون على نهجه من النهوض بها ، والقضاء على خصومها ، والعمل على بناء مجدها ، وعلى رفع منارة العلم والأدب والحضارة فى جميع جوانبها ، كل ذلك والخلافة فى قبضتهم ، والنفوذ خالص لهم ، والسلطان بأيديهم ، والأمر لهم وبهم ؛ لارأى لأحد إلى جانب رأيهم ، ولا تدخل من أجنبي فى شئونهم ، لأن العناصر الأجنبية الدخيلة كانت لاتزال تأتمر بأمرهم ، وتخضع لمشيئتهم ، ولا تتطاول إلى مقام توجيههم ، فضلا عن مناوأتهم ، واغتصاب النفوذ منهم ؛ بل كان أقل غرور أو تطاول أو تدخل فى شئون الملك يبدو من أحد منهم ، خليقاً بأن يثير عليه الخليفة ، وأن يدفعه إلى البطش به والقضاء عليه ، كما فعل السفاح بأبى مسلم الخراسانى وزيره الفارسى ، والمنصور بأبى سلمة الخلال مع أن كلا منهما يعد أكبر مؤسس لخلافة العباسيين ، وكما صنع الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بحسن بن سهل صهره ووزيره ، والمعتصم بالأفشين .

هكذا كان سلطان الخلفاء بالرغم من تقريبهم للموالى وقيام سياستهم على الاعتزاز بهم ، لما بذلوه من مجهود فى سبيل تأسيس الدولة . وعلى هذا النحو من النفوذ والقوة ، كانت الخلافة فى عصر السفاح فالمنصور فالمهدى فالهادى فالرشيد فالأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق فالمتوكل الذى ولى الخلافة عام ٢٣٢ هـ ، والذى كان آخر الخلفاء من ذوى النفوذ والسلطان منذ قيام الدولة .

وفى عصر المتوكل أخذ الحزب التركى العسكرى يتآمر على الخلافة والخليفة ، ويحاول التدخل فى شئون الدولة ، وانتهى الأمر بمصرع المتوكل بأيديهم عام ٢٤٧ هـ . وبذلك ينتهى عهد نفوذ الخلفاء (١) ، ويبدأ عهد آخر جديد يسود فيه نفوذ الأتراك وتشتد هيمنتهم على الخلافة .

ويستمر هذا العهد من عام ٢٤٧ حتى فتح البويهيين لبغداد عام ٣٣٤ هـ .

وهذا العصر بعهديه هو أزهى عصور الإسلام ؛ وصفحاته المشرقة أنصع الصفحات فى التاريخ السياسى والأدبى للعرب .

ولا بدع فقد بلغت فيه الدولة الإسلامية المظفرة منتهى ماتطمع إليه من المجد والسلطان ، وغاية ماتصبو له من حضارة ومدنية ، وثقافة وعرفان .

كانت مملكة العباسيين فيه تمتد من شواطىء المحيط الأطلسى إلى حدود الهند والصين ، وكان نفوذ الخلفاء العباسيين بالغاً غايته فى العالم المعروف آنذاك ، يذكر اسمهم فى بيزنطة أو روما أو الصين ، فترتعد الفرائص وتخفق القلوب وتنحنى الهامات ، وتسير جيوشهم المنصورة فى كل مكان ، وترتفع رايتهم فى كل أفق ، حيث يستظل بظلها الملايين العديدة من سكان الدنيا ، ويدينون لها بالولاء والوفاء . . وكان لخلفاء بنى العباس ولاة فى كل إقليم ، وحكام فى كل قطر ، ينشرون الأمن والعدل والنور والعلم ، ويجبون الأموال والضرائب باسم أمير المؤمنين . وخليفة المسلمين ـ وكانت اللغة العربية تسير حيث يسير نفوذ الخلفاء ، ويتعلمها الناس من كل لون وجنس ، وكانت آدابها تسير معها أينما سارت ، وتستقر حيثما استقرت .

---

(١) يختلف مؤرخو الأدب فى نهاية هذا العصر ، فالبعض يجعلون نهايته من بدء خلافة المتوكل عام ٢٣٢ هـ (ضحى الاسلام جـ ١ صـ ب ، تاريخ أدب اللغة العربية لجورجى زيدان ١٧ / ٢ ، وتاريخ الأدب للزيات صـ ٢١١) ، والبعض الآخرون يجعلون نهايته مصرع المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

وفى هذا العصر نبغت الفنون الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية وترجمت الثقافات الأجنبية ، وقامت المدارس والجامعات فى كل مكان ، تثقف العقول ، وتهذب النفوس ، وتحض على المعرفة ، ويجلس فى حلقاتها المسلمون على اختلاف عناصرهم ، وألوانهم وبيئاتهم .

وفيه عاش أئمة العلم والأدب والفكر ، يؤدون رسالتهم ، ويبنون لأمتهم مكانها الرفيع فى عالم الفكر الإنسانى ، ويؤثلون للحضارة مجدها الزاهى ، ويرفعون للفكر منارته السامقة .

وهكذا يمتاز العصر العباسى الأول بغلبة العناصر الفارسية نحواً من مائة عام ، ثم بغلبة العناصر التركية مائة عام أخرى ، كما يمتاز بتجمع الثقافات وظهورها فى الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبحرية الفكر ونفوذ المعتزلة وسلطانهم ، وبازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وظهور الأئمة الفحول فى العلوم والآداب ، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للعلم والأدب . كما يمتاز بنهضة النثر والشعر نهضة ليس لها مثيل فى تاريخ لغة العرب .



قيام الدولة العباسية

— ١ —

لايذكر التاريخ الإسلامى فى ثناياه وأطوائه ، وحوادثه وأحداثه ، أمراً أغرب ، ولاحدثاً أعجب ، من قيام الدولة العباسية ، على أنقاض ملك بنى أمية ، وعرشهم الذى رفعوه على السياسة والدهاء ، وكثرة البذل والسخاء وقوة السلطان وطول البطاش والعنف والطغيان .

وكان قيام ملك بنى العباس نتيجة لمقدمات كثيرة ، ونهاية لقصة غريبة مثيرة ، وخاتمة لأسباب تضافرت على القضاء على دولة الأمويين ، ووضع مقاليد الخلافة الإسلامية فى أيدى العباسين :

١ — وأول هذه الأسباب : اضطهاد الأمويين لآل الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم وإنزال الهون بهم فى كل مكان ، مما يصور بعضه فيما بعد دعبل الشاعر العباسى المشهور ، فى إحدى قصائده حيث يقول :

ملامك فى أهل النبى فانهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
لهم كل حين نومة بمضاجع ... لهم فى نواحى الأرض مختلفات
أرى فيئهم (١) فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد حفل القصرات (٢)
بنات زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات

ولقد شمل هذا الاضطهاد : البيت العلوى ، ممن ينسبون إلى الإمام على ابن أبى طالب ، ابن عم الرسول الكريم ، والبيت العباسى ، مما ينسبون إلى

---

(١) الفىء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات .
(٢) حفل القصرات . ضخام الأعناق ، كناية عن سمنهم .

العباس بن عبد المطلب ، عم محمد خاتم المرسلين ، وأكرم الخلق على الله .

ومصرع الحسين بن على فى كربلاء ، ومصارع أهله وأسرته ، ونفى بعضهم من الحجاز ، شاهد على مانقول .

ولما ازداد عنف الأمويين واستبدادهم بالعلويين ، ذهب سادتهم يؤلفون الجماعات ، ويكونون العصابات ، ويعلنون الحروب والثورات على خلفاء بنى أمية . وكان الشيعة يرشحون لخلافة المسلمين من آل البيت سيداً بعد سيد : فدعوا للحسن ، ثم لأخيه الحسين ، ثم لأخيهما الأصغر محمد بن الحنفية ثم لابنه أبى هاشم العلوى بن محمد .

وكان أبو هاشم هذا مقيما فى الحميمة ، بالقرب من بادية الشام ، حيث أقام على بن عبد الله بن العباس ، سيد البيت العباسى العريق . ويروى بعض المؤرخين أن أبا هاشم — الذى لم يكن له أبناء يرثون دعوته — رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه علياً هذا ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ، ويرى آخرون أنه تنازل لمحمد بن على .

ومهما يكن فقد آلت دعوة آل البيت إلى بيت بنى العباس ، فصارت الشيعة معهم ؛ يؤيدونهم ويؤازرونهم ، ونهضوا هم بالعبء كابر عن كابر ، وماجد بعد ماجد : على العباسى ، ثم ابنه محمد بن على ، الذى ذاعت على يده الدعوة لآل البيت فى كل مكان ، وألف أتباعه الجماعات السرية فى الكوفة وخراسان ، وكان محمد يبصر دعاته بأساليب الدعوة . والبلاد التى يبثون فيها مذهبهم ، ويوصيهم بتركيز جهودهم فى خراسان ، حيث المشرق ومطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق ، ، وحيث ضعف سلطان بنى أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والحب لآل النبى وسلالته .

ثم آلت الدعوة بعد محمد بن على إلى ابنه إبراهيم ، الذى حبسه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، حتى مات فى الحبس ، وقام بالأمر بعده أخوه أبو العباس .

ولقد نجحت دعوة الدعاة نجاحا باهراً ، وآمن بها الملايين من المسلمين ، فى العراق وفارس ، وأخذوا ينازلون الأمويين فى هذه البلاد . فطردوا ولاتهم فى خراسان ، وهزموا جيوشهم فى فارس ، حتى صارت خراسان وفارس ثم أكثر العراق فى قبضة المسودة ، أتباع بنى العباس ، وشيعة آل البيت .

وفى ربيع الأول من عام ١٣٢ ﻫ ، أعلن أبو العباس السفاح من فوق منبر المسجد الجامع بالكوفة ، بدء قيام الدولة العباسية ، وانتهاء دولة بنى أمية ، وكان من خطبته قوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح ، وبهذا لقّب السفاح .

ثم نهضت جيوش السفاح لمنازلة بنى أمية وجنودهم فى الجزيرة والشام . وفى معركة « نهر الزاب » قضى العباسيون على خيرة جيش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وفر مروان بن محمد إلى مصر ، مهزوماً مدحوراً ، حيث تبعه صالح بن عم الخليفة العباسى ، وقبض عليه ، وقتله فى آخر العام نفسه .

٢ — وثانى تلك الأسباب التى ساعدت على قيام الدولة العباسية : ما كان من اضطهاد الأمويين للموالى عامة .

فقد كانت دولتهم - كما علمنا - عربية أعرابية خالصة ، إذ كانوا يعتزون بالعرب اعتزازاً كبيراً ، ويحتقرون الموالى احتقاراً شديداً ، حتى كانوا لا يستعينون فى دولتهم بأحد منهم ، وكان الحجاج واليهم على العراق يأمر أن لا يؤم بالكوفة إلا عربى[1] ، وكان لا يلى الخلافة أحد من أبناء المولدين الذين ولدوا من أمهات أعجميات[2] ، وكان العربى فى جيش الخلافة فى فرق

---

(١) ٢٠٧ : ١ العقد الفريد .
(٢) ١٩٧ : ٣ المرجع نفسه .

الفرسان، والموالى فى عداد المشاة ، ومنع الأمويون زواج الموالى بالعربيات بل أبطلوا ماوقع من أمثال ذلك الزواج ، يروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن رجلا من الموالى خطب عربية من بنى سليم وتزوجها فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكا إلى واليها إبراهيم بن هشام ، فأرسل إبراهيم إلى هذا المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ... ولم ترث الحكومة من بعيد
وفى المائتين للمولى نكال ... وفى سلب الحواجب والخدود (١)

ويقول الأصفهانى : كانت العرب إلى أن عادت الدولة العباسية ، إذا أقبل العربى من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه ، وصدق الجاحظ إذ يصف دولة الأمويين بأنها عربية أعرابية (٢) .

من أجل ذلك كله حقد الموالى على دولة بنى أمية ، وأضمروا لها الكراهية والحقد والبغضاء . وكان العنصر الفارسى أكثر الموالى حقداً ، وأشدهم موجدة ، وأكظمهم غيظاً وحنقاً على سلطان الأمويين الجائر ، وحكمهم الباطش ، وطغيانهم الشديد لأن له تاريخاً قديما ، وملكا بائداً ، وحضارة موروثة ، وكان الفرس يحلمون باستعادة دولتهم ، واستقلال أمتهم ، وإحياء حضارتهم؛ ولهذا كان لهم الفضل الأكبر ، واليد الطولى فى قيام ملك بنى العباس ، فالثورة على الأمويين قامت فى بلادهم ، وكانوا هم جندها والمحاربين فى سبيلها وكان منهم القواد الكبار ، الذين حطموا خلافة بنى أمية وعرشهم ، كأبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى .

---

(١) الأغانى ١٥٠ جـ ٤ و ٢٥٦ : ٢ الكامل ، ٩٣ : ٢ العقد .
(٢) ٢٠٦ جـ ٣ البيان والتبيين .

ولهذا كله كان للفارسيين في بدء الدولة العباسية نفوذ كبير ، ومقام خطير ، مما يصوره لنا داود بن علي عم السفاح في خطبة له : يا أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا ، أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » ، وقول أبي جعفر المنصور : « يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا » . وأوصى بهم قبل وفاته ابنه المهدي فقال : « أوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم . وتكافئهم على ما كان منهم . وتخلف من مات منهم في أهله وولده » .

٣ — وثالث الأسباب في قيام الدولة العباسية ، والقضاء على الخلافة الأموية : هذه العصبيات القبلية ، التي أشعل نارها خلفاء بني أمية ، مما يفسره كثير من الأحداث التاريخية ، والقصائد الشعرية في هذا العصر ، وهذه العصبيات ظلت ملازمة لعهد الأمويين . . وأخيراً وجدنا مروان بن محمد يتعصب لقومه نزار على اليمن ، فانحرفت اليمن عنه إلى الدعوة العباسية الناشئة .

وكان الخلفاء الأمويون طول ملكهم يؤججون الخلاف بين القبائل العربية ، ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم .

ولما قام أبو مسلم الخراساني بأمر قيادة جيوش العباسيين في خراسان ، لم يجد صعوبة ، في تأجيج نيران الخصومات بين القبائل وزعمائها : وبذلك أمكنه أن يتغلب عليهم جميعا ، وأن يجعلهم يفنون أنفسهم بأيديهم ، حتى لم يستطع زعماء المضريين ، وجديع بن شبيب الكرماني سيد اليمانية : وشيبان ابن سلمة الحروري رئيس ربيعة ، لم يستطع هؤلاء جميعا الوقوف أمام الخراسانيين ، الذين زحفوا كالسيل المنهمر من العراق والشام .

وكان كل عربي شديد التعصب على أبناء القبائل العربية الأخرى . .

مما يصوره لك هذه الأبيات ، يقول رجل من بنى أسد بن خزيمة يمدح يحيى بن حيان :

ألا جعل الله اليمانين كلهم　　فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق فى من عصبية　　لقلت : وألفا من معد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى　　وطابت له نفسى بأبناء قحطان

— ٢ —

فلا عجب إذن أن تنقرض دولة بنى أمية ، وينبثق من الأفق نور جديد ، يؤذن بقيام الخلافة العباسية الفتية الناشئة ، التى بادرت بقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وتشريد الأمويين والقضاء عليهم فى كل مكان . وكان الشعراء يؤججون نار الانتقام فى نفوس العباسيين . دخل سديف الشاعر مولى بنى العباس على السفاح ، فألفى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا ، لتأمين أبى العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال　　إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى　　لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانته . . ودخل شبل عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو المائة ، فأنشد :

أصبح الملك ثابت الآساس　　بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها　　بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً　　واقطعن كل رقلة وغراس(١)

---

(١) الرقلة : النخلة فاتت اليد والجمع رقل ورقال .

ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا . . وبهذا البطش والتنكيل ، خاص الملك لبنى العباس ، وقضى على دولة الأمويين وعاصمتهم دمشق الشام ، وخلفتها الكوفة ثم بغداد . . وهكذا تدول الدول ، وتتعاقب الأيام ، ويعز الله من يشاء ؛ ويذل من يشاء ...

— ٣ —

تولى عرش الخلافة فى هذا العصر من بنى العباس خلفاء ، دانت لهم الدنيا ، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة ، وحضارات قديمة .

وكان أولهم السفاح ، الذى اشتهر بالبطش والاستبداد ، وجعل الكوفة عاصمة للملك ، وظل فى الخلافة أربعة أعوام (١٣٢ - ١٣٦ هـ) .

وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، وظل خليفة أكثر من عشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨ هـ) ، وطد فيها ملك بنى العباس ، وبنى بغداد عام ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة له ، كما بنى الرصافة ، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم العريقة فى الثقافة والحضارة ، وكان متقدما فى علم الكلام داهية أديباً مصيباً فى رأيه . جميل التدبير حسن السياسة ، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً ، وأوسعها رقعة ، بيد أنها صبغت فى عهده بالصبغة الفارسية .

وتولى بعده ابنه المهدى ، الذى ازدهرت فى عهده الحضارة وشاع الترف وتقدمت العلوم والفنون والآداب ، وعاش فى رعايته كثير من العلماء والشعراء وكان جواداً كريماً ، وقد نكل بالزنادقة ، ومات عام ١٦٩ هـ ، فتولى بعده ابنه الهادى ، الذى ظل فى الخلافة سنة واحدة ، وخلفه أخوه هرون الرشيد ابن المهدى .

وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية ، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه ، وكانت بغداد تعج بالعلماء والأدباء والشعراء ، ويروى أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من فحولة الشعراء (١) . وكان الرشيد يقتفى فى سياسته آثار جده المنصور ، وفى سماحته آثار والده المهدى ، ولما زاد نفوذ الفرس على يد وزرائه من البرامكة بطش بهم فى عنف وشدة عام ١٨٧ هـ ، ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسى هزاً عنيفاً ، ومات الرشيد عام ١٩٣ هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) . ثم ابنه المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) .

ويعد عهد المأمون درة فى تاج الحضارة الإسلامية ، وغرة فى جبين الخلافة العباسية ، أشرقت العلوم فى أيامه ، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء ، وزهت حركة الترجمة ، ونقلت الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد فى أيامه ، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين . وتولى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، وكان عسكرياً بنشأته وميوله ، ولما خاف من الفرس قرب إليه الأتراك ، فبدأ نفوذهم فى الدولة على أيامه ، وبنى (سامرا) واتخذها حاضرة للملك عام ٢٢١ هـ ، وسارت فى عهده نهضة العلم والأدب فى طريقها الذى كانت تسير فيه . . وولى بعده ابنه الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) ، ثم ابنه المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) .

وفى عهد جعفر المتوكل على الله اشتد نفوذ الترك ، واستحكم العداء للشيعة ، واضطهد المعتزلة والاعتزال وكانت أيامه أحسن الأيام وأنضرها ، حفلت بأئمة العلم والأدب ، ثم قتله الأتراك عام ٢٤٧ هـ . وبذلك بدأ طور

---

(١) ١٧٠ جـ ٣ يتيمة الدهر للثعالبى . وحمل الرشيد معه لما سافر إلى الرقة ثمانية عشر صندوقا من الأسفار ليقطع بمطالعتها زمانه ، مع أنه لم يأخذ معه الانخبة مما فى خزائنه (٥ : ٦٧ الأغانى) .

جديد فى تاريخ الخلافة العباسية ؛ وهو عهد نفوذ الأتراك الذى ظل قريبا من مائة عام أخرى (٢٤٧ — ٣٣٤ هـ) وتولى فيه الخلافة المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر .

— ٤ —

وفى فترة نفوذ الخلفاء كان للعنصر الفارسى مكانة عالية عند العباسيين ، وحظوة كبيرة فى قصورهم ، وكان بيده مقاليد الأعمال ، وتصريف شئون الخلافة ، كان الخليفة عربياً هاشمياً ، ولكن وزراءه وأكثر قواده فارسيون ؛ يزيد سلطانهم ، ويقوى نفوذهم يوماً بعد يوم ، ويزداد تبعاً لذلك شأن الموالى فى الدولة ؛ حتى كان أكثر من تولى الأعمال للمنصور منهم إذ قدمهم على العرب وكثر استخدامهم بعده ؛ حتى زالت رياسة العرب وهيمنتهم . وفى عصر الرشيد زاد نفوذ الفرس ؛ فسيطر البرامكة ـ وهم من سلالات فارسية قديمة ـ على شئون الدولة ، إلى أن بطش بهم الرشيد بطشاً عنيفاً عام ١٨٧ هـ . وكان المأمون ينتصر للفرس ؛ إذ كانوا أخواله وهم الذين أعانوه على تولى الخلافة ، وأخذها من يد أخيه الأمين ، ويروى أن عربياً من أهل الشام قال له : « انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » ، فقال له المأمون : « أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، أعرفت ذلك ؟ اعْزُب عنى » .

ركن العباسيون إلى الفرس ولم يثقوا بالعرب فأقصوهم عن الحكم والسلطان وأبعدوهم عن تصريف شئون الدولة ، وأذلوهم بالحروب والتشريد والانتقام وسفك الدماء . وتظهر هذه النزعة واضحة فى قول إبراهيم بن محمد رأس الدعوة العباسية فى وصيته لزعيم شيعته ، أبى مسلم الخراسانى : « وإن

استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » .

ومن مظاهر نفوذ العنصر الفارسى نقل العاصمة إلى بغداد فى العراق ، لقربها من خراسان موطن الدعوة ، ونقلهم نظام الفرس الكسروى فى الدواوين والسياسة وأساليب الحرب ، واقتباس العادات الفارسية فى كل ناحية حتى فى العيش والطعام ، واحتفاؤهم بالأعياد الفارسية كعيد المهرجان والنيروز وسواهما ، وانتشار ثقافة الفرس وعلومهم وآدابهم .. وكثرة الفرس كذلك فى قصور الخلفاء والأمراء والولاة ، وقصرت عليهم المناصب الكبيرة كالوزارة .. حتى أصبحت الدولة عربية اللغة إسلامية الدين والأخلاق ، فارسية المعيشة والإدارة والسياسة .

ولما تطاول الفرس على مقام الخلافة فى عهد المعتصم كرههم وحذر منهم ، وقرب إليه الأتراك ، وكانت أمه « ماردة » منهم ، وبنى لهم (سامرا) ، وجعلهم قواد جيشه ، ومكن لهم فى الدولة ، ولم يمض غير قليل حتى صار لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة فى عهد المتوكل ، ثم شغبوا عليه فقتلوه عام ٢٤٧ هـ فى قصره « الجعفرى » ، وقتلوا معه وزيره « الفتح بن خاقان » .. وكان ذلك مصرعاً دامياً لمجد الخلافة ونفوذ الخلفاء . وفى ذلك يقول يزيد المهلبى الشاعر من قصيدة طويلة فى رثاء المتوكل :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد   وهل لمن فقدت عيناى مفتقد ؟

ومنها :

فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم   حمتكم السادة المذكورة الحشد

ويقول البحترى يصف قصر المتوكل بعد مقتله :

تغير حسن الجعفرى وأنسه   وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة   فعادت سواء دوره ومقابره

إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه
وإذ ذعرت أطـلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل وهتكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليـه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره (١)
فأين الحجاب الصعب حين تمنعت بهيبته أبوابه ومقـاصره ؟
وأين عميد الناس فى كل نوبة تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره ؟

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمـير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيـدها
بنى هاشم صبراً لكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وصار الأتراك منذ ذلك الوقت حتى نهاية العصر العباسى الأول أصحاب السلطان فى الدولة .

— ٥ —

وكان الخلفاء العباسيون فى هذا العصر يحرصون أشد الحرص على :

١ — نشر الثقافة والحضارة فى أرجاء دولتهم الواسعة ، والعناية بترجمة العلوم المختلفة من الفارسية والهندية واليونانية وسواها إلى اللغة العربية وتشجيع الفنون والآداب فى كل مكان .

٢ — الاهتمام بأمر الموالى ، وتقريبهم والإغداق عليهم ، وبسط

---

(١) مكاسر : جمع مكسر ، وهو جذع الشجرة حيث تكسر الأغصان ، يقال فلان طيب المكسر أى محمود عند الخبرة .

النفوذ والسلطان لهم ، وكان أظهر الموالى حظاً عند الخلفاء الفرس ثم خلفهم الترك .

٣ — العناية بالمظهر الدينى الذى أقاموا عليه دعوتهم، وشيدوا على أساسه دولتهم ، ومن أولى بذلك منهم ، وهم ورثة سيد الأنبياء ، وذريته ، وخلفاء المسلمين وولاة أمورهم ؟ فلا عجب إذا أن يخرجوا إلى الصلوات الجامعة فى الحشد الحاشد من رجال دولتهم وقواد جيوشهم وأن يخطبوا الناس ويعظوهم ، وعليهم بردة النبى وبين أيديهم أئمة العلماء ورجال الدين، ويصور البحترى فى قصيدة له خروج الخليفة المتوكل على الله لأداء الصلاة الجامعة فى عيد فطر ، تصويراً بارعا رائعاً ، فيقول منها :

فانعم بيوم الفطر عيناً إنه ... يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل ... لجب يحاط الدين فيه وينصر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها ، وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر

الطابع السياسى فى العصر العباسى الأول

— ١ —

يتميز العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٤ هـ) (١) بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه حتى خلافة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ)، ثم ضعفت الخلافة وضاعت هيبة الخلفاء وفسدت شئون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدا كبيرا بعد ذلك (٢٤٧ — ٢٣٤ هـ) .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها فى الدولة بجانب الفرس والعرب (٢) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم ، وعاشوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها ، لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم « ماردة » تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك ، مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمين فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم

---

(١) يقسم بعض الباحثين هذا العصر إلى قسمين (ص٩ جـ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و٥ جـ٤ التمدن الإسلامى ، ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص ب جـ١ ضحى الإسلام) . ويجعل كثير من الباحثين العصرين عصراً واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للاسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ، ١٦٥ جـ١ المفصل) .

(٢) ١٦٧ جـ٤ التمدن الإسلامى .

الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم ، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة (١) .

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسى مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (٢) ، فكان ذلك أيضا مما زاد من تقريب المعتصم للجند الأتراك وإيثاره لهم .

وفى عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً (٣) ثم ازداد عددهم فى جيشه حتى بلغوا السبعين ألفا (٤) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطىء دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكرا لجيشه ، وحاضرة للملك ، منذ عام ٢٢١ هـ (٥) ، وأصبحت مدينة عظيمة فى مدة وجيزة (٦) ، وصارت من أجل الحواضر الإسلامية ، وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ هـ (٧) .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم فى الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله بإسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قياده الجيوش ، ومنعوا الولايات (٨) .

---

(١) ١٦٨ : ٤ التمدن الإسلامى . (٢) ٣٠٤ : ١٠ الطبرى .

(٣) ٢٣٣ : ٢ النجوم الزاهرة . (٤) ٤ العصر العباسى للسباعى بيومى .

(٥) ٩ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٦) ٥٢ و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد .

(٧) ١٠٠ : ١ ظهر الإسلام .

(٨) ١٤٤ : ٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام فى دار السلام .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى الأتراك (١) ، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعا،وسعوا فى قتلهم ، وموقف الأفشين من أبى دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبى دؤاد معروف (٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ، وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦ هـ واشناش م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم فى جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم ، حتى إن الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ أشناس التركى على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجا (٣) ، وفى عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب(٤) . ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الأتراك فى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه (شجاع) خوارزمية تركية ، فتم لهم ماأرادوا ، واستبدوا فى عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد فى رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم فى الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات ، كثيرو الطمع فى الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم . ولكنهم كانوا يحكمون تدبيراً آخر لقتل

---

(١) ١٧٠ جـ ٤ التمدن (٢) ٥٤ الأذكياء لابن الجوزى .
(٣) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .
(٤) ١٢ جـ ١١ الطبرى .

الخليفة (١) ، وتقدم باغر التركى حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التى دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة ، فقتلوه فى قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك فى أواخر عام ٢٤٧ هـ (٢) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وكانت هذه الحادثة بدء مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفى ذلك يقول البحترى :

أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ويقول المهلبى :

لاحزن إلا أراه دون ما أجد ... وهل لمن فقدت عيناى مفتقد

ومنها: فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى إسحاق بن إبراهيم المصعبى م٢٣٥ هـ فى الأتراك حين شكا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له (٣) . ويقول على بن الجهم :

عبيد أمـــير المؤمنين قتلنـه ... وأعظم آفات الملوك عبيـدها

بنى هاشم صـبرا فكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

---

(١) ٦٥ - ٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٢) راجع مقتل المتوكل ومراثى الشعراء فيه فى (٢٦٠ - ٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه فى (٣١١ ج ٢ وما بعدها من الكامل للمبرد ، ١٨٦ ج ٢ العقد ، ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

(٣) راجع ٨ ج ١١ الطبرى .

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سببا فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢ هـ .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففى عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ هـ ، ثم بغا عام ٢٥٤ هـ ، وفى مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله (١) :

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه　　وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم　　بدم ولا مضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه فى الشمس حافياً (٢) ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ هـ ؛ ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ هـ ومات بعد خلعه بأيام .

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبح غير قليل من جماحهم ، وأثر ذلك فى حسن الأحوال قليلا .

---

(١) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ جـ ٢ ديوان البحترى .

(٢) ١٦٢ جـ ١١ طبرى ، ١٣٠ جـ ٢ شذرات الذهب ، ٢٠ جـ ٤ مروج الذهب

وسار المعتضد بن الموفق فى خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة ، فاقتص من تركى ارتكب معصية(١)، وقتل قائداً تركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك (٢) ، وفى المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته فى تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا ... وكان نهباً فى الورى مشاعا
وكل يوم ملك مقتول ... وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب ... وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل ... فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً ... يرونه ديناً لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة ... وعودوها الرعب والمخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) فى خلافته بسيرة والده من الحزم والعزم والأخذ على يد الأتراك . وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة إلى عام ٣٢٠ هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة فى هذه الفترة تسير فى طريق بعيد عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى أيدى الأتراك ، الذين لم يبالوا بشىء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربى صميم ، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

---

(١) راجع نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .
(٢) ديوان ابن الرومى ص ٣٠٣ .

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عجم الترك تقسم فيئنا ونحن لديها فى البلاد شهودها
فأقسم لاذقت القراح وإن أذق فبلغة عيش أو يباد عميدها (١)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها الجند الشاكرية ؛ وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة ، وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان ، وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب ، وقد قدمها الجاحظ إلى الفتح ، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم ، ولكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب ، فأعاد كتابتها من جديد فى عهد المتوكل ، ودعا فيها إلى وحـــدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولاتهم إلى حد بعيد (٢) ؛ وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

وكثر نفوذ الغلمان فى هذه الفترة وخاصة فى عهد المقتدر ، الذى كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٣) ، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال فى الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ، الذى تولى قيادة

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .
(٢) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول مجموعة رسائل الجاحظ .
(٣) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥ ، اداب اللغة لزيدان ج ٢ ص ١٥٤ .

الجند ونقش اسمه على الأعلام ، وأبلى فى خدمة مولاه بلاء حسناً ، حتى قتل فى سبيله عام ٢٨٩ هـ . ونشطت النساء ، وكثر نفوذهن أيضاً فى الدولة ، وكان معظم ذلك فى عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفى ظلال هذه الفوضى السياسية ، استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ — ٢٩٢هـ) وهى تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٢٢ — ٣٥٣ هـ) ، وهى تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) وهى فارسية ، والدولة السامانية فى ماوراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) وهى فارسية أيضا ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ، والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠ — ٢٨٥ هـ) وهى عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ — ٣١٦هـ) .

— ٢ —

وقد حفل هذا العصر بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجد أخباره ونتائجه فى « مقاتل الطالبيين » ، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فلقد كثر اضطهاد الشيعة فى هذه الفترة الحافلة ، وأسرف فى ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير ، عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى فى تشريدهم ، وأمر فى عام ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بكربلاء (١) .

---

(١) ٢٧٩ جـ ٣ محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ، ١٩ جـ ٧ وما بعدها ابن الأثير .

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (١) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٢) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلى (٣) وكان شديد البغض لعلى وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان الأتراك فى الدولة . وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت فى الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه (٤) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ولكن لم تطل مدته (٥) .

ولكن عهد المتعضد كان عهد خير على العلويين ، فإنه لم يتعرض فى أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً (٦) .

وكان البعض يشنع على آل أبى طالب عند المكتفى فنهاهم عنه (٧) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

---

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .
(٢) راجع مناظرة المأمون للفقهاء فى تفضيل على (٢٧٩ - ٢٨٦ ج٢ العقد) .
(٣) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .
(٤) الإدارة الإسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .
(٥) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .
(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢ ج ١ .
(٧) الأغانى ص ١٤٣ ج ٩ .

الطابع الاجتماعى لهذا العصر

— ١ —

ترتكز الحياة الاجتماعية (١) على الحالة الاقتصادية للدولة رقيا وضعفا .

والحياة الاقتصادية فى هذا العصر كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء (٢) ، وكان كبار الملاك يستقلون بإقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم (٣) وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب الوزير أمام المهتدى ، وعمت المصادرة وانتشرت بين طبقات الناس وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسى لبيت المال(٤) ، وأنشىء لها ديوان مخصوص(٥) .

وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة (٦) . ويدل على مدى قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان فى أواسط القرن الثالث ـ كما ذكر ابن خرداذبة ـ نحو ثلاثمائة مليون درهم (٧) بعد أن كان فى عهد المأمون

---

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .
(٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .
(٣) ١٥٦ : ٧ مهذب الأغانى .
(٤) ١٨٠ : ٤ التمدن الإسلامى : ١٦٩ : الإدارة الإسلامية .
(٥) ٣٥ : ١ ظهر الإسلام و ١٦٩ الإدارة .
(٦) ٥٣ بارتولد و ٦٩ : ٥ التمدن .
(٧) ٦١ : ٢ التمدن .

والرشيد أكثر من ٣٩٠ مليونا (١) ، وفى عهد المعتصم ٣٨٨ مليونا (٢) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار فى اليوم (٣) وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليونا من الدراهم فى العام(٤) فالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة(٥) .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة (٦) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليونا من الدنانير — ٦٠٠ مليون درهم — وترك الرشيد واحدا وعشرين مليونا (٧) — وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالا طائلة فوق ماتركه من ثروة خاصة .

— ٢ —

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

١ — العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة وطابع العربى الزهو

---

(١) راجع ١٧٩ - ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، و٥٣ : ٢ التمدن ، و ١٥٢ حضارة الإسلام فى دار السلام .

(٢) وذلك وفق ما ذكر قدامة فى كتاب الخراج ، ٥٩ : ٢ التمدن . ومتوسط الجباية فى العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليونا فى العام ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥ مليونا والباقى يظل فى بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منه المرتبات والمكافآت ، ٦٩ و ٧٠ : ٥ التمدن .

(٣) ٣٥٣ - ٣٥٥ : ٣ الخضرى بك .

(٤) ٦٦ : ٢ التمدن .

(٥) ٦٧ : ٢ التمدن .

(٦) ١٠١ : ٥ التمدن .

(٧) ٢٣ : ٢ وما بعدها التمدن .

والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة فى السيادة .

٢ — العنصر الفارسى : وكانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم التى كانت لهم فى العصر الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس والمؤامرت ، ويرمون إلى الاستقلال عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم فى حياتهم العقلية الخصبة ، وبعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف .

٣ — الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسى فى الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة فى الحكومة ، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة (١) ، وكان فيهم عبث بالأخلاق وشراهة فى جمع الأموال (٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك فى قصور الخلفاء والأثرياء، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين . وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة فى الإصلاح .

وهناك عنصران آخران كان لها أثرهما فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، وهما الزنج والروم :

أما الروم : فقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات ، وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه نسيم (٣)، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣هـ .

---

(١) ظهر الإسلام جـ ١ صـ ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص صـ ١٠ : ١ ـ مهذب الأغانى جـ ٧ صـ ١٩٤ .

وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون فى الزراعة والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥ — ٢٧٠هـ) وكانت حربا بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠ هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً (١)، والنفوذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة فى البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء (سامرا) أموالا طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المبانى التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه (٢) . وفى تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر ... ولا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل ... فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه ... ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً ... كم حكمة فيه تخال سحراً
أبنية فيها جنان الخلد ... لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين ... وحكمة مقرونة بالدين
ومظهرات قوة الإسلام ... على أعاديه من الأنام

---

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى (٢٠ - ٥٩ : ٥ ، ١٠١ - ١٢٩ : ٥) .

(٢) التمدن الإسلامى ص ٩٣ و ٩٤ ج ٥ ، وظهر الاسلام ج ١ ص ٩٩ .

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس (١) .

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

— ٣ —

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل، ومجالا لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب، الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة . فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم ،

وقد قامت جماعات تكافح الشك فى الدين والمجون فى المجتمع، ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة فى بغداد لمحاربة المجون والإلحاد والترف . وفى بعض مظاهر هـذا الترف والبذخ ، يقول على بن الجهم واصفا قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

ومازلت أسمع أن الملو	ك تبنى على قـدر أقدارهـا
وأعلم أن عقول الرجا	ل يقضى عليها بآثارهـا
فلما رأينـا بناء الإمام	رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس	ولا الروم فى طول أعمارها

(١) ظهر الإسلام جـ ١ صـ ٩٧ .

وللروم ماشيد الأولون وللفرس آثار أحرارها

ولضيق الرزق وأبوابه على كثير من الناس كثر أهل الكدية ، إذ كانت تدر عليهم أخلاف الرزق .

— ٤ —

وحدث امتزاج شديد بين العناصر والأجناس التى تكونت منها الدولة وأحدث ذلك آثاره فى الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقام الصراع بين الموالى والعرب ، وشبت نيران الشعوبية ، وكثر لغط دعاتها ، ممن يسوون الشعوب الأجنبية بالعرب أو يرفعون من شأنهم ويفضلونهم على العرب ؛ وكانت غلبة النفوذ الفارسى ذات أثر كبير فى الحياة الاجتماعية ، فانتشرت الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد الفارسية ، وصعد الموالى إلى أعلى مناصب الدولة ، وانتشر الرقيق والغناء،وكان لهما أثرهما فى الحياة الأجتماعية وفى ازدهار الشعر كذلك .

ولقد فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، وملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفى أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً . وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة فى الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب فى السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ، وداخلوهم مداخلة شديدة ، حتى نشأ جيل جديد من المولدين ، الذين نسلوا من آباء عرب وأمهات أعجميات (١) .

---

(١) يقصد بالعجم ماعدا العرب ، أى السلالات الأجنبية غير العربية : من فرس وروم وهنود وسريان وحبش وزنوج وسواهم .

وكان العرب قبلاهم السادة والحكام، وبيدهم شئون الدولة والولاية، ولهم النفوذ والسلطان، وكانوا يتعصبون لكل ماهو عربى، ويضعون الأعاجم فى منزلة دون منزلتهم. فلما قامت الدولة العباسية، بدأ الموالى يرفعون رءوسهم ويعتزون بكرامتهم، ويمنون بأياديهم على الخلافة، وينادون بأن لافضل للعرب عليهم، لأنهم أقدم من العرب حضارة، وأعرق منهم سلطاناً، وأخذت شوكتهم تقوى، ونفوذهم يزداد، وأصبح منهم الوزراء والقواد، وكبار الكتاب وحاشية الخليفة، وعماله وولاته... وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب، وتغلغوا فى أنحاء الدولة، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب، والعرب والموالى، أثره البعيد.

وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء؛ بل الخلفاء والأمراء، كانوا من أعجميات: فالهادى والرشيد ابنا «الخيزران» وهى أم ولد من خرشنة — بأرض الروم —، والمأمون أمه «مراجل»؛ والمعتصم أمه «مارد» والواثق أمه «قراطيس» وهى رومية، والمتوكل أمه «شجاع» خوارزمية، أما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى عربية هاشمية — وكان خصوم الدولة كثيراً ما كانوا يلوحون للخلفاء بنشأتهم فى أحضان أمهاتهم الأعجميات. كتب محمد بن عبد الله العلوى للمنصور: «ولا أعرقت فى الإماء ولا حضنتنى أمهات الأولاد»، فبعث إليه المنصور برسالة يقول: «وأما ما ذكرت من أنك لم تعرق فيك الإماء، فقد فخرت على بنى هاشم طرا: أولهم إبراهيم ابن رسول الله؛ ثم على بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله مولود مثله»؛ ويقول الشاعر متألماً من كثرة أولاد الإماء:

إن أولاد السرارى كثرت يارب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

وكان للجوارى والقيان اللواتى كثرن فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير فى زيادة الامتزاج والاختلاط ؛ يروى أن الرشيد كان فى قصره ألفا جارية . والمتوكل ضعف ذلك ؛ وكانت هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن فى الأسواق ، ويهدين كما تهدى الطرف النادرة .

— ٥ —

ولقد نشأ عن تقريب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة ، والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شىء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاف البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة والمحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

— ٦ —

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، فى حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جلية فى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى العقول والأجسام ، وشتى نواحى المعيشة والحياة ، مما نستطيع أن نصوره فيما يلى :

١ — انتشرت العادات الفارسية فى المجتمع فى هذا العصر، بسبب هذا الاختلاط الذى صورناه، وذلك الامتزاج الذى شرحناه، سواء فى الطعام أو الشراب أو السكنى، أو اللهو والغناء. فذاع اللعب بالشطرنج والنرد، والخروج إلى البوادى والقرى للراحة أو الصيد، واصطحاب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان، وأخذ العرب يحاكون الفرس فى العناية بموائدهم، ووضع الزهور والرياحين عليها، وفى تنسيق البيوت، وإعداد الحجرات، وفى الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً، ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان، حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهانى والهدايا.

وذاعت الأزياء الفارسية، من قلانس وأقبية، وعمائم، وسواها[1].

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة فى غير طائل، اللهم إلا إشباعاً للنفس، وإرضاء لداعى اللهو واللذة، فلا عجب أن غالوا فى مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة، حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بزبيدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام، وكانت الهبات فيها لا تتناهى. وكذلك فعل المأمون فى بنائه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ، فقد أعطاها فى صداقها ألف حصاة من الياقوت، وأوقد الشموع الهائلة من العنبر، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة ... وأولعوا بالغناء، وتفننوا فيه، وأبدعوا فى ألحانه وجددوا فى آلاته، وأكثروا فى مجالسه من الملح والعبث والشراب.

وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها، وبهجة منظرها، وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادينها وشتى مظاهر الحضارة فيها، قال الشاعر:

أعاينت فى طول من الأرض والعرض
كبغداد داراً؟ إنها جنة الأرض

صفا العيش فى بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غير صاف ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها ... مرىء، وبعض الأرض أمرأ من بعض

أما الفقراء وذوو الحاجة فكانوا يضيقون بها ذرعا ، للشقاء والبؤس الشديد الذى كانوا يعيشون فيه ، قال شاعرهم فيها :

تصلح للموسر لا لامرىء ... يبيت فى فقر وإفلاس
لو حلها قارون رب الغنى ... أصبح ذا هم ووسواس

ويصور أبو العتاهية غلاء الأسعار فى بغداد تصويراً رائعاً فيقول :

من مبلغ عنى الإما ... م نصائحـــاً متواليـــه
إنى أرى الأسعار أســـعار الرعية غاليـه
وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة فاشيه
وأرى غموم الدهر را ... ئحـــة تمر وغاديه
من للبطون الجائعا ... ت وللجسوم العاريه
يا ابن الخلائف لافقد ... ت ولا عدمت العافيه
ألقيت أخباراً إليـــك عن الرعية شافيه

وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديدا : فالنفوذ والثراء وحياة اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالاة فى البنيان ، والتنافس فى تشييد القصور ، حتى قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء « الجعفرى » الملايين من الدنانير ، وأكثروا من تشييد البرك والحدائق والدور والقصور وبيوت العبادة، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم .

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب الرفيعة فى الخلافة ،كنصب الوزارة الذى تقلده فى هذا العصر أفذاذ من الرجال كأبى سلمة الخلال ؛ وأبى أيوب المورياني وزير

المنصور ويعقوب بن داود وزير المهدى ، والبرامكة الذين وزروا للرشيد ، وبنى سهل الذين وزروا للمأمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد والعادات والنظم الفارسية فى دولة الخلافة .

٢ — وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد والزندقة التى حاربها المهدى والرشيد حربا لاهوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، والغزل بالمذكر ، وانتشرت الرشوة والخلاعة فى كل مكان ، وكان للقيان والجوراى أثرهن فى هذا الميدان .

وإن كنا لا ننكر أن الامتزاج قد أكسب العربى سعة أفق ، ورحابة صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لايستأثر بالخير ، بل يشرك معه فى الفضل سواه ، وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثا مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء .

٣ — وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد فى العقول والأفكار ، فاتسعت الثقافة ، ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ، ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ، والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأمم القديمة من فرس ويونان وروما ن وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ! وينشئون المدارس ويشيدون خزائن الكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف سواهم من الشعوب .

أما أثره فى الأجسام فهو غير خفى أو منكور ، فلا شك أن العربى قد صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة فى الجسم وسلامة فى البدن ،

ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم (١) ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال، مع تنوع الموهبة والحذق فى الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ومميزات .

٤ — وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة فى تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى ليلمس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربى فى هذا العصر والأدب فى العصور السالفة :

(ا) فلقد نشأ - بتأثير هذا الامتزاج - فى الأدب فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وتفشت ألوان الخلاعة والمجون فى الأدب ، كالإغراق والمبالغة فى وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولاشك أن تفشى هذه الألوان وذيوع تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية، ونزوات طائشة، ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية ، فرأى العرب طراز القصة فى النثر . وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها ، حتى لقد نظمه أبان اللاحقى شعرا ؛ بدأه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنه	وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه ضلالات وفيه رشد	وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم	حكاية عن ألسن البهائم

(١) الابن الذى يولد من أب عربى وأم أعجمية يسمى « هجينا » ؛ والذى يكون من أب عجمى وأم عربية يسمى « مقرفا » .

فالحكماء يعرفون فضله | والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير الحفظ | لذ على اللسان عند اللفظ

(ب) وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف فى الأدب العربى، ونما نمواً واضحاً ، واتسع مجاله ، وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من قصور ورياض ، وأنهار وبرك وغدران ، تتوالى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب شاعريتهم . وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بأخيلتهم .

وهذه أيضا عادات العجم وتقاليدهم وأزياؤهم ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم ، ومرابع جواريهم وغلمانهم . كل ذلك قد أطلق الألسنة ، وفتق الأخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس فأخذوا يصفون هذه الألوان التى بهرهم بريقها ، وأسرهم جمالها ، وأخذ بألبابهم مافيها من حسن ونضارة . فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف ، وعبروا عنها أجمل تعبير .

يصنع الأمين لنزهته فى دجلة خمس حراقات على صور الحيوانات ، فيأخذ أبو نواس فى وصفها ، فيقول :

سخر الله للأمين مطايا | لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن براً | سار فى الماء راكباً ليث غاب (١)
عجب الناس إذ رأوك على صو | رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليها | كيف لو أبصروك فوق العقاب (٢)
ذات زور ومنسر وجناحيـ | ـن تشق العباب بعد العباب (٣)

---

(١) أى سفينة على صورة الأسد وتسمى الحراقة بالتشديد وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو .
(٢) أى فوق سفينته الأخرى التى صنعت على شكل العقاب .
(٣) الزور : الصدر .

تسبق الطير فى السحاب إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب

ويبنى المتوكل قصره « الجعفرى » فيراه على بن الجهم ، فيصفه بقوله :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قــدر أقدارها
فلما رأينـــا بنـاء الإمام رأينا الخـلافة فى دارها
بدائع لم ترهـا فارس ولا الروم فى طول أعمارها
إذا أوقدت نارها بالعراق أضـاء الحجاز سنا نارها
لهـا شرفات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها

ويصف البحترى الربيع وصفا رائعا فيقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً
يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثاً كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشياً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما

إلى غير ذلك مما حفلت به رياض الأدب ، من صور ومشاهد ، نبضت بها هذه الحياة المترفة اللاهية .

(ج) ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته ، وعمق الفكرة وتسلسلها ، وحسن الاستقصاء ، وكثرة الاستطراد ، وبراعة التحليل . فظهر ذلك بصورة واضحة فى آدابهم ، ومأثور أشعارهم ، ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى فى القصيدة العربية ، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل . كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعانى الدقيقة ، والأخيلة البعيدة ، والفكرة العميقة .

ومما زاد فى ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا

يرجعون إلى أصول غير عربية ، كبشار وأبى العتاهية وأبى نواس ثم ابن الرومى وغيرهم .

يقول أبو إسحق إبراهيم بن موسى :

غزتنى بجيش من محاسن وجهها ... فعبا لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسرا على الحب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدى : ياصاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

ويقول إسحق الموصلى :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفاً من الهجر
وما كان هجرانى لها عن ملالة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

ويقول مسلم :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

ويقول ابن المعتز فى الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

ويقول سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً فإن زعمت بأن ... أتيت ذنباً فغير معتمد
قد تطرف الكف عين صاحبها ... فلا يرى قطعها من الرشد

ويصور أثر الحضارة والبيئة هذه القصة الطريفة ؛ فقد روى أن لائماً لام ابن الرومى فقال له : لم لاتشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون — وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه وبفرشه فى المنازل :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية(١)
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية(٢)

فصاح واغوثاه ؛ تالله لايكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ! ولكن انظر إذا أنا وصفت ماأعرف ، أين يقع قولى من الناس ! هل لأحد قط قول مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض(٣)

---

(١) كالية : مخفف من كالئة بالهمز أى ناظرة ، من كلأ بصره فى الشىء إذا ردده.

(٢) الغالية : نوع من الطيب .

(٣) الخود : الشابة الحسنة الخلقة ، وغلائل جمع غلالة (بكسر الغين) وهى شعار يلبس تحت الثوب .

وقولى فى صانع الرقاق :

ماأنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر(١)
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر(٢)
إلا بمقدار ماتنداح دائرة ... فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر(٣)

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحراً يقلى زلابية ... فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله ... فيستحيل شبابيكا من الذهب

(د) وبتأثير الامتزاج واختلاط العرب بالعجم المتحضرين كثرت المبالغة والغلو الشديد فى أدب الأدباء ، وشعر الشعراء . . يقول أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

ويقول أبو تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

ويقول بشار فى محبوبته :

إن فى برى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

ويقول ابن الرومى :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

---

(١) دحاه يدحوه : بسطه .
(٢) قوراء : واسعة .
(٣) انداح : اتسع .

كما كثرت الحكم والأمثال والتعليلات العقلية فى الأدب : شعره ونثره . .

يقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول أبو تمام :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ... ويكدى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... لهلكن إذاً من جهلهن البهائم

وقال بشار :

عى الشريف يشين منصبه ... وترى الوضيع يزينه أدبه
والصدق أفضل ماحضرت به ... ولربما ضر الفتى كذبه

وقال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ومن التعليلات الطريفة قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقوله :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى(١)

---

(١) عطل من الأدب عطلا ، وعطلا إذا خلا منه ، والعطل : التجرد من الحلى .

وقال العباس بن الأحنف :

لاجزى الله دمع عينى خيراً	وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئاً	ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى	فاستدلوا عليه بالعنوان

(ه) وبتأثير الامتزاج عربت واستحدثت فى اللغة العربية ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم ، فزادت ثروتها فى الألفاظ . . . وإن كان للامتزاج آثار سيئة ، مثل شيوع اللحن والعجمة واللكنة فى الألسنة ، حتى أصبح شعر هؤلاء المولدين لايحتج به ، كما كان يحتج بالشعر القديم .

الطابع الثقافى للعصر العباسى الأول

— ١ —

فى العصر العباسى الأول ازدهرت الحياة الثقافية أو العقلية (١) ازدهارا كبيرا، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة وآثارها، فى العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات.

كان النفوذ فيه للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على أيدى الوزراء وكتابهم الفارسيين، ونقل المثقفون — من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية — إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين؛ وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون، حتى قال ابن خلدون: إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم (٢) . . . ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ هـ أول من ترجم — أو ترجمت له — كتب النجوم والطب والكيمياء (٣)، فقد عنى المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار

---

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب.

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون.

(٣) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين للجاحظ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم.

لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها(١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك (٣) .

وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهى مكملة لدار الحكمة التى بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة، فقد أخذت فى ساحة الحضارة والثقافة أمورا كثيرة من بيزنطة(٥)

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامى مباشرة وبوساطة الفرس أيضا ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى وكانت المورد الأول للناس جميعا .

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات(٦)

---

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة فى (٢٢٩ - ٢٣٣ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ : ١ ضحى الإسلام) .

(٢) ٢٤١ : ٤ وما بعدها مروج الذهب .

(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٤) ٢٣٠ الأدب العباسى لمحمود مصطفى .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

(٦) ٣٨٠ ج ١ ضحى الإسلام .

وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معانى للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء شغلا كبيراً . . وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة .

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تثقفت بها عقول المستعربين ، تدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون فى موضوعاتها ، ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين ، أصبحوا باحثين ومؤلفين ، وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ، ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة ـ من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم ـ عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع فى العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية فى طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعه التفكير وخصب الخيال .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبى فى الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين الذى بدأ فيه بناء الحضارة ، وذاعت فيه ألوان الثقافة ، وقامت بقيامه حركة الترجمة على ساقها ، وأخذ التأثير الأجنبى يبدو بوضوح فى اللغة العربية وآدابها .

زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

وفى أوائل العصر العباسى الأول تغلبت نزعة الاعتزال التى أيدها المأمون بكل ما يستطيع وفى آخره وهو عصر النفوذ التركى انتهى سلطان المعتزلة وارتفع شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة «كمحمد بن أبى الليث فى مصر ، وأحمد بن أبى دؤاد فى العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويمملون له (١) .

— ٢ —

ومراكز الحياة العقلية كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والكندى بصريان ، والبتانى الرياضى الفلكى م ٣١٧ هـ من حران ، وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامى واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان فى ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخى م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندى المشهور ، وأبو موسى الخوارزمى صاحب المؤلفات القيمة فى الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهانى مؤلف الأغانى ، وسواهم من العلماء .

وبعد فهذا العصر كان زاخرا بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلا

---

(١) راجع ٤١ : ١ ظهر الإسلام .

(٢) راجع ٨ : ١ اليتيمة للثعالبى ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

بالعلماء والمفكرين والفلاسفة . . وكانت العلوم المترجمة شرطا فى تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (١) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ، ويثور ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة فى عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٢) ، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها ، حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل

ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا : من يعزلون ومن يلى

ولا صائحا كالعير فى يوم لذة ... يناظر فى تفضيل عثمان أو على

ولا حاسبا تقويم شمس وكوكب ... ليعرف أخبار العلوم من أسفل

يقوم كحرباء الظهيرة مائلا ... يقلب فى اصطرلابه عين أحول

ولكن فيما قد عناه وسره ... وعن غير مايعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامى

— ٤ —

وقد نبغ فى جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية فى العصر العباسى كثير من أئمة العلماء :

---

(١) واشتهر على بن جور الفارسى ـ وكان كاتباً مترسلا ذا علم بالنجوم ـ بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٢) راجع ص ٢ ومابعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ - ٤٠٦ ج١ ضحى الإسلام) .

(ا) فى التشريع الإسلامى نبغ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠ ﻫ، والكرابيسى م ٢٤٥ ﻫ ، والزعفرانى م ٢٦٠ ﻫ ، وداود الظاهرى (٢٠٢ — ٢٧٥ ﻫ) ، وإسماعيل ابن إسحاق قاضى بغداد ٢٨٢ ﻫ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ ﻫ ، والحربى م ٢٨٥ ﻫ ، ويوسف بن يعقوب القاضى (٢٠٨ - ٢٩٧)، ومحمد بن داود الظاهرى م ٢٩٧ ﻫ .

(ب) وفى التصوف : المحاسبى ٢٤٣ ﻫ والبسطامى م ٢٦١ ﻫ وسهل التسترى م ٢٨٣ ﻫ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ ﻫ ، وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٦٧ ﻫ ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ ﻫ ببغداد .

(ﺟ) وفى علوم اللغة والأدب : مصعب الزبيرى م ٢٣٦ ﻫ ، والتوزى م ٢٣٨ ﻫ ، وأبو العميثل م ٢٤٠ ﻫ ، وابن السكيت م ٢٤٤ ﻫ ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥ ﻫ ، والمازنى م ٢٤٩ ﻫ ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ ﻫ ، والزبير بن بكار م ٢٥٦ ﻫ ، والرياشى أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧ ﻫ ، والأشناندانى م ٢٥٧ ﻫ ، وعمر بن شبة م ٢٦٢ ﻫ ، وابنه أحمد م ٢٧٢ ﻫ ، والطلحى م ٢٧١ ﻫ ، والسكرى م ٢٧٥ ﻫ ، وأبو العباس اليزيدى م ٢٧٨ ﻫ ، وأبو حنيفة الدينورى م ٢٨٢ ﻫ ، والمبرد ٢١٠ - ٥ ٢ ﻫ ، وثعلب ٢٠٠ - ٢٩١ ﻫ ، والزجاجى البغدادى النحوى م ٣٠٧ ﻫ . وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ ﻫ ، والزجاج م ٣١١ ﻫ ، والأخفش م ٣١٨ ﻫ ، ونفطويه م ٣٢٣ ﻫ ، وابن دريد ٢٢٣ - ٣٢١ ﻫ ، ثم ابن الأنبارى وسواهم .

(د) وفى علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠ ﻫ ، وثمامة ابن أشرس م ٢٢١ ﻫ ، والنظام (٢٠٠ - ٢٣٥ ﻫ) ، وابن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠ ﻫ) ويحيى بن أكثم م ٢٤٢ ﻫ ، والعلاف البصرى م ٢٣٥ ﻫ ، وابن الراوندى م ٢٤٥ ﻫ ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ ﻫ) ، وأبو على الجبائى (٢٣٥ - ٣٠٢ ﻫ)، ثم ظهر أبو الأحسن الأشعرى (٢٧٠ - ٣٢٣ ﻫ) ، وقد استمر

المعتزلة فى العراق يملون ويدرسون على يدى الجبائى وتلميذه فى الاعتزال: محمد بن عمر الصيمرى .

(هـ) ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء : ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣ هـ ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥ هـ ، ومحمد بن موسى بن شاكر ٢٥٩هـ ، والكندى م ٢٦٠ هـ ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمى وهو مذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب ، والفارابى م ٣٣٩ هـ ، ثم بعد ذلك ابن سينا م٤٢٨ هـ ، والغزالى ٥٠٥ هـ ، والرازى المتوفى ٦٠٦ هـ وسواهم . . ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر فى الفكر العباسى : حنين بن اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ) ، وأبو معشر الفلكى م ٢٧٢ هـ ، والبلاذرى م ٢٧٩ هـ ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ هـ ، وأبو حنيفة الدينورى ٢٨٢ هـ ، والسرخسى ٢٨٦ هـ ، وثابت ابن قرة (٢٢١ -٢٨٨ هـ) ، واسحاق بن حنين ٢٩٧ هـ ، والرازى ٣١١ هـ ، وسواهم .

ترجمة العلوم والآداب الأجنبية

— ١ —

كان للعباسيين شغف شديد بالعلوم والآداب وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ، وامتـــد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكتهم ، حتى شملت كثيراً من الأمم العريقة فى العلم ، الأصيلة فى الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التى امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ، كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ، وتفتقت بها قرائحهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التى اتصلوا بها من قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولا غنى لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها ، ويضيفون إلى قديمها جديداً ، تمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فلليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفذاذ ، كسقراط وأرسطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .

وللكلدانيين شهرتهم فى الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة فى النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة فى الطب والفلك ورصد الكواكب، ولهم مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدرسة الرها ، وقنسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان فى أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق

كما نقلوا من علوم الهند كتباً فى النجوم والطب والآداب . هـذا بالإضافة إلى ما ورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لجلب كتب الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسابور المشهورة ، وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنو شروان العادل ، ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد «جوستنيان» قيصر الروم لهم على إثر إقفاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة فى الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون فى هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة فى الإفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويحثون على ترجمتها إلى اللغة العربية .

وهكذا بدأت الترجمة فى العصر العباسى : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمرها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء فى استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ماتعتز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة . إذ وجدت فى اللغة العربية استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التى أصبحت هى الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها .

ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

— ٢ —

ولم يؤثر عن العرب قبل عصر نفوذ الخلفاء العباسيين أنهم ترجموا من كتب الأوائل شيئا . اللهم إلا كناش أهرون في الطب ترجمه ماسرجويه طبيب مروان بن الحكم وأذاع هذه الترجمة عمر بن عبد العزيز في الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى عام ٨٩ هـ ذا ولع بالكيمياء والطب والنجوم فترجم له فيها ، وهو أول من ترجم له في هذه العلوم كما يقول الجاحظ (١) وغيره ، ولكن ذلك لا يدل على أن حركة الترجمة كانت ذائعة في عصر بني أمية ، إذ أنها لم تخط خطوة واسعة إلا بعد ذلك العصر .

أما حركة الترجمة في العصر العباسي الأول فيمكننا أن نقسمها إلى أطوار ثلاثة :

١ — فالطور الأول : يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من عام ١٣٦ هـ ، حتى عام ١٩٣ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يصله بما لديه من كتب الفلاسفة . واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم

---

(١) ٢١٣ : ١ البيان والتبيين ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

بإحكام ترجمتها إلى العربية (١) ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية (٢) .. ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنياً بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين نوبخت المنجم الفارسى وأولاده، وإبراهيم الفزارى ، كما قرب إليه جورجيس بن بختيشوع السريانى رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذه طبيباً له .. ومن أشهر المترجمين فى عهده ابن المقفع .

أما المهدى والهادى فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهاهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولى الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل مافى قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت فى عهده كتب كثيرة فى الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيل والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد فى بغداد « دار الحكمة » ، التى كانت تحتوى نفائس الكتب من شتى اللغات، وقد أعيد فى عهده ترجمة الكتب التى سبق ترجمتها فى عصر المنصور .

وفى هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كليلة ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب أرسطاليس فى المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى فى الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء قادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ

---

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودى .

الآثار فى ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

٢ — والطور الثانى لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهى بنهايته ، وكان المأمون عالما متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمه العقلى والعلمى لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد ، فأوفد الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج التراجمة .

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة فى كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم فى تعلمها ، ويخلو بالحكماء ، ويأنس بمحاضرتهم .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة فى هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون فى العرب كبريكليس فى اليونان ، وأوغسطس فى الرومان ، فأتم مابدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يبعثوا إليه بالكتب التى تقع فى أيديهم ، وجعل من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة ؛ ومن المترجمين فى عهده : الحجاج بن يوسف بن مطر ، ويوحنا البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم ، وقسطا ، وحبيش ، واصطفان ، وهم مترجمون من اليونانية .

٣ — أما الطور الثالث : من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهى بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ .

ففى عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل فى العلم أو رغبة فى المشاركة فيه .

وجاء بعده الواثق ، وكان ذكياً ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة، يشجع العلم والعلماء ، فنشطت الترجمة فى عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم فى عصره هو الأسمار والخرافات .

وفى عهد المتوكل على الله تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلق تشجيعاً وعطفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزروا حركة الترجمة ، وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

— ٣ —

١ — ومن أشهر المترجمين عن اليونانية: الحجاج بن يوسف بن مطر، وكان هن جملة المترجمين للمأمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطى إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى .. ومنهم كذلك قسطا ابن لوقا البعلبكى ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة فى الطب . ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للمأمون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادى شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨هـ . ومنهم : حبيش الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وآل بختيشوع وهم من السريان ، وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم فى المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

٢ — ومن أشهر المترجمين عن الفارسية: عبدالله بن المقفع، وآل نوبخت، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم، وإسحق بن زيد، وهشام بن القاسم، وسواهم.

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة، من أشهرها: كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع؛ وكتاب خداينامه، الذى ترجمه كذلك ابن المقفع، وسماه كتاب سير ملوك الفرس، وترجم كذلك الأدب الكبير، والأدب الصغير، والدرة اليتيمة، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان. ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً: عهد أردشير؛ وتوقيعات كسرى، وهزار أفسانة (١)، وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة، وكتاب أدب الحرب، وكذلك عهد أردشير إلى إبنه سابور ترجمه البلاذرى شعراً (٢) إلى العربية، ويقرنه صاحب الفهرست بكتاب كليلة ودمنة (٣).. وسوى ذلك من نفائس المؤلفات.

٣ — ومن مشهورى المترجمين عن الهندية: منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضاً، ونال شهرة واسعة، واشتدت مخالطته للأطباء... ومنهم محمد بن إبراهيم الفزارى، وابن دهن.

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسمار. ومما ترجم من كتب الأدب الهندى: كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بيدبا فى الحكمة، وكتاب السند هند ـ أى الدهر الداهر ـ فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن ابرهيم الفزارى.

---

(١) معناه ألف خرافة.
(٢) ١١٣ و ١١٤ الفهرست.
(٣) ١٣٦ الفهرست.

٤ — وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والكلدانية . ومما نقل عن الكلدانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار الكواكب .. وسواهما من نفائس المؤلفات .

— ٤ —

وقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الاسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس فى الطب ، وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من آداب اليونانيين . . فإذا قرأنا ثبت الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نكاد نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة ماليونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتمثيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسمار ، فهذا ابن النديم ينقل فى كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية (١) .

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار . . . وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن ربن النصرانى نقل كتاباً فى الآداب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب (٢) . وهذه

---

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست . (٢) ٣١٦ الفهرست .

الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافزاً على ترجمة بعض مايؤثر منهما إلى العربية . بعد تجريدهما مما يختلط بهما من أسماء ، ومايلابسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من إلف العربى ، وليس فيهما ماينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لاتستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء فى البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن بعض اليونانيين ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتمثيليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلياذة هوميروس ، ولا ما شابهها من الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظارهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها الى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى فى الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آداب اليونان ، ولا يقدرونها حتى حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل فى هذا مايفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم فى صناعة البيان ، فهذا ابن الأثير يذكر فى كتاب « المثـــل السائر » أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ماكتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ، ورأى أن ماذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (١) .

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً، وأعلاهم كعباً، وأكثرهم آثاراً، فى الأدب والشعر؛ فهم فى غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ماهم فى حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف.

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية، لأن الأدب الفارسى على العموم قريب من ذوق العربى كقرب مابين الفرس والعرب من صلات وجوار، والأدب الفارسى فى جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ما تحفل به الآداب اليونانية الوثنية، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس، فهذا ابن الأثير يقول فى كتاب «المثل السائر»: إنى وجدت العجم يفضلون العرب فى الإسهاب، مع الاحتفاظ بالجودة، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً، وهو شرح قصص وأحوال، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم، كما فعل الفرس فى نظم الكتاب المعروف بشاهنامة. وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه. وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها، وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر».

ولم يجد المترجمون حائلا يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية إلى العربية، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية؛ وكان المترجمون يتقربون أحياناً إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أممهم، التى تمجد تاريخهم القديم، وقوميتهم الخالدة، وملوكهم الأمجاد وأبطالهم المغاوير، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية، والملح الممتعة، لتكون مادة للمفاكهة والسمر.

وفى هذا جميعه مايدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير الأدب اليونانى فى الأدب العربى . أما التـــأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم .

وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية .

— ٥ —

ولقد أثمرت حركة الترجمة ثمارها النافعة فى العلوم والآداب العربية ، وأحدثت كذلك آثارها الواسعة فى لغة العرب ، فقد كانت الترجمة وسيلة لزيادة ثروة اللغة العربية فى الألفاظ والأساليب ، ففوق تعريب العرب الأسماء الأعجمية لتأدية أغراضهم ومعانيهم وأفكارهم ، ولتقوم اللغة بمقتضيات الملك والسياسة والاجتماع والحضارة ، كذلك عربوا بعض مصطلحات العلوم ، وأكثروا من التوسع فى مدلولات الألفاظ العربية عن طريق المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وما إليها . . هذا غير ما نال الأسلوب من نماء وقوة وحياة وتجديد ودقة تصوير وبلاغة تعبير .

وقد هذب المنطق والفلسفة أفكار الأدباء ومعانيهم ، وصقل إنتاجهم وخيالاتهم ، وغير نظرتهم إلى الأشياء ، فظهر العمق والترتيب العقلى ، وقل خطأ الأديب أو الشاعر فيما يرجع إلى التفكير ، وصار الكاتب يحرص على سلامة الفكرة ، وصحة التقسيم . وينتقل من المقدمات إلى النتائج ، ويفرق بين الحقائق والمبالغات الكاذبة .

فضلا عن أنه قد نشأت علوم جديدة فى عصر الترجمة كانت أثراً لها ، أمدت اللغة والأدب والشعر بمحصول كبير وثروة واسعة فى النواحى اللغوية والأدبية والعلمية .

على أن حركة الترجمة كان لابد أن يكون لها بعض الأضرار التى عادت على اللغة العربية بأسوأ الآثار ، ومنها :

١ — كثرة استعمال أساليب المنطقيين والفلاسفة وأفعال الكون والبناء للمجهول وصوغ المصادر الصناعية، مثل الكيفية والكمية والذاتيه والعرضية والمائية والحيوانية والإنسانية، وكثرة الفصل بالضمير الغائب، وسوى ذلك مما أورث الألسنة لكنة، والأساليب عجمة، والمنطق التواء، والملكات ضعفاً، والفطرة والطبع تعقيداً وضيقاً.

هذا إلى ما نتج عن كثرة المصطلحات ودقة مدلولاتها من شيوع الأسلوب العلمي، واستحداث أصحاب كل علم لغة تأليفية لها رموزها ومعانيها وألفاظها، وصعوبة فهم البعيد عن هذا العلم لأغراض العلماء والكاتبين فيه.. وهذه المصطلحات كثيرة متعددة: في الفلك والرياضة نجد: المرصد والزيج والتعديل والمخروط والدائرة والمثلث والمربع وفي الطب نجد: الصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد والسوداء والصفراء. وفي الفلسفة نقرأ: الجوهر والعرض والتصوير والتصديق والموضوع والمحمول والقياس والشكل والكيفية والكمية والماهية والهوية واللانهائية.. إلى غير ذلك من المصطلحات التي كثرت حتى وضعت لها معاجم خاصة، منها كليات أبي البقاء، وكشاف اصطلاحات الفنون، وكتاب التعريفات للجرجاني المتوفى عام ٨١٦ هـ.

التأثير الأجنبي

في اللغة العربية وآدابها

كان امتزاج العرب بالعجم، وما نشأ عنه من آثار، وماذاع بسببه من أفكار، خطره الشديد، ودويه البعيد، في البيئة الإسلامية العربية.. ومن أظهر ما نتج عن ذلك الامتزاج، وترتب عليه، ترجمة العلوم المختلفة، من شتى اللغات، إلى اللغة العربية كما فصلنا.

ولقد شغل بهذه الثقافات الجديدة المترجمة طبقات من المفكرين والعلماء

والأدباء والشعراء شغلا كبيراً ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، كما أقبل عليها الناشئون ، يحاولون دراستها وفهمها وهضمها ، ليكونوا ثقافتهم تكوينا سليما وليعدوا أنفسهم للمناصب العالية ، والدرجات الرفيعة :

وأخذت العلوم الدخيلة المنقولة إلى العربية ، والمعارف العامة التى تثقفت بها عقول المستعربين ، يدخل إلى المعاهد والمدارس الإسلامية ، حيث تناولها العلماء بالشرح والتعليق والتلخيص ، حتى إذا نضجت الثقافة الفكرية وازدهرت الحضارة فى البلاد العربية ، أخذ المسلمون يؤلفون فيها ، ويكتبون فى موضوعاتها ويستقلون ببحوثها ، فبعد أن كانوا مترجمين أصبحوا باحثين ومؤلفين . وظهرت ثمار هذه النهضة فى العواصم الكبرى فى العالم الإسلامى : كخراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر والشام ومصر وسواها ، وكانت بغداد كعبة الفلاسفة والعلماء ، ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم من شتى العناصر والأجناس ، ومن مختلف اللغات .

وكان للطبقات المستعربة - من هنود وفرس ، وسريان ويونان وروم وسواهم - عقلية مستنيرة ناضجة ، أحدثت أثرها الواسع فى العرب الذين اتصلوا بهم وخالطوهم وعاشروهم ، وظهرت ميزاتهم وخصائصهم العقلية فى طبقات المولدين ، الذين شهروا بالنجابة والذكاء وسعة التفكير وخصب الخيال ، ونحن نعرف أن العرب الذين كانوا يأنفون قبلا من الزواج بالأعجميات ، ويعدونه عيباً ومهانة وجناية على الأبناء ، أقبلوا فى هذا العصر على الزواج منهن ، لما رأوا من وفرة جمالهن ، ونجابة أولادهن ، حتى ليروى أن أهل المدينة كانوا يزهدون فى التسرى ، إلى أن نشأ فيهم على بن الحسين ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله ، ففاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً ، فرغبوا فيه وأقبلوا عليه .

فليس عجيباً إذن فى هذا العصر أن تكثر طبقات المولدين ، ويكون لها آثارها فى الحياة الاجتماعية والعقلية والأدبية .

ولقد ظهر هذا التأثير الأجنبي فى الأدب واللغة واضحا منذ بدأ عصر نفوذ الخلفاء العباسيين. أما فى عصر بنى أمية فكان أثره قليلا محدوداً ، لقلة الاختلاط، وأنفة العربى من الزواج بالأعجميات، ونفور العربية من الزواج بأعجمى ، ولأن حركة الترجمة لم تكن قد بدأت بعد ، والحركة العلمية لم تكن قد بلغت حد الازدهار . وكان فحول الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب لايزالون يعيشون فى بلاد العرب ، أوقريبا من البصرة والكوفة ودمشق ، وكانت طبقات الموالى لاتزال تكون نفسها فى اللغة ، وتأخذ بنصيبها من الثقافة العربية ، ولم تكن قد نضجت بعد مواهبها وملكاتها الأدبية .

فلما جاء العصر العباسى ، وبدأ بناء الحضارة ، وذاعت ألوان الثقافة . وقامت حركة الترجمة على ساقها ، أخذ التأثير الأجنبي يبدو بوضوح فى اللغة العربية وآدابها .

وقد ازدهرت الثقافة العربية وعلومها ازدهارا كبيراً فى هذا العصر ، سواء علوم اللغة أوالدين أوالأدب أوالفلسفة ، وتلاقت بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، تلاقت هذه الثقافات المتعددة، وكان لكل ثقافة منها شيعة وأنصار ، وإن كان كثير من الأدباء قد جمعوا بين مختلف الثقافات .

ولقد كان للإسلام أثر كبير فى هذا الامتزاج ، فإن من أسلم من أبناء الأمم الأخرى كان يقبل على قراءة القرآن ودراسته ، وعلى تعلم العربية وآدابها . .

الثقافات الأجنبية وأثرها فى اللغة والأدب

— ١ —

أولى هذه الثقافات الأجنبية هى الثقافة الفارسية ، وترجع صلات العرب بالفرس إلى ماقبل الإسلام ، فقد كان الجوار مدعاة الاختلاط ، وسبباً لتوثيق الروابط السياسية والاقتصادية .

ولقد أقام الأكاسرة إمارة الحيرة على حدود مملكتهم، لحمايتها من عدوان القبائل العربية ، ولتأمين تجارتهم داخل الجزيرة ، كما امتدت فتوحاتهم إلى أطراف البلاد العربية كاليمن والبحرين ، وكان من نتيجة هذا الاختلاط شيوع كثير من الألفاظ الفارسية فى لغة العرب وآدابهم ، كما يتضح ذلك من شعر الأعشى وعدى بن زيد وأمية بن أبى الصلت .

وتأثر كذلك بعض الفرس بالآداب العربية ، حتى ليقال إن بهرام جور ـ وهو فارسى قديم ـ تعلم فى الحيرة ، وأخذ الشعر عن العرب ، ونظمه بالعربية والفارسية .

فلما جاء الإسلام خضعت بلاد الفرس للحكم الإسلامى ، وهاجرت القبائل العربية إلى هذه البلاد ، وهاجر الفرس كذلك إلى البلاد العربية ، وحذق الكثير منهم اللغة العربية وعلومها وآدابها ، فكانوا صلة بين آداب الفرس والعرب .

ثم زاد اتصال الأمتين منذ قامت الدولة العباسية بمساعدة الموالى من الفرس ونقلت الخلافة إلى بغداد ، وأنشىء منصب الوزارة وجعل فى الغالب وقفاً على النبغاء الأذكياء من الفارسيين .

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس فى نشر ثقافتهم وآدابهم والتمكين

لمفارقهم فى البيئة العربية ، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتمكين من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب ، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة . فإذا كان مطلعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم فى الحكم وطرائقهم فى السياسة ، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه .

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب : « واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ماتسمون إليه بهممكم » ، وقال الرشيد للكسائى معلم بنيه : « روناً من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند » .

وأصبح للثقافة الفارسية فى بغداد والحواضر العربية مقام كبير ، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ ممن نبتوا من أصول فارسية على التمكين لها وإشاعتها ، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية .

ويظهر أثر الثقافة الفارسية فى لغة العرب فيما يلى :

١ - الألفاظ الفارسية التى عربت ونقلت إلى العربية ، وهى كثيرة لاحصر لها ، مثل الفالوذج لما يسمى عندنا « البالوذة » ، واللوزينج(١) » ، والجوزينج لنوع من الفطائر يحشى باللوز أو الجوز ، والكامخ وجمعه كوامخ وهو مشه للطعام يتخذ من دقيق ولبن وملح ويجفف ، والطباهجة (٢) لطعام من بيض وبصل ولحم ، والسكباج لمرق يعمل من اللحم والخل وأصلها سكبا وسك بمعنى خل وبا بمعنى طعام . . إلى غير ذلك من أسماء الأطعمة .

---

(١) فى اللسان : هى من الحلوى شبه القطائف .

(٢) هو اللحم المشرح فى القاموس ، وفى شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : هو الكباب ، وفى اللسان : ضرب من قلى اللحم .

ومثل : الدوشاب وهو نبيذ التمر ، والجلاب لماء الورد ، والمسطار لخمرة حلوة ، قال الأخطل : « حمراً عيونهم من المسطار » وغير ذلك من أسماء الأشربة .. ومثل السمور(١) والسنجاب ، والخشنشار لطير الماء .

ومثل : الدار صيني بمعناه شجر الصين ، والجلنار وهو زهر الرمان ، والبستان معرب بوستان و « بو » معناها رائحة و « ستان » معناها موضع ، والكرويا ، والتوت ، والآذريون لنور أصفر معرب آذركون أى لون النار ، وكانت الفرس تتفاءل به ؛ إلى غير ذلك من أسماء النباتات .

ومثل : الأسطرلاب(٢) ، والزيج لخيط البناء ، والمهندز ، والزئبق ، والإكسير ، والمغناطيس ، والزرنيخ . . وغير ذلك من مصطلحات العلوم والصناعات .

ومثل : البربط للعود ومعناها صدر العود لشبهه به - وبر بمعنى صدر - والبم الزير وهما من أوتار العود ، والطيلسان لما يلبس فوق الكتف ، والدرفس العلم الكبير والعسكر ، والتخت(٣) لما توضع فيه الثياب ، والدهقان لرئيس القرية ، والدورق لمكيال الشراب كما فى شفاء الغليل ، وفى القاموس المحيط : هو الجرة ذات العروة ، والبيمارستان لموضع علاج المرضى وبيمار معناه مريض واستان موضع . إلى غير ذلك من الأسماء الفارسية المعربة .

وهكذا أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريف موجوداً منذ العصر الجاهلى ولكنه زاد ونما فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

---

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء .

(٢) آلة لقياس ارتفاع الكواكب عند الفلكيين . . وتعرف بواسطة ذلك الأوقات .

(٣) هو الدولاب

٢ — قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التى زادت فى ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع فى مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ — ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية فى الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره فى زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية فى الأدب العربى تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلى :

١ — كانت زعامة التجديد فى الأدب العربى شعره ونثره فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد فى النثر فى هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد للمولدين فى الشعر .. وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير مافى بلاغات العرب والفرس جميعا من معان وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا آثاراً واسعة فى الشعر والنثر ، فجددوا فى المعانى والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب فى عهد بنى أمية عربياً خالصا ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح فى عهد بنى العباس يزدان بأحلى وأروع مافى أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنق فى التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص فى هذا العصر : «كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ،

ومثله كثير ممن أجادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل ابن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، ممن كان لهم فضل كبير فى رقى الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعانى والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعانى الفارسية ترشد العربى إلى أمثل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنو شروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : « هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر » فقال الشاعر :

ويا قوتة صفراء فى رأس درة   مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها   بقية دمع فوق خد مورد

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر :

كأنهن يواقيت يطيف بها   زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن   من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وكان ابن الرومى يأخذ حكم بهرام جور فينظمها شعراً عربيا .. ويقول بزر جمهر : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لاتفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لاتبقى ، فقال الشاعر العباسى :

فأنفق - إذا أنفقت إن كنت موسراً   وأنفق - على ماخيلت - حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والجد مقبل   ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

وقيل لابن المقفع : لم لاتطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمكاره ، فاقتصرت على الخمول ضناً بالعافية ، فأخذه العتابى فقال :

وإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأساود (١)

وكان العتابى الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعانى والأخيلة ، وسئل لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، فالبلاغة لنا والمعانى لهم .

ويقول أبو هلال العسكرى فى رسالته : « التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تضبط كثرة ، ولليونانيين أشعار دون الفرس » .

٢ — هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس وانتشار الثقافة الفارسية ، كالأدب القصصى ، وأدب الزهد ، وأدب المقامة ، وسواها ، على ما أشرنا إليه سابقاً .

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية ، من ضعف الملكات ، وكثرة العناية بالبديع الذى يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع .

— ٢ —

وثانية هذه الثقافات هى الثقافة الهندية فلقد اتسعت الفتوحات الإسلامية وانسابت جيوش العرب المظفرة فى كل مكان ، وفتح محمد بن القاسم الثقفى السند فى عهد الوليد بن عبد الملك وذلك عام ٩١ هـ .

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب ، ودخل العرب بعض جهات من الهند ، وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم العربى ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التى كانت قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

---

(١) الحيات العظيمة .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالحكمة ، التي كان الهنود معدنها ، وبالآلهيات والرياضيات .

ويقول القفطي في « أخبار الحكماء » (١) : الهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، فخمة المماليك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبرز في فنون المعرفة كل الملل السالفة وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة وينبوع العدل والسياسة ، ولبعد الهند من بلادنا قلت تآليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم » .

وقد استقدم يحي بن خالد البرمكي بعض الأطباء من الهند أمثال منكه . ونبغ من الموالي الذين جلبوا من الهند وغنموا في الحرب ووزعوا على الجند ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ، كأبي عطاء السندي الشاعر ، وكابن الأعرابي العالم اللغوي المشهور ، وسواهما .

وللهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء في البلاغة والأدب . . قيل لبهلة الهندي : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . فترجمت فإذا فيها ماترجمته « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة .. . » الخ (٢) .

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود في الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير الجميل ، قال ابن الرومي في أبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة طويلة :

---

(١) ص ٢٦٦ المرجع . (٢) ٧٩ : ١ البيان والتبيين للجاحظ .

غلط الناس : لست تلعب بالشط ـرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الفناء فى الأعضاء
وأظن افتراسك القرن فالقر ن منايا وشيكة الإرداء
وأرى أن رقعة الأدم الأسمر أرضاً جللتها بدماء
تقرأ الدست ظاهراً فتؤديـ ـه جميعاً كما حفظ القراء

على أن أثر الثقافة الهندية فى لغة العرب كان ضئيلا يتمثل فى هذه الألفاظ الهندية التى عربت ، مثل : الزنجبيل ، وكافور ، والآبنوس ، والببغاء ، والخيزران ، والأهليلج ، وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها فى أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص والحكم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم فى الفلك ، فهذا أبو نواس يقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل وأكثر فأنت مهذار
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة : وهذا الشعر يدل على نظرة فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذيا .

ومن مظاهر تأثر الشعر بأقوال الهنود فى الفلك قول أبى نواس فى الخمر :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيرها من هناك وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها منه ، وإذا عادت إليه قامت القيامة .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء فى غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال مالا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ماليس فيه خصب ولا أمن » .

إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

— ٣ —

وثالثة هذه الثقافات هى الثقافة اليونانية ، وحين ازدهرت النهضة العلمية فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم(١) ، ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية فى لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت مثل : « البرجد » وهو كساء غليظ مخطط ، والزبرجد ، والياقوت ، والزمرد ، والقيراط ، والأوقية ، والبلغم ، والبرقوق ، واللوبيا ، والترمس ، والجاثليق ، والبطريق .

ومثل : إيساغوجى بمعنى المدخل وسموابه مقدمات المنطق وهى الكليات الخمس : من الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ومثل السفسطة والفلسفة بمعنى الحكمة ، والهيولى بمعنى الأصل ، والموسيقا ، والقانون . إلى غير ذلك من أمثال هذه الألفاظ التى لا عد لها .

---

(١) كانت مراكز الثقافة اليونانية فى الشرق كثيرة ، ومن أشهر هذه المراكز : الاسكندرية ـ حران بالجزيرة ـ جنديسابور .

وقد أثر المنطق اليونانى فى الفكر العربى تأثيراً كبيراً إذ أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير فى عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ، فقد قدموا معانى جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية فى أدب العرب يتجلى فى نقل بعض الحكايات والأسمار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعانى الفلسفية فتأثر بها الأدب العربى واكتسب منها سعة فى الخيال وتهذيبا فى الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربى قد أفاد من المعارف اليونانية ولم يستفد من الأدب اليونانى نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه لما أسلفنا.

وكان الباعث على الترجمة من اليونانية إلى العربية عوامل كثيرة ، منها أن حياة الحضارة فى الدولة العباسية استلزمت أن تسند بالعلم ، ومنها الرغبة فى استخدام الفلسفة والمنطق للدفاع عن الدين ، ومنها غلبة اللغة العربية على الأقطار المفتوحة ، فكان لابد أن تنقل علوم هذه الأقطار القديمة إلى العربية ، ومن أهم بواعث هذه الترجمة ميل بعض الخلفاء العباسيين إلى العلوم الفلسفية كالمأمون . .

الشعر فى العصر الأول

تمهيـــد :

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية فى هذا العصر بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها فى الأدب واللغة متفاوتا ، فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتاب والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل ، من حيث نضجت معانى الكتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية وتفكيرهم العقلى ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحى الحياة والتفكير ، فإن العربية كانت أعز من أن تحنى رأسها للعواصف الجامحة التى تهدم من صرحها الشاهق ، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هى لغة التفكير والأدب ، وإن سايرت حركة الرقى ، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فإن الأدب اليونانى لم يترجم منه شىء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر فى نهضتهما الوثابة فى هذا العصر الحافل (١) ، لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التى يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها ، وعلى أية حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة فى التفكير والخيال والمعانى (٢) وطرافة التقسيم .

---

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه - ٢٨٧ التوجيه الأدبى - ٢٣٥ الأدب العباسى لمحمود مصطفى - ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام - ٢٤٤ الزيات .

(٢) وقد أفاد الأدب العربى من القصص والحكم اليونانية التى انتشرت فى الثقافة الإسلامية وعربت ، كثيرا من الألفاظ اليونانية .

وتأثير الثقافة الهندية فى الأدب العربى كذلك كان طفيفا لا يعدو تلك الأفكار التى كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة فى الشعر ، وهذه القصص الهندية التى أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذى نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التى تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التى عربوها وأدخلوها إلى العربية .

وأثر الفرس فى الأدب العربى كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيرا بنزعات الفرس ، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصى ككليلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير فى الأدب كالعتابى وأبى نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدباً عربياً فيه معانى الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء فى رأس درة ... مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها ... بقية دمع فوق خد مورد (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر تتوسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

---

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب ، وراجع ص ٧٠ من هذا الكتاب .

(٢) وينسب البيت الأول لعلى بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعانى) قال أبو هلال : وهو من قول أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب .

كأنهن يواقيت يطيف بها　　زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن　　من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وأخذ ابن الرومى معنى حكمة ابهرام جور (١) فنظمه شعرا (٢) . وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارا واسعة فى أغراض الشعر ومعانيه ، وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم ، مما ظهر أثره فى الأدب العربى واضحا . وإذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربيا خالصا فى المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، فقد كان فى عهد بنى العباس أثرهم أعمق لا فى الأسلوب البيانى ، بل فى التفكير والخيال وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنق فى النثر والشعر ، وطابت الرقة والدماثة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها .

ويمتاز الأدب فى هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم وأخبار الزهاد فيه ، وبتأليف الكتب الجامعة فى الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل والعقد ، وبأن الأدب أصبح فى هذا العصر صناعة علمية فى الإنشاء والتأليف ، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية . وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة فى مقدمة أدب الكاتب بوضوح .

---

(١) فارسى قديم تعلم العربية فى الحيرة وشعر بها ، ويقول شمس الدين الرازى فى كتاب « المعجم » : إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر .

(٢) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الآداب .

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيا فى نفوسهم الشعور القومى ، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعوبية، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم وزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخريمى ، ومهيار ؛ وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد ، وعلان الشعوبى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد ابن يزيد الأموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والأمراء، جعل الأدب يستمر فى اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وبعد ذلك العصر استمر الأدب فى النمو والازدهار على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها . . ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية فى تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب .

وانغماس الأدباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهوها الخليع ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع جوانبها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مباذلها الوضيعة ، وملأ شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون فى صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتذال مهين ، ومن

---

(١) الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى .

شاء فليرجع إلى الأغانى ، أو يتيمة الدهر ، أو دواين كثير من الشعراء ، ليستطلع ذلك فى شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، ومسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، وحسين بن الضحاك ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا فى نتف لبعض الشعراء والعلماء ، وفى كثير من شعر أبى العتاهية ، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال .. وكذلك قسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها فى كتب المقامات، قصصا للكادحين، يحتالون على العيش بالمكر والخداع ، وفى أدب المحرومين ، سخطا على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان . واضطراب نظام الحكم ، وفساد أدائه ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به ، أو من يروم علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع .

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا فى الحياة ، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم . فهم الذين أثروا فى المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوا عن دولهم الدائلة ، وحضاراتهم الزائلة. وصبغوا الدولة بصبغتهم، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه ، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فيقول : « ضعف أمر الدين ، وتحلل ركنه، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان . . ألا ترى أن الحال استحالت عجما كسروية وقيصرية ؟. هذا الربيع ـ وهو حاجب المنصور ـ يضرب من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكو ذلك إلى أبى جعفر المنصور ، فيقول: أصاب الرجل السنة ، وأخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة

شرف من الأدب ، بل الأدب كله فى السنة ، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى ، ولكنها العزة بالإثم ، وقد سموا آيين العجم أدبا وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة .

تطور الشعر فى العصر العباسى الأول

١ — كان الشعر — ولا يزال — صورة المجتمع فى كل بيئة ، ومرآة الحياة فى كل عصر ، وسجل الأحداث فى كل زمان ذلك لأنه فيض الخاطر ، ونبع الشعور ، ونبضة الحس ، وخلجة النفس ، وفورة الوجدان ، ولأن الشعراء أبلغ من الكتاب استجابة لمظاهر الحياة ، وأسرع تجاوبا مع أحوال المجتمع ، وأشد تأثراً بأحداث البيئة ، وأعمق شعوراً بأسرار الطبيعة ، وأقوى إحساساً بنوازع الآمال والآلام .

ومن هنا نرى الشعر فى كل زمان ومكان ، صدى للحياة ، وصورة للمجتمع ، وانعكاساً للآمال والمشاعر ، وتاريخاً صحيحاً لعصره ومصره ، فهو فى الجاهلية ديوان العرب الذى يسجل مفاخرهم ، ويدون مآثرهم ، ويصور أساليب حياتهم من حرب وسلم ، ونجعة واستقرار ، وبأس ونجدة ، وحماسة وفتوة ، ونحو ذلك من ألوان خلقهم ، وأحوال عيشهم . وأنت تقرؤه فتجد فى صفحته صورة البادية ، بوعورة مسالكها ، ووعوثة شعابها ، وخشونة هضابها ، وترى فيه الرمال والكثبان والرسوم والأطلال ، والأباعر والغزلان ، والصيد والطراد أكثر مما ترى أى شىء آخر .

وهو فى ظلال الإسلام صورة للحياة الجديدة ، يتفاعل معها ويستجيب لدواعيها ، وتتحور أغراضه وألفاظه ومعانيه ، تبعاً لما تقتضيه الدعوة ، وتأثراً ببيانها الحكيم ، وتجاوباً مع ما أتيح للدولة من حظ فى الحضارة ،

وما استجد من شئون فى السياسة ، وما طرأ من عمران وعرفان . فنراه قد خاض فى العصبية ، وجال فى السياسة ، وصال فى المدح والهجاء ، وأيد وعارض ، وجادل وخاصم ، وجد فى ميادين المجدين ، وتقشف فى محاريب الزاهدين ، وتبذل فى مواطن الغزل والمجون مع المترفين الإباحيين .

ومع هذا فإنه لم يبعد كثيراً عن منهجه الجاهلى ، لأصالة العروبة، وقرب العهد بالبداوة ، وقلة الحظ من الحضارة ، وندرة الامتزاج بالأعاجم ، والترفع عن خلاطهم ، فلم تتغير مناهجه ، أو تتعدد مذاهبه ، أو تتجدد ألوانه ، إلا بمقدار ما سمح به التغير الطارىء فى مناهج الحياة ، وأساليب العيش ، ومظاهر الحضارة . وهو فى جاهليته وإسلامه أنغام شجية تهدهد الأشجان وتنهنه العبرات ، وتستثير المشاعر ، وتستفز العزائم ، وتجمل الحياة .

٢ — وإذا كان هذا شأنه والحضارة معدومة أومحدودة ، وخياله المجنح يحلق فى آفاق الجمال ، فيبنى من الصخر قصراً ، وينبت من القفر زهراً ، ويخلق من الرسوم الدوارس ، شخوصا وأوانس ، ويصور من البعر المتناثر لآلىء وجواهر ... فما بالك به فى العصر العباسى ، والحضارة فى الأوج ، والمدنية فى القمة ، والطبيعة فى جلوة ، والأرض فى زينـــة ، والثقافة متنوعة ، والمناظر متجددة ، والعمران فى عنفوان ؟

لقد اتخذ العباسيون عاصمة ملكهم (بغداد) فى ديار الأعاجم ، وامتزجوا بهم كل الامتزاج ، واندمجوا فيهم كل الاندماج . ولهؤلاء ألوان من الثقافات ، وأنماط من العيش ، وأنواع من الخلق وأشتات من العادات والتقاليد . . فكان لهذا كله أثره فى نفوس الشعراء ، كما كان له أثره فى نفوس العرب جميعاً ، ووجد الشعراء إلى جانب ذلك من المناظر والمظاهر وألوان الحضارة مالم يألفه خيالهم من قبل ، فهذه رياض ناضرة ، وقصور شاهقة ، ومناظر

مونقة ، وتلك مجالس مفاكهة وسمر ، ومجالى منادمة وطرب ، إلى غير ذلك عما يمد الشعر ويغذيه ويثيره وينميه ، ويجعله يحلق فى أرحب أفق وأعلى سماء .

كذلك كان الشعراء أبلغ من تأثر بذلك كله ، وأول من استجاب إلى هذه الحياة الجديدة ، لأن نفوسهم أعلق بالترف، وألصق بالمدنية. وهم كذلك أقرب إلى الخلفاء ، وأدنى إلى مظاهر الحضارة فى قصورهم ولهذا رأينا الشعر يحلق فى كل أفق ويغرد فوق كل فنن ، فهو ينادم على الشراب ، ويعاقر كؤوس الحباب ، ويفاكه السمار ، ويساجل الأوتار، وينشد الحسن، ويهتف بالجمال وهكذا انتقل من الصحارى المجدبة ، والخيام المطنبة ، إلى الرياض والغياض والقصور والزهور ، والجداول المترقرقة أو المروج المنمقة ، ومطارح اللهو والترف والنعيم .

وكان الشعر إذن كالطائر الصداح ، تجرح لهاته خشونة الحياة ، ويخنق شدوه لفح الهجير ، حتى إذا أشرقت شمس الربيع ، وهبت نسائمه ، وتفتح زهره ، وتضوع عطره ، خفق بجناحه طرباً ، وحلق ماشاء فرحا ، وابتدع أفانين الشدو والغناء وما العصر العباسى إلا ذلك الربيع .

وهكذا يتطور بتطور الأمة العربية ، ويتدرج مع الحياة الإنسانية ، فيكون فى الجاهلية أنغام صبى ، وحماسة فتوة، وعواطف أثرة وفى الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة، ثم يستحير شبابه ، ويكتمل فى صدر الدولة العباسية ، فيظهر فى شعر بشار وأبى نواس وأضرابهما: عبث شباب ، وأغانى طرب ومظاهر ترف . . . » (١)

وظهر فى هذا العصر تياران فى الشعر لكل منهما خصائصه ومميزاته : تيار الشعر البدوى بما يشتمل عليه من خصائص فكرية وفنية ، وتيار الشعر الحضرى بما يتميز به من سمات وخصائص . .

وسنفصل الحديث فى بعض الأسباب لتطور الشعر فى هذا العصر . .

---

(١) الزيات فى تاريخ الأدب العربى صـ ٤٧

عناية الخلفاء ومنزلة الشعراء

١ — كان الخلفاء والأمراء فى عصر نفوذ الدولة العباسية عربا ، جرى فى عروقهم دم العروبة ، وتأصلت ملكتها ، وسحرتهم بلاغتها ، ورأوا فى الشعر مجدهم التليد وفخرهم القديم ، فحرصوا على روايته وإحيائه ، واهتزت أريحيتهم لسماعه وإنشاده ، وخلب أفئدتهم القول الرائع ، والبيان الفائق ، واحتلبت عطاياهم المدح الجيد ، والثناء البليغ . ولهذا قربوا الشعراء ، وفرضوا لهم فى بيت المال ، وأغدقوا عليهم العطايا والصلات ، وأغرقوهم بالمنح والهبات حتى تجاوزت آمالهم التكسب بالشعر للعيش والكفاف ، إلى الثراء الواسع والغنى السابغ واختزان المال ، والأخذ بأكبر نصيب من الرفاهية والبذخ والنعيم . حتى رأيناهم يقتنون الثروات الواسعة . ويسامون الملوك فى المنزلة ، ويساوون ذوى اليسار فى نعيم العيش ، وترف الحياة ، وامتلاك القصور والضياع .

قالوا : إن سلما الخاسر مات عن خمسين ألف دينار ، ويحدثنا صاحب الأغانى أنه كان يأتى باب المهدى على البرذون قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى ، وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الثمن ، ورائحة المسك والطيب الغالية تفوح منه .

ومروان بن أبى حفصة أعطى مائة ألف دينار غير مرات ، وكان أبو نواس محظوظاً لايدرى ما يصل إليـــه ، وكان يتساجل فى الإنفاق هو والعباس بن الأحنف صريع الغوانى ، وكان البحترى مليأ ، قد فاض كسبه ، وكان يركب فى موكب من عبيده (١) .

---

(١) العمدة ١ : ٧٧

وهكذا تفيض كتب الأدب بما لا نكاد نصدقه اليوم عن ثراء الشعراء وما كانت تستدره رقاهم السحرية من مال . ولم يقف الخلفاء والأمراء عند سماع الشعر ، والارتياح لإنشاده ، والعناية بأصحابه ، بل كان لهم به بصر وخبرة ، ومشاركة ، ومعرفة ، وحذق وإلمام . فهذا المنصور يفجعه الدهر فى ابنه جعفر ، فتستبد اللوعة بقلبه ، ويسد الحزن عليه منافذ السلوى ، فلا يجد سبيلا للعزاء إلا قصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أبنـــائه ، فيطلب إلى الربيع من ينشده من أهل بيته :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

فلا يجد الربيع من يحفظها ، فتكون مصيبته فى أهل بيته أشد من لوعته فى ابنه ، ثم يبعث إلى القواد والولاة ، حتى يصادف الربيع شيخا مؤدبا ، فيذهب به إلى المنصور ، فينشده المطلع مائة مرة ، حتى إذا بلغ قول أبى ذؤيب : « والدهر لا يبقى على حدثانه » ، عرف موطن الإبداع . فاستعاده مائة مرة ، وهو يقول : سلا أبو ذؤيب عند هذا القول .. وكذلك كان المأمون ، وسيأتى من أخباره ما يدل على ذوقه وبصره .

وكان الناس يعرفون للشعر منزلته عند الخلفاء ، فيواجهون به أحرج المواقف ، التى يتحاشون المواجهة فيها . كالذى حدث من نقض نقفور ملك الروم عهده مع الرشيد ، بعد أن خضع له وبذل الجزية . فلم يجرؤ أحد على إخبار الرشيد ، حتى بذل يحيى بن خالد الأموال للشعراء على أن يخبروه . فتقدم إليه شاعر من أهل جدة يكنى أبا محمد ، وأنشده :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير

فلما انتهى من قصيدته ، قال الرشيد : أوقد فعل ؟ ثم غزاه وفتح هرقلة وكان الرشيد شاعراً كغيره من الخلفاء العباسيين ، الذين شاركوا فى

النهضة الشعرية بقول الشعر ، إلى جانب عنايتهم به ، وإغداقهم على قائليه .
يروون أن الرشيد قال فى قينة :

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقة ... فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خدى فذلله ... وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقال فى رثاء جارية :

فارقت عيشى حين فارقتها ... فما أبالى كيفما كانا
قد كثر الكلام ولكننى ... لست أرى بعدك إنسانا

وقال فى جواريه الثلاث : سحر وضياء وخنث :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانى

أما الذى لاشك فيه فهو أنه كان أدق حسا ، وأنق ذوقا ، وأصح فهما وبصراً به من سواه ؛ ولقد أنشد النعمانى يوماً فى صفة فرس :

كأن أذنيه إذا تشوفا ... قادمة أو قلماً محرفا

فقال له : دع كأن ، وقل تخال ، حتى يستوى الشعر .

وقالوا : إن المأمون وصف الشطرنج بقوله :

أرض مربعة حمراء من أدم ... ما بين إلفين موصوفين بالكرم
هذا يغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة ... فى عسكرين بلا طبل ولا علم

ومنزلة مثل بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى فى عصرهم معروفة مما يدل على أنه كان عصر ازدهار للشعر ، وعناية شديدة من الدولة والشعب بنهضته ، بل لقد كان الكثير من الأمراء وأبناء الخلفاء شعراء مجيدين ،

من مثل إبراهيم بن المهدى وعبد الله بن المعتز وغيرهما ، ويفيض الصولى فى قسم من أقسام كتابه الأوراق ، فى ذكر الأمراء وأولاد الخلفاء من الشعراء ، ويقال إن المهدى حفظ شعر ذى الرمة فى صباه ، ولولديه جمع المفضل الضبى مختاراته « المفضليات » .

هذا إلى سعة الثقافة الأدبية ، ونمو العلوم العربية ، واتساع الذوق الأدبى باتساع المعرفة والاطلاع ، وغير ذلك ، مما كان له أثره فى زيادة العناية بالشعر والشعراء فى هذا العصر .

ومن الأدلة على فطنتهم بالشعر وتذوقهم له ، ما يروى عن الأصمعى (١) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٢) وخلف الأحمر (٣) يأتيان بشاراً (٤) ؛ فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ؛ فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة (٥) ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ؛ قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

---

(١) عبد الملك بن قريب الإمام فى اللغة والأدب ، توفى عام ٢١٦ هـ وتجد الرواية فى الأغانى : ص ٤١ ج ٣ ، وفى الدلائل ص ١٠ وفى المفتاح ص ٧٥ .

(٢) وفى الأغانى : خلف بن أبى عمرو بن العلاء . وأبو عمرو من أئمة اللغة توفى عام ١٥٤ هـ وخلفه ابنه توفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

(٣) من أئمة اللغة والشعر والأدب توفى عام ١٨٠ هـ .

(٤) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .

(٥) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير(١)

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان : إن ذاك النجاح بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه ؛ فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه ؟(٢) .

ولم تكن السياسة وحدها هي الباعث على الاحتفال بالشعر ، بل التلذذ به والتأدب بآدابه وتعرف أخبار الماضين فيه ، ولهذا كانوا يدنون مجالس الشعراء ويأنسون بهم في خلوتهم ويقترحون عليهم نظمه فيما يجول بخواطرهم ويسألون العلماء به عما يستغلق من المعاني ويستقدمون الرواة للسؤال عن بيت مفرد ليصلوه بقصيدة أو ينسبوه إلى قائله .

سأل الرشيد أهل مجلسه مرة عن الصدر لقول الشاعر : « ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه » فلم يعرفه أحد وكان الأصمعي مريضاً فأرسل إليه إسحاق الموصلي وبعث معه ألف دينار فأرسل إليه إن هذا عجز بيت لأبي النشناش وصدره (وسائله أين الرحيل وسائل) من قصيدته :

إذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه أقاربه

والرشيد من أكثر الخلفاء بحثا في الشعر ، سأل أهل مجلسه مرة عن معنى قول الشاعر :

---

(١) البيت تجده في الدلائل صـ ٢٢١ و ٢٤٣ وفي المطول صـ ١٠٢ وفي المفتاح صـ ٧٥

(٢) راجع ٩٦ و ٩٧ : ١ شرح الإيضاح للخطيب القزويني بقلم محمد عبد المنعم خفاجي

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخـــذولا

فتجادل الأصمعي والكسائي ولجا بين يديه في الخصومة وكان رأيه الفاصل بينهما ... وأعطى الفضل خاتما قيمته ألف وستمائة دينار مكافأة على أحسن بيت قيل في الذئب .. وكان المأمون على غراره، ولى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه فوجده عنده، وكان المأمون يبالغ في إكرام الشعراء ويعفو عنهم وإن تطاولوا عليه، دخل إبراهيم بن المهدي غضبان فقال المأمون : مابك؟ فقال نال مني دعبل، فقال : لك في أسوة أما سمعت ماقال :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

فقال : زادك الله حلماً ياأمير المؤمنين، وذهب عن إبراهيم الغضب.

ولم يجتمع على باب أحد من الملوك ما اجتمع على باب المأمون والرشيد من الشعراء ويشبه بهما سيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد، وإذا ذكر المحبون للشعر المثيبون عليه العارفون بمكانته المميزون لجيده ورديئه فاشد بالبرامكة وآل سهل وآل طاهر .

وقد بلغ من منزلة الشعراء أنهم كانوا يحتكمون في أموال الخلفاء ويفرطون في الدالة عليهم، ويشفعون فيما لاترجى الشفاعة فيه، فيفكون رقاب العناة ويجيرون من الموت ويدخلون بين الخليفة وخاصته، وكتب الأدب مليئة بأخبارهم ؛ وقد بلغ من تأثير الشعر في البيئة الاجتماعية أن نقشوه على جدران المنازل والأندية وفصوص الخواتم وصدور المجالس وطرزوه على الستائر والطنافس، وعلى الأقداح والكاسات وسائر آنية الذهب والفضة والأعلام والعصائب، وزينوا به أبدانهم فكتبوه بالحناء على الخدود والأقدام، وكأن المجتمع العربي كله أصبح ذا نفس شاعرة ملهمة ..

٢ — وهذه أمثلة لعناية الخلفاء بالشعر :

(ا) عناية الخلفاء العباسيين فى هذا العصر بالشعر والشعراء معروفة مشهورة يروى أن أبادلامة أقبل على المنصور ، فأنشده :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس كلكمو	إلى السماء فأنتم أطهر النـاس
وقدموا القائد المنصور رأسكمو	فالعين والأنف والآذنان فى الرأس

فهز أريحيته ، وأنساه حرصه وتشدده ، فقال له : بأى شىء تجد أن نعينك ؟ قال أبودلامة : تملأ لى هذه الخريطة دراهم ، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم .

وقال الربيع بن زياد : قلت للمنصور يوما : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فإنما هو كلب ، ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو لجب . فمن كان فى شعره هذا فلينصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة الذى دخل فأنشده قصيدة قال منها :

له طينة بيضاء من آل هاشم	إذا اسود من كوم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى	وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال : حسبك ، هذا عين الشعر ، قد أمرت بخمسة آلاف درهم .

وهذا ابنه المهدى[1] يدخل عليه عمرو بن سلم الخاسر ، فينشده :

---

(١) كان المهدى يعجب برائية زهير ويقول : ذهب والله من يقول مثل هذا « ٢ : ٢٥٨ البيان والتبيين للجاحظ ط الخانجى » .

أليس أحق الناس أن يدرك الغنى ‍ ‍ ‍ مرجى أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدى عدلا ونائلا ‍ ‍ ‍ كأنهما عـدل النبى ونائله

فقال: أما ماذكرت من الجود ، فوالله ماتعدل الدنيا عندى خاتمى هذا . وأما العدل فإنه لايقاس برسول الله أحد فيه ، وإنى لأتحراه جهدى ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب . ودخل عليه بعدها فأنشده:

إن الخلافة لم تكن بخلافة ‍ ‍ ‍ حتى استقرت فى بنى العباس
شدت مناكب ملكهم بخليفة ‍ ‍ ‍ كالدهر يخلط لينـه بشماس

فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوباً. ثم دخل عليه بعدها فأنشده:

أفنى سؤال السائلين بجوده ‍ ‍ ‍ ملك مواهبه تروح وتغتدى
هذا الخليفة جوده ونواله ‍ ‍ ‍ نفد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا، ودخل عليه ابن الخياط فمدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس ، وأنشأ يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ‍ ‍ ‍ ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ماأفاد ذوو الغنى ‍ ‍ ‍ أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

فلما بلغ المهدى مافعل أعطاه بكل درهم ديناراً .

ودخل مروان بن أبى حفصة على الهادى فأنشده فى مدحه :

تشابه يوما بأسه ونواله ‍ ‍ ‍ فما أحد يدرى لأيهما الفضل

فقال له الهادى : أيهما أحب إليك ثلاثون ألفاً معجلة أومائة ألف تدور فى الديوان؟ قال تعجل الثلاثون ألفاً وتدور المائة ألف ، قال : بل تعجلان لك جميعاً ، فحمل له ذلك .

وروى الصولى عن سعيد بن مسلم قال : إنى لأرجو أن يغفر الله للهادى

بشيء، رأيته منه . حضرته وأبو الخطاب السعدى ينشده فى مدحه :

ياخير من عقدت كفاه حجزته   وخير من قلدته أمرها مضر

فقال الهادى : إلا من ؟ ويلك . فقلت ياأمير المؤمنين : إنما يعنى من أهل هذا الزمان ، فذكر الشاعر فقال :

إلا النبي رســـول الله إن له   فضلا وأنت بذاك الفضل تفتخر

فقال ، الآن أصبت وأحسنت ، وأمر له بخمسين ألف درهم(١)

أما الرشيد فقد جاوز عطاؤه للشعراء كل أمل ، وفاقت عنايته بالشعر كل عناية ، ولا بدع فهو شاعر أديب ، يتذوق الأدب ، ويفهمه فهم العلماء، ويتأثر بالشعر أبلغ التأثر ، حتى إنه لما آلمه لحن الملاحين الذين كانوا يتغنون فى دجلة ، أمر أبا العتاهية وهو فى السجن أن يعمل لهم شعراً يغنون فيه ليصلح من ألسنهم ، فعمل أبو العتاهية شعراً فى الوعظ والتذكير بتقلب الأيام ، لينغص على الرشيد سروره إذا سمعه ، وقد غاظه منه أنه لم يأمر بإطلاقه من السجن . فكان الرشيد يبكى وينتحب إذا سمع هذا الشعر الذى كان منه :

خانك الطرف الطموح   أيها القلب الجموح
هل لمطلوب بذنب   توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب   إنما هن قروح
سيصير المرء يوماً   جسداً مافيه روح
بين عينى كل حى   علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والـ   ـموت يغدو ويروح
نح على نفسك يامسـ   ـكين إن كنت تنوح

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ ١٧٦ و ١٧٧

لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح

ولقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة منها :

وسدت بها دون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
ترى حوله الأملاك من آل هاشم ... كما حفت البدر النجوم الزواهر

فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وكساه خلعته . وأمر له بعشرة من رقيق الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه .

ومدحه إبراهيم الموصلي لما ولى الخلافة واستوزر يحي بن خالد، فقال :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ... فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه ... فهارون واليها ويحي وزيرها

فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحي خمسين ألفاً .

وقال المأمون يوماً لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المدح والرثاء ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده فى المدح :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشده فى الهجاء :

قبحت مناظرهم لحين خبرتهم ... حسنت مناظرهم لقبح المخبر

وأنشده فى الرثاء :

ارادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دل على القبر

وكان المتوكل جواداً ممدحاً ، يقال : ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل . دخل عليه على بن الجهم ، وبيديه درتان يقلبهما ، فأنشده قصيدة فرمى إليه بدرة ، فقلبها ، فقال : تستنقص بها وهى والله خير من مائة ألف؟

قال : لا ، ولكنى أفكر فى أبيات آخذ بها الأخرى ، فقال : قل ، فقال :

بسر من را إمام عدل تغرف من بحره البحار
الملك فيــه وفى بنيه ما اختلف الليل والنهار
يرجى ويخشى لكل خطب كأنه جنة ونار
يداه فى الجود ضرتان عليه كلتاهما تغار
لم تأت منه اليمين شيئا إلا أتت مثله اليسار

فرمى إليه بالبدرة الأخرى(١) . ودخل عليه مروان الأصغر بن مروان ابن أبى حفصة ، فأنشده :

سقى الله نجداً والسلام على نجد وياحبذا نجد على القرب والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجداً وهيهات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتى ولا شىء أحلى من زيارتهم عندى

فلما أتم القصيدة نفحه بعشرين ومائة ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة من الظهر ، حتى أنطقه بالشكر فى قوله :

تخير رب الناس للناس جعفراً فملكه أمر العباد تخيرا

فلما انتهى إلى قوله :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

قال المتوكل : لا والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى ، ولا تبرح أو تسأل حاجة ، فسأله ضياعا كانت قد أقطعت له ، وحيل بينه وبينها ، فردها إليه .

ودخل عليه البحترى وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له : قل فى هذا يابحترى : قال البحترى ولم أكن ذا بديهة ، ولكنى اعتزلت جانباً ، فقلت :

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٦

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد (١)
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدرانها فى الوهد يلعبن من حبابها بالنرد

فقال المتوكل : انظروا ماذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق ، فادفعوه إلى البحترى . قال فأخذت من ذلك شيئاً كثيراً ، وبعته بمال .

(ب) ولم يكن عظماء الدولة وولاتها وأمراؤها أقل اهتماماً بالشعر ، أو بذلا للشعراء . قالوا إن الزوار كانوا يسمون بالسؤال ، حتى كرمهم خالد بن برمك وسماهم الزوار ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعيم . فقال بشار :

حذا خالدا فى فعله حذو برمك فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال فى كل موطن وإن كان فيهم نابه وجليل
فسماهم الزوار ستراً عليهمو فأستاره للمجتدين سدول

فأمر له خالد لكل بيت بألف درهم . وكان يعطيه فى كل وفادة خمسة آلاف ، بل إنه أعطاه مرة أربعة آلاف دينار ، ومرة ثلاثين ألف درهم .

وعلى هذا النحو من السخاء كان الخلفاء والقواد والرؤساء والعظماء والأثرياء يبذلون للشعراء ، ويغدقون عليهم ، وكأنما أخذتهم رقى الشعر ، وصرعتهم شياطينه ، فهم يعطون باليمين وبالشمال ، ويتخرقون فى هذا العطاء

---

(١) الارتجاز : صوت الرعد . مجرورة الذيل كناية عن كونها سحابة طويلة والمراد بصدق الوعد أن برقها ليس خلبا .

حتى كأنهم لا يدرون ماذا يعطون ، وكان الأمراء من حولهم والولاة من قبلهم يصنعون هذا الصنيع ، ويمنحون هذا المنح .

ولو أننا أفضنا فى أخبار هؤلاء وتتبعنا عطاياهم الجسام ؛ وصلاتهم التى تفوق الخيال ، لما اتسع ذلك المجال ، فحسبنا هذا القبس دليلا على عنايتهم بالشعر ، وانطباع نفوسهم على حبه ، وإيثارهم للشعراء ، وتقريبهم ، والإسراف فى مثوبتهم ، حتى صارت لهم منزلة لا تدانيها منزلة ومكانة لا تساويها مكانة ، فالخلفاء يقبلون شفاعتهم ، ويتقبلون إساءتهم ، ويغضون عن أذاهم ، بل ويستمعون لما يقولونه فيهم من هجاء ، ولقد قالوا إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إن التراث مسهد طلابها	فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إنى من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله	واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فذهب أبو سعد المخزومى ، وأنشد المأمون هذا الهجاء ، وقال له : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ؟ فقال له : لا ، هذا رجل فخر علينا ، فافخر أنت عليه ، فأما قتله فلا .

ولم يزد المأمون على أن قال : « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا ؟ وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت (١) » .

وقالوا إن المتوكل غضب على محمد بن البعيث ، لخروجه عليه ، فأرسل إليه من أتى به أسيراً ، فأمر بضرب عنقه ، فأنشده :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى	إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطيئة	وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا	ولا شك فى خير الفعالين تفعل

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٢٢

فقال المتوكل لجلسائه : إن فيه لأدباً ، وأمر بإطلاقه والعفو عنه . وهكذا شفع له مقام الأدب . وجاه الشعر ، وما أعظمه من جاه عند هؤلاء الناس .

بل إن أبعد من هذا دلالة على مكانة الشعراء وعظم جاههم . ما كان من أبي تمام حين شفع للواثق عند أبيه في ولاية العهد ، فقال :

فاشدد بهرون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بدون سوار

مجالس الشعر والأدب

قوم يرثون هذا الشغف بالشعر ، ويجلون الشعراء ذلك الإجلال، ويحلونهم من نفوسهم وقلوبهم تلك المكانة ، وينزلونهم من عنايتهم ورعايتهم هذه المنزلة ، فلا يكتفون بما يسد رمقهم ، أو يغني حاجتهم ، بل يغمرونهم بالعطاء ويغرقونهم بالثراء ؛ ويغمرونهم بالترف والبذخ والنعيم ... قوم هذا شأنهم لا بد أن تعمر مجالسهم بالأدب ، وتحفل نواديهم بالشعر ، وتزخر قصورهم بالشعراء والأدباء ، ولا بدع فهم عرب تترنح أعطافهم نشوة بالأدب ، وتهتز أريحيتهم نشاطاً له ، وتهفو مشاعرهم صبوة إليه .

ولقد كان للخلفاء والأمراء في هذا العصر ـ كما كان لغيرهم من رجال الفن والأدب ـ مجالس يتفاكهون فيها بالطريف من الشعر ويتسامرون بالغريب من الرواية ، ويتجاذبون الرائع من القول ، ويتبادلون التعليق والنقد ، ويستجيدون الجيد ويهجنون الضعيف . وكلها تدل على دقة الحس ، ورقة الشعور ، وسلامة الذوق ، وفطرة البيان . كما تدل على عنايتهم بالأدب ، واعتبار مجالسه متعة للنفس ، وغذاء للحس ، وأنساً للروح ، ولذة للعقل والقلب والشعور ؛ وهذا مما يدل على مدى العناية الفائقة التي أولاها الخلفاء والأمراء والولاة للشعر والشعراء في هذا العصر .

وهذه بعض أمثلة لمجالس الأدب والشعر فى هذا العصر :

١ — قالوا إن المنصور ركب يوماً هجينا فى وقت الهاجرة ، فجعلت الشمس تلمع بين عينيه . فقال لمن حوله : إنى قائل بيتا ، فمن أجازه فله جبتى هذه ، وقال :

وهاجرة نصبت لها جبينى يقطع ظهرها ظهر العظاية(١)

فابتدر بشار فقال :

وقفت بها القلوص ففاض دمعى على خدى وأقصر واعظايه

فنزع المنصور جبته وهو راكب ، وأعطاها له ، فباعها بأربعمائة دينار .

٢ — وعقد المهدى يوما مجلسا لمروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بنى العباس فلما اكتمل عقدهم ، دعا مروان فأنشده :

كأن أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والد
على أنه من خالف الحق منهمو سقته به الموت الحتوف الرواصد

فأشار إليه فأمسك ، فقال يابنى العباس ، هذا شاعركم المنقطع إليكم المعادى فيكم ، فآتوه مايسره ، فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وأعطاه هرون مثلها ، وأعطاه الجميع كل على قدر حاله ، وأعطاه هو ثلاثين ألفا ، ثم قال له : وسيأتيك منى مايؤديك إلى الغنى ، فقال مروان : قد رأيت من قبولك وبشرك وسرورك بما سمعت منى ماسأزداد به شعراً .

٣ — وكان الهادى مغرما بجمع السلاح ، فلما وقع إليه سيف عمرو ابن معد يكرب الزبيدى ، عقد مجلسا للشعراء ، واقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز صمصامة الزبيدى من بيـ ـن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون

---

(١) العظاية : دويبة صغيرة ملساء تشبه سام ابرص .

أخضر اللون بين حديه برد　　من زعاف يميس فيه المنون

فإذا ماسللتـه بهر الشمـ　　ـس ضياء فلم تكد تستبين

مايبالى من انتضاه لحرب　　أشمال سطت به أم يمين

يستطير الأبصار كالقبس المشـ　　ـعل ما تستقر فيه العيون

وكأن الفرند والجوهر الجا　　رى على صفحتيه ماء معين

فمنحه عشرين ألف درهم .

٤ — وكانت مجالس الرشيد أعمر هذه المجالس ، وأحفلها بالأدب ، لأنه كان عالما شاعراً أديبا ، ذا حس مرهف ، وذوق ناقد ، وبصر بالأدب وغرام بالشعر ، كما كان أجزل الخلفاء عطاء ، وأبلغهم تأثيراً وتقديراً ؛ وهو الذى شق عليه امتناع أبى العتاهية عن قول الشعر وحضور منادمته حين أدركته حال الزهد ، فلما لم يفلح فى رده عن هذه الحال ، أمر بضربه ستين عصا ، ثم سجنه وأقسم ألا يخرج من حبسه ، حتى يقول الشعر ، ولكن أبا العتاهية أقسم ألا يتكلم سنة إلا بالقرآن أو الشهادة ، فندم الرشيد وأمر بالتوسعة عليه ، حتى إذا انتهى العام ، قال أبو العتاهية فى امرأته :

من لقلب متيم مشتاق　　شفه شوقه وطول الفراق

طال شوقى إلى قعيدة بيتى　　ليت شعرى فهل لنا من تلاق ؟

فلما سمع الرشيد الشعر ، أعطاه بدل الستين عصا ، ستين ألف درهم .

ودخل عليه أعرابى فأنشده ، فقال : ياأعرابى أسمعك مستحسنا ، وأنكرك متهما ، فقل لنا بيتين فى هذين ـ الأمين والمأمون ـ فقال : ياأمير المؤمنين حملتنى على الوعر القردد[1] ، وأرجعتنى عن السهل الجدرد ، روعة الخلافة ، وبهر الدرجة ، ونفور القوافى على البديهة ، فقال الرشيد : قد جعلت

---

(١) القردد : ماارتفع من الأرض .

أعتذارك بدلا من امتحانك ، فقال : يا أمير المؤمنين نفست الخناق ، وسهلت ميدن السباق ، ثم أنشد :

بنيت لعبـــد الله ثم محمد ذرى قبة الإسلام فاخضر عودها
هما طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين عمودها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك قال : الهنيدة[1] يا أمير المؤمنين ، فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع .

وروى حماد بن إسحق عن أبيه قال : كنا عند الرشيد ، فحضر الأصمعى والكسائى ، فسأل الرشيد عن بيت الراعى :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثـــله مخذولا

فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج ، فضحك الأصمعى وتهانف[2] ، فقال الرشيد : ماعندك؟ فقال : والله ما أحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه دخل فى شهر حرام ، كما يقال أشهر وأعام إذا دخل فى شهر أو عام . فقال الكسائى : ماهو إلا هذا ، وإلا فما المعنى الإحرام؟ قال الأصمعى : فخبرونى عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتـــولى لم يمتـــع بكفن

أى إحرام لكسرى؟ فقال الرشيد : فما المعنى؟ قال : يريد أن عثمان لم يأت شيئا يوجب تحليل دمه ، فقال الرشيد : يا أصمعى ماتطاق فى الشعر .

ودخل عليه سهل بن هرون ، وهو يضاحك المأمون ، فقال : اللهم زده وابسط له فى البركات ، حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه ، مقصراً عن غده . فقال الرشيد : ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده

---

(١) الهنيدة : مائة من الإبل .
(٢) التهانف : ضحك فى فتور واستهزاء .

ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه . . قال سهل : يا أمير المؤمنين ماظننت أحداً تقدمنى إلى هـذا المعنى . فقال الرشيد : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بنى لؤى   وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفا   كذاك تزيد سادة عبد شمس

٥ — ولم يكن المأمون بأقل من أبيه فهما للشعر ، وبصراً بالأدب ، وعناية بالأدباء وإفساحا فى مجالسه .

ولقد حضر بمجلسه مرة مروان بن أبى حفصة ، فأنشده :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا   بالدين والنـاس بالدنيا مشاغيل

فلم يطرب المأمون ، ولم يسغ ما قال الشاعر ، وأعرض عنه ، فقال مروان لعمارة بن عقيل : أعلمت أن المأمون لايبصر الشعر ؟ فقال عمارة : ومن ذا يكون أعلم به منه ؟ والله إنا لننشده أول البيت ، فيسبقنا إلى آخره ، قال مروان : إنه لم يتحرك لقولى . فقال عمارة : إنك والله ماصنعت شيئا ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها ، وفى يدها مسابحها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ؟ هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن مروان :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه   ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فقال مروان : الآن علمت أنى أخطأت .

وقال النضر بن شميل : دخلت على المأمون فى سمره ليلة ، فدار الحديث على ذكر النساء ، فروى المأمون عن هشام حديث الرسول «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالهـا كان فيها سداد - بفتح السين - من عوز» قلت يا أمير المؤمنين : حدثنا عوف بن أبى جميلة عن الحسن عن على كرم

الله وجهه عن رسول الله . إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد بكسر السين ـ من عوز ، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال يانضر ، كيف قلت سداد بالكسر ؟ فقلت نعم ، لأن السداد بالفتح لحن ، قال أو تلحنني . قلت : إنما لحن هشام فتبع أمير المؤمنين لفظه ، قال فما الفرق بينهما ؟ قلت : السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل ، وبالكسر البلغة وكل ماسددت به شيئاً فهو سداد . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

قال المأمون : قبح الله من لاأدب له ، ثم أمر لى بخمسين ألف درهم ، ودفع لى الفضل بن سهل ثلاثين ألفاً ، فأخذت ثمانين ألفاً بحرف واحد .

٦ — واجتمع الشعراء فى مجلس المعتصم فقال لهم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النميرى فى الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية   أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه   ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما   فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله   أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليقل ، فقال محمد بن وهيب الحميرى : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
فالشمس تحكيه فى الإشراق طالعة   إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجاً   إذا استنارت لياليه به الغرر

فهش له وبالغ فى جائزته :

٧ — وكذلك كان المتوكل فى مجالسه ، والبحترى يصول فيها ويجول :

ولقد شهد أبو عنبس الصيمري بعض هذه المجالس ، فقال : كنت في مجلس المتوكل والبحتري ينشده :

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم

حتى انتهى إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ ـمتوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى والمنعم بن المنتقم
أسلم لدين محمد فإذا سلمت فقد سلم

وكان البحتري من أبغض الناس إنشاداً ، وأشدهم غروراً ، فضجر المتوكل وقال لى : أما تسمع مايقول ياصيمري ؟ قلت بلى ياسيدى ، فمرنى بما أحببت قال بحياتي : اهجه على هذا الروى ، فقلت :

أدخلت رأسك فى الرحم وعلمت أنك تنهزم
يابحترى حذار ويـ ـحك من قضاقضة ضغم(١)
فلقد أسلت بوالديك من الهجا سيل العرم
فبأى عرض تعتصم وبهتكه جف القلم
وبحق جعفر الإما م ابن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة بين المسيل إلى العلم

فجعل المتوكل يضحك ، ويصفق بيديه ، وخرج البحتري غاضباً .

---

(١) قضاقضة : جمع قضاقض وهو الأسد ، ضغم : جمع ضيغم وهو الأسد .

المحدثون والمولدون

الشعراء المحدثون هم الذين نشأوا فى العصر العباسى وتأثروا بمظاهر الحضارة المختلفة فيه ، والمولدون منهم هم الذين نشأوا من أب عربى وأم أعجمية ، وبعضهم كانت أصولهم كلها أعجمية ؛ وقد يطلق لفظ المولدين على ما يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسى وحضارته ومن اتساع أفق الخيال باتساع المشاهد وتختلف المناظر فيه .

وللمولدين حسناتهم وسيئاتهم أما حسناتهم فيمكن أن نعدها فيما يلى :

١ — تناولوا معانى المتقدمين فزادوا عليها وكشفوا عن مواطن الجمال فيها .

٢ — واخترعوا معانى جديدة لم تكن تخطر على بال متقدم .

٣ — وكسوها أسهل الكلام وأعذبه على اللسان وأخفه فى السمع وألصقه بالقلب .

٤ — وفتحوا فى الأدب العربى فتحاً جديداً بزيادتهم فى أغراضه التى جعلته أدبا رفيعاً خليقاً بالعناية به والاحتفال له وصيرته فناً عاليا يهذب النفس ويصقل الفكر ويسمو بالوجدان حين يطالع ماتضمنه من أمثال سائرة وحكم عالية ومواعظ شافية وتصوير لمجالى الطبيعة ومظاهر الكون .

٥ — ولهم فى باب الخيال الشعرى الصور الرائعة التى تسحر النفس وتجل عن الوصف وحسبك أن تستعرض مامر بك فى فن البيان لتدرك بدائع خيالهم وتعلم ماقدمه المحدثون للأدب العربى من حسنات ومن محاسن المولدين .

٦ — براعة الاستهلال وحسن التخلص والخروج لتمام حذقهم وجودة

صنعتهم وعلمهم بأنها مواطن إذا وفيت حقها من التجويد استمالت الأسماع إليها وعطفت القلوب عليها ومن ابتداءاتهم الحسنة :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

على أنهم لم يسلموا من العيب فقد نعى عليهم العلماء أموراً ترجع إلى اللحن فى الإعراب والخروج على أوضاع اللغة وأنهم يسهلون كلامهم حتى يصيروا به إلى الساقط السوقى وأن لهم معانى غامضة متناقضة واستعارات بعيدة أو سخيفة ينبو عنها الذوق وأن فرط شغفهم بالبديع دعاهم إلى استهلاك المعنى وإلى أن يصير الكلام ضرباً من الخداع والتزويق لا تأدية للمراد وأنهم قد تدعوهم شهوة الإغراب إلى التشبه بالأعراب فيخلطون بكلامهم الرقيق العذب وأسلوبهم السهل الممتنع الألفاظ الغريبة ، والحق أن هذا تحامل وأن المتقدمين وقع لهم مثل هذه الهفوات ولكن العلماء بالغوا فى الاحتيال لهم والاعتذار عنهم بضروب من التخريج تكشف عن المقابح دون أن تمحوها :

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر

فإذا لم يسع المتأخرين ما وسع المتقدمين كنا باغين فى الحكم مجاوزين حد الإنصاف وقد يقال إن المتأخرين أهل تجويد وفقه فى اللغة وعرفان للمطرد والشاذ فكان عليهم أن يجنبوا كلامهم ما يهجنه وللقائل وجه ولكن يبدو أن الضرورة تنزل الشعراء فى كثير من الأحيان على حكمها .

ألفاظ الشعر وأساليبه فى هذا العصر

تأثرت ألفاظ الشعر وأساليبه بعوامل ثلاثة : الحضارة ، والغناء ، واختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية .

ا — أما تأثير الحضارة فى ألفاظ الشعر وأساليبه فهو شديد الوضوح، فقد تغيرت الحياة العربية فى هذا العصر الذهبي تغيرا ملموساً يوشك أن يجعلها جديدة كل الجدة فى جميع مظاهر العيش والاجتماع . فقد أظلت الحضارة الناس بظلالها ، وألوانها ، وغمرتهم المدنية بزخارفها وزينتها . حتى رأيناهم يتأنقون فى اللباس ، ويفتنون فى الطعام ، ويزخرفون فى المسكن ويتصنعون فى كل مظهر . فلم يعد مسكنهم بالخيمة التى ترفع عمدها ، وتشد أطنابها فى رمال الصحراء المنبسطة ، وإنما هو غرف تزدان بالمناضد ، وتزركش بالستائر ، وتحلى بالمرصعات ، وتتألق بالثريات ، وبالقرب منها ، قصور الخلافة بسقوفها المحلاة ، وحيطانها الموشاة ، وأرائكها الوثيرة ، وثرياتها الناصعة ، وأبهائها العامرة ، ولياليها الساهرة ، وقيانها المغردة ؛ ولم يعد طعامهم بالثريد أو الحيس ! وإنما هو ألوان وأنواع ، يتأنقون فيه فيطعمونه فى صحاف الذهب والفضة ، ويخلطونه بماء الورد والكافور (١) ، كما يحلون أوانى الشراب بالصور المنقوشة ، والحلى المزركشة ، على نحو ما يصف أبو نواس فى قوله :

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

وكذلك كان تأنقهم فى الملابس حتى رأينا الرجال يلبسون الثياب المصبغة بألوان الزهر كما يلبس النساء ، والنساء يلبسنها مطرزة موشاة ، وهذا ابن الرومى يشبه بها قوس قزح فيقول :

---

(١) الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٠١

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً
على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وكن يحلين الرؤوس بحلى من الذهب، ويزينها بالعصابات المنضدة، ويحاكين الفارسيات فى صبغ الشفاه والخدود.

هذه الحضارة الزاهية بألوانها، ومظاهرها، وما فيها من جمال وتجميل وزخرف ووشى، وصنعة وتصنيع، قد انتقلت من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة، كما يقول ابن خلدون: «وعلى مقدار عمران البلد يكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها، بحيث تتوفر دواعى الترف والثروة (١)»، وهكذا تأثر الأدب بالمدنية والحضارة، وكان الشعر دائماً أكثر تأثراً، وأسرع استجابة للمدنية والتحضر، لأنه المجال للظرف والتأنق، والمصور للحسن والجمال، والمحلق فوق الطبيعة بأجنحة الخيال. والموضوع الأول للحن والغناء، ومن مظاهر تأثير الحضارة فى ألفاظ الشعر وأساليبه. ما يلى:

١ — رقت ألفاظه وعذبت، ولانت تراكيبه وسهلت، حتى كاد كل منهما يسيل رقة حاشية، وأناقة مظهر، وعذوبة مخرج، وسهولة بيان. فهجرت الكلمات الغريبة، ووضحت الأساليب، وأشرقت ديباجة الكلام.

قال البحترى:

مخلف فى الذى وعد سيل وصلا فلم يجد
وهو بالحسن مستبد وبالدل منفرد
يتثنى على قضيب ويفتر عن برد

---

(١) المقدمة صـ ٢٨١.

قـــد تطلبت مخرجا من هواه فـلم أجد
ضاق صدرى بما أجـ ـن وقلبي بمـا وجد
وتغضبت أن شـكو ت جوى الحب والـكمد
واشتـكانى هواك ذنـ ـب فإن تعف لم أعد

وقال أبو تمام فى وصف الروض :

إن الربيـــع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جسمان
مصوراً فى صورة الإنسان لـكان بساما من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تختـــال فى مفوف الألوان فى زهر كالحـدق الروانى
من فاقع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شىء فان

ألست ترى أثر الحضارة فى رقة اللفظ وصفائه ، وسماحة الأسلوب وبهائه ، وسجاحة الـكلام وإشراقه ؟ . وقد اجتمع مســـلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل فى مجلس ، فقالوا لينشد كل واحد منـكم أجود ما قال ، فأنشدهم أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللوم

فقال أبو نواس إنى أرى نمطاً خسروانياً مذهباً (١) . ويحدثنا ابن رشيق أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك اجتمعوا يوماً فقال أبو نواس ، لينشـد كل منـــكم قصيدة لنفسه فى مراده ، فأنشد أبو العتاهية :

---

(١) الأغانى (ساسى) ١٥ : ١٠٥ .

يا إخوتى إن الهوى قاتلى　　فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى　　فإننى فى شغل شاغل
عينى على عتبة منهلة　　بدمعها المنسكب السائل

فسلم له أبو نواس وابن الضحاك ، وقالا : أمامع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارة ، فلا ننشد شيئاً (١) .

وهكذا لان عيشهم فلانت ألفاظهم ، ورقت شمائلهم فرقت عباراتهم.

٢ — وكان من أثر هذه الحضارة الوارفة ، والمدنية المشرقة ، وماازدان به الحياة من قصور ورياض ، وملاعب حسان ، ومجالس لهو وشدو ، أن خلا أسلوب الشعر من الابتداء بذكر الأطلال وبكاء الديار ، وانصرف الشعراء عن هذا النحو الذى يذكرهم بالبداوة ، إلى مظاهر الحضارة وبريقها . ويبدو أن أول من كسر هذا القيد مطيع بن إياس . ذكروا أنه اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن ، فقال مطيع :

لأحسن من بيد يحار بها القطا　　ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما　　له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

وجاء أبو نواس فراح يسخر من ذلك الأسلوب القديم كما فى قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس　　واقفاً ماضر لوكان جلس

وقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم　　فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

---

(١) العمدة ١ : ١٠٦

تبكى على طلل الماضين من أسد ... لادر درك قل لى من بنو أسد
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

وقوله :

دع الرسم الذى دثرا ... يعانى الريح والمطرا
ألم تر مابنى كسرى ... وسابور لمن غبرا

وقد كان لهذه الجملة أثرها فى الشعراء . فكان منهم من استبدت به نشوة الراح ، وصرعته حميا الأقداح ، فاستهل قصائده بوصف الخمر . ومنهم من هزه الجمال ، وأرقه طيف الخيال ، فابتدأها بالغزل، ومنهم من بهره جمال الحضارة ، وسحره بهاء الطبيعة ، فراح يشدو بمحاسنها ، ويتغنى بوشيها وروائها ، ويجعل ذلك استهلال قصيده وفاتحة موضوعه . وإنا لنرى أباتمام يمدح المعتصم ، فيقدم بين يدى هذا المدح وصف الربيع ، ويمثل الدهر فى حواشيه الزاهية التى يتمايل فيها الثرى ، كعروس تتثنى فى حليها ، وتتكسر فى زينتها :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر ... وغدى الثرى فى حليه يتكسر
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين فى حلل الربيع تبختر

أرأيت إلى الشعر كيف جعلته الحضارة يختال فى وشيها وزينتها ورقتها !

٣ — على أن هناك ظاهرة جديدة بدأت تظهر فى هذا العصر ، تلك هى أن الشعراء أخذوا يعنون بمطالع القصائد ، ويتخذون لها سمتاً آخر غير ذلك كله . فجعلوا المطلع دالا على القصد من أول الأمر ، مشيراً إلى موضوع القصيدة ابتداء ، واختاروا له اللفظ المناسب للمقام رقة أو فخامة ، وسهولة أو جزالة . ومن ذلك ابتداء أبى تمام فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله فى مطلع مرثية :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد تبع ذلك احتفالهم بختام القصيدة ، فجعلوا البيت الأخير مؤذنا بالفراغ ، مشيراً إلى الانتهاء ، باشتماله على ماتسكن النفس إليه من دعاء أو حكمة أو نحو ذلك .

٤ — وسرى زخرف الحضارة ووشيها ، وما فيها من تصنيع وتجميل إلى الشعر فظهر المحسن البديعى ، وشاعت ألوانه ، من جناس وطباق وتورية ونحو ذلك ، وقد كان أول أمره ساذجا واضحاً فى شعر مسلم وأبى نواس والبحترى ، ثم غلا فيه أبو تمام وأوغل ، حتى غض من جمال شعره ، ومازال الشعراء يلحون فيه ، ويتوسعون فى فنونه ، حتى كان آخر من انتهى إليه الإبداع فيه ابن المعتز . وسنتحدث عن الصنعة عند المحدثين فى بحث خاص .

وانظر إلى الجناس والطباق فى شعر مسلم بن الوليد الذى يعد أول من سمى هذه المحسنات بالبديع ، كما يعد أول شاعر ظهرت هذه الألوان بوضوح فى شعره . قال يمدح يزيد بن مزيد الشيبانى :

يغشى الوغى وشهاب الموت فى يده يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
(يفتر) عند (افترار) الحرب (مبتسما) إذا (تغير) وجه الفارس البطل
موف على (مهج) فى يوم ذى (رهج) كأنه (أجل) يسعى إلى (أمل)

واقرأ هذا الطباق الذى يعد أهم لون كان يستخدمه البحترى . إنه

طباق لا تعقيد فيه ولا تكلف ، ولكنه بسيط ساذج ، أشبه ما يكون بتداعى المعانى ، لا مشقة فيه ولا صعوبة :

منى وصل ومنك هجر ... وفى ذل وفيك كبر
وما سواء إذا التقينا ... سهل على خلة ووعر
قد كنت حراً وأنت عبد ... فصرت عبداً وأنت حر
أنت نعيمى وأنت بؤسى ... وقد يسوء الذى يسر

أما أبو تمام فقد كان لتأثره العميق بالفلسفة والثقافات الأجنبية ، يستخدم ألوان البديع استخداماً فلسفياً ، ويمزجها بالتصوير مزجا غريباً حتى يكد الذهن فى فهمه ، ويتعب العقل فى إدراكه .

إنه يصف بعيره وما أصابه من نحول وسقم لكثرة الأسفار فيقول :

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فلا تجد طباقا عاديا بين رعته ورعاها ، إنه بعير يرعى الفيافى وترعاه الفيافى ، وهكذا يمزج بين الطباق والاستعارة والتصوير .

وعلى هذا النحو قوله :

وأحسن من نور تفتحه الصبا ... بياض العطايا فى سواد المطالب

واقرأ له فى المشاكلة :

أظن الدمع فى خدى سيبقى ... رسوما من بكائى فى الرسوم

وكذلك كان جناسه يتكىء على التصوير ويلتف على التشبيه والاستعارة :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف ... وتمثل بالصبر الديار المواثل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ... وقد أخملت بالنور منها الخمائل

وكذلك (التدبيج) فى مثل قوله :

كأن سواد الليل ثم اخضراره ... طيالسة سود لها كفف خضر

وهكذا كان أبو تمام يغرب في المحسنات إغرابه في معانيه ، حتى إنها لتستنفد منه جهداً شاقا ، إذ يغرقها في استعاراته وتصويره ، فيجللها الغموض.

ومن مطرف الجناس قول البحتري :

فإن صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف

ومن مقلوبه قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ب — وأما تأثير الغناء في الشعر في هذا العصر فهو أشد وضوحا . فقد كان للغناء ـ وهو من أظهر مظاهر هذه الحضارة ـ أثره في انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وسهولة الأساليب ، وترقيق حاشية التراكيب .

وكانت مجالسه بجانب مجالس الأدب ، أو مندمجة فيها ، وقد استجاب الشعراء للمغنين ، فنظموا لهم المقطوعات الصغيرة التي تناسبهم ، وتخيروا لهم الألفاظ الرقيقة الرشيقة ، والأساليب السهلة الأنيقة ، والأوزان المستحدثة القصيرة ، وكان من أثر ذلك أن نما الشعر الغنائي المهذب الرقيق ، واحتفل الشعراء به ، وتسابقوا فيه ، وذهبوا في ترقيق معانيه ، وتهذيب أساليبه كل مذهب ، حتى كان منهم من تخصص فيه ، كالعباس بن الأحنف ، الذي يقول عنه صاحب الأغاني : «لولا أن العباس أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ويجوده» .

وقد أثر الغناء في أوزان الشعر لأن المغنين كانوا يدخلون في الغناء ألحانا فارسية ورومية ، فاضطر الشعراء أن يجددوا في أوزانهم ، على النحو الذي سنتحدث عنه فيما بعد كما يلاحظ أنهم تجنبوا كثيراً ـ في شعرهم الغنائي ـ الأوزان الطويلة ، وقصروها على الأوزان التقليدية الأخرى ، وأكثروا من البحور المجزوءة التي تلائم الغناء .

ويمكن أن نقول إن الغناء قد أثر فى الشعر بوجه عام ، غنائياً كان أو تقليدياً ، من حيث الموسيقى الداخلية ، التى تعنى اختيار الكلمات وترتيبها والمشاكلة بين أصواتها ومعانيها . ومن الممكن اعتبار البحترى أبرع شاعر يصور هذا الجانب . قال الباقلانى : « إنه كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديداً (١) . . . وما يزال يتتبعها حتى يؤلف منها ألفاظا عذبة ، كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى (٢) . اقرأ له فى رثاء المتوكل ، وانظر كيف اختار ألفاظه جزلة ضخمة ، لأنه ثائر غاضب كأن لها قعقعة السلاح ؟ وكيف ربط القوافى بالهاء الساكنة . فصوته ينطلق بالكلمات والمقاطع ، ثم ينخفض فجأة كالنائح المتعب :

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

تغير حسن الجعفرى وأنسه ... وقوض بادى الجعفرى وحاضره

تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل أستار وستائره

واقرأ له :

لى حبيب قد لج فى الهجر جدا ... وأعاد الصدود منه وأبدى

يتأبى منعاً ، وينعم إسعا ... فا ، ويدنو وصلا ، ويبعد صداً

أغتدى راضياً وقد بت غضبا ... ن ، وأمسى مولى وأصبح عبداً

وبنفسى أفدى على كل حال ... شادناً لو يمس بالحسن أعدى

مر بى خالياً فأطمع فى الوصـ ... ـل وعرضت بالسلام فردا

وثنى خده إلى على خو ... ف فقبلت جلناراً ووردا

سيدى أنت ما تعرضت ظلماً ... فأجازى به ولا خنت عهداً

---

(١) إعجاز القرآن ١٠٦ . .

(٢) المثل السائر لابن الأثير ١٠٦ .

أتراني مستبدلا بك ما عشـ ـت بديلا أو واجدا منك ندا

حاش لله أنت أفتن ألحا ظا ، وأحلى شكلا ، وأحسن قدا

فأنت تراه قد استوفى كل ما يمكن من وسائل التفوق فى فن الصوت ، فقد كرر الجيم فى الشطر الأول ، وكرر الدال فى الثانى ، فأحدث فى البيت الأول توافقاً صوتياً ، وفى البيت الثانى يوفق بين الألفاظ ، فيأتى بكلمة (يتأبى) كأنها مشدودة إلى (ينعم) بهذا الرباط المحكم (منعماً) ،وعلى هذا النحو فى شطره الثانى . وانظر إلى الطباق بين يدنو ويبعد ووصلا وصدا . ثم انظر إلى إقبال كل كلمة أختها فى البيت الثالث ، كأن الكلمات من أسرة واحدة ، ثم إلى قوله : بنفسى أفدى وتشابكهما . وكذلك ما فى الأبيات من طباق وتقسيم ومقابلة ، وما فى قوافيها من إحكام القرار ، واتحاد عدد الحروف والسكنات والحركات ، مما يسميه البديعيون بالتطريز ، وهكذا تجد الجوانب الموسيقية المتعددة (١) .

جـ — أما اختلاط العرب بالعجم فهو أشد تأثيرا فى ألفاظ الشعر وفى أساليبه فى هذا العصر ، فلقد كان لاختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأجنبية التى لها ثقافاتها ولغاتها وألفاظها واصطلاحات علومها وفلسفاتها . كان لهذا الاختلاط ، بل لهذا الامتزاج أثره فى ألفاظ الشعر إلى جانب آثاره فى نواحيه الأخرى :

١ — فقد شاعت فى الشعر ألفاظ فارسية بقيت على حالها أو عربت وصقلت ، وربما كان بقاؤها على حالها للتظرف والتفكه ، على نحو ما كان يصنع الأعشى وغيره من الشعراء .

يقول أبو نواس :

خبز إسماعيل كالوشـ ـى إذا ما شق يرفى

---

(١) راجع الفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ٥٦ :

إن رفاءك هـــذا أحـذق الأمة كفا
فإذا قابـل بالنصـ ـف من (الجردق) نصفا
أحـذق الصنعة حتى لاترى مغرز إشفى (١)

ويقول إبراهيم الموصلى :

إذا ما كنت يوما فى شجاها فقل للعبد يسقى القوم (يرا) (٢)

ويقول العمانى فى وصف من وقف بين الآساد :

لما هوى بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد (٣)

أما ماصقلوه وعربوه فكثير : كلفظ آذريون معرب آذركون، أى لون النار ويطلقونه على ورد أحمر الورق مع سواد الوسط أو اصفراره ، يقول ابن المعتز :

عيون آذريونهـا للشمس فيـه كالية
مداهن من ذهب فيهـا بقـايا غاليـة

وكذلك نيروز معرب نوروز ، ونحو ذلك .

٢ — كما شاعت فى ألفاظ الشعر كذلك الاصطلاحات العلمية التى كانت تجرى على الألسنة فى العلوم الكلامية والفلسفية والكيمائية والهندسية ونحو ذلك . قال أبو نواس :

وذات خـد مورد قوهية المتجـرد
تأمل العين منها محاسناً ليس تنفـد
فبعضها قـد (تناهى) وبعضهـا (يتجدد)

---

(١) الجرد فى الرغيف معرب كردة : والأشفى المثقب .
(٢) الير لفظ فارسى معناه ملآن وهو بتشديد الراء .
(٣) آب سرد : هو الماء البارد .

ويقول أبو تمام فى الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها   كتلاعب الأفعال بالأسماء

ويقول :

هب من له شيء يريد حجابه   ما بال لاشيء عليه حجاب

فعبر عن العدم بكلمة (لاشيء) الفلسفية .

ويقول :

صاغهم ذو الجلال من (جوهر) المجـ   ـد وصاغ الأنام من (عرضه)

كما يقول :

لن ينال العلا (خصوصاً) من الفتيـ   ـان من لم يكن نداه (عموما)

ويقول غيره :

محاسنه (هيولى) كل حسن   ومغناطيس أفئدة الرجال(١)

وعلى هذا النحو سار الشعراء بعد هذا العصر فى الاقتباس من المصطلحات حتى رأينا المتنبي يقول :

إذا كان ماتنويه فعلا مضارعا   مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

د — ومجمل الأمر أن عوامل الحضارة والغناء والامتزاج أثرت تأثيرها فى لفظ الشعر وأسلوبه ، بما طرأ عليهما من رقة اللفظ ، وعذوبة الكلام ، وسجاحة التركيب ، وسهولة الأسلوب ، وإشراق الديباجة ، وجمال الاستعارة ولطف التشبيه ، واستحداث البديع والإكثار منه ، والإكثار من النظم فى البحور القصيرة ، وابتداع أوزان جديدة ، واستعمال الألفاظ

---

(١) الهيولى : الأصل .

والمصطلحات الأجنبية ، والعناية بمطالع القصائد وختامها ، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة .

قال الحاتمى : «مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتخفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناع من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال حتى يقع الإتصال، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة ... وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم ...» .

أما الذى هجر فهو اللفظ الخشن ، والكلمة الغريبة ، والتركيب المتوعر، والاستهلال بذكر الأطلال .

أوزان الشعر وقوافيه فى هذا العصر

١ — حمل الغناء الشعراء على متابعة المغنين بتحرى الأوزان الملائمة للألحان ؛ وابتداع أوزان أخرى تساير فنون الموسيقى والغناء ؛ وقد رجع الخليل أوزان العرب إلى خمسة عشر بحراً ، وجعلها تلميذه الأخفش ستة عشر بإضافة المتدارك ؛ وراح الشعراء العباسيون يروجون الأوزان القديمة التى تناسب الغناء : كالمتقارب والهزج والرمل والخفيف ونحو ذلك ، فإذا ألموا بالبحور الطويلة نوعوا فيها أو جزأوها .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يخترعون أوزانا أوحى بها مزاجهم ، أودعا إليها فن الغناء ، فلمسلم بن الوليد قصيدة مطلعها :

يأيها المعمـــود قد شفك الصدود
فأنت مستهام حالفـــك السهود

---

(١) راجع كتاب «البناء الفنى للقصيدة العربية» للخفاجى .

وأخرى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد

وصنع سلم الخاسر أرجوزة يمدح بها موسى الهادى على جزء واحد :

موسى المطر غيث بكر عدل السير باقى الأثر

وهكذا ، ويقول ابن رشيق : إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ؛ وكان أبو العتاهية مشغوفاً باستحداث هذه الأوزان . كان عند قصاب يوماً فسمع صوت مدقة ، فحكى ذلك فى ألفاظ شعره :

للمنون دائرا ت يدرن صرفها
ثم ينتقيننا واحداً فواحداً

ولما روجع فى هذا قال : أنا أكبر من العروض ، وهو الذى يقول :

عتب ما للخيال خبرينى ومالى
لا أراه أتانى زائراً مذ ليالى

ومن العجيب أن يزعم أبو العلاء أنهم استحدثوا فى هذا العصر المقتضب والمضارع ، وأن الخليل قد سجلهما وليس لهما أصل فى الشعر العربى(١) .

مثال المقتضب قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

ومثال المضارع قول أبى العتاهية :

أيا عتب ما يضر ك أن تطلقى صفادى

٢ — أما ما استحدثوه من الأوزان العامة ، فبعضه استنبطوه من دوائر البحور المعروفة ، وبعضه جاء على أوزان جديدة .

---

(١) الفصول والغايات ١٣٢

فالنوع الأول يشمل ما يلى :

١ — المستطيل ، وهو مقلوب الطويل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين :

لقدهاج اشتياقى غرير الطرف أحور   أدير الصدغ منه على مسك وعنبر

٢ — الممتد ، مقلوب المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين :

صاد قلبى غزال أحور ذو دلال   كلما زدت حبا زاد منى نفورا

٣ — المتوافر ، محرف الرمل (فاعلاتك فاعلاتك فاعلن) مرتين :

ما وقوفك بالركائب فى الطلل   ما سؤالك عن حبيبك قد رحل

٤ — المتئد ، مقلوب المجتث (فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن) مرتين :

كن لأخلاق التصابى مستمرياً   ولأحوال الشباب مستحليا

٥ — المنسرد ، مقلوب المضارع (مفاعيلن مفاعيلن فاع لاتن) مرتين :

على العقل فعول فى كل شأن   ودان كل من شئت أن تدانى

٦ — المطرد ، صورة أخرى من المضارع (فاع لاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين .

ما على مستهام ريع بالصد   فاشتكى ثم أبكانى من الوجد

وأما النوع الثانى ، فمنه :

١ — السلسلة (فعلن فعلاتن متفعلن فعلاتان) وهو من اختراعات البغداديين :

السحر بعينيك ماتحرك أو جال   إلا ورمانى من الغرام بأوجال

٢ — الدوبيت ، وهو مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه ، لأن (دو) بالفارسية معناها اثنان . وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ، ووزنه (فعلن متفاعلن فعولن فعلن) :

قد أقسم من أحبه بالبارى   أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشواقى به فاتقدى   ليلا فعساه يهتدى بالنار

٣ — القوما وقد اخترعه البغداديون الذين كانوا يوقظون الناس للسحور فى رمضان ، ولعله مأخوذ من قولهم (قوما نسحر قوما) ، ووزنه (مستفعلن فعلان) ، ولغته ملحونة ، ومنه قول بعضهم :

يا من جنابه شديد   ولطف رأيه سديد
ما زال برك يزيد   على أقـــل العبيد
ولا عدمنا نوالك   فى صوم وفطر وعيد

٤ — المواليا ، وهو فن لا تراعى فيه قوانين العربية دائما وهو على وزن البحر البسيط ، وأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد أن نكبهم الرشيد وأمر ألا يرثوا بالشعر ، فرثتهم جارية بهذا الوزن ، وأخذ صنائعهم ينوحون عليهم به ، ويكثرون من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الإسم ، وهو مشهور بين عامة مصر بالموالى . وهو على أنواع ، فقد يجىء مصرعا كله ، وقد يختلف مصراع منه ، وقد يخالف بين مصاريعه ، على ما نراه فى المواويل البلدية :

يا عبد ابكى على فعل المعاصى ونوح   هم فين جدودك أبوك آدم وبعده نوح
دنيا غرورة تجى لك فى صفة مركب   ترمى حمولها على شط البحور وتروح

٥ — كان وكان ، وهو من اختراع البغداديين لنظم الحكايات والخرافات ثم استعمل فيما بعد للنصيحة والوعظ بحكاية ما كان وكان :

قم يا مقصر تضرع   قبل أن يقولوا كان وكان
للبر تجرى الجـــوارى   فى البحر كالأعلام

٦ — أما الموشح فهو أندلسى النشأة ، أول من ابتدعه هناك مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث ، ثم انتقل إلى المشرق بعد ذلك ، فهو إذن ليس من مستحدثات عصرنا الذى

ندرسه ، وهم ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعـــدد منها بيتا ، ويلتزمون قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ماتنتهى إلى سبعة أبيات (١) وأوزانه كثيرة ، منها (مستفعلن فاعلن فعيل) :

ياجيرة الأبرق اليمان   هل لى إلى وصلكم سبيل

ومنها (فاعلاتن فاعلن مستفعل فاعلن) :

كللى . . . . . ياسحب تيجان الربا بالحلى

واجعلى . . . . . سوارك منعطف الجدول

٧ — وكذلك الزجل ليس من مخترعات هذا العصر ، فإنه نشأ بعد نضج الموشحات ، إذ أخذ أهل الأمصار ينسجون على منوالها بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب ، وسموا هـذا النوع الزجل ، وأول من أبدع فيه ابن قزمان الأندلسى ، ولاحصر لأوزانه ، حتى قيل : صاحب ألف وزن ليس بزجال :

الفراق نار والوصال جنـة   والخلايق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقـــد   والوصال م الملاح يشتق

٣ — ولقد تبع بعض هذه الأوزان ـ كما رأينا ـ تغيير طرأ على القافية فلم تعد تلتزم كما كان معروفا من قبل ، بل دعاهم الإفلات من قيود الوزن ، إلى الإفلات كذلك من قيود القافية . على أن من أظهر ماطرأ على القافية هو المسمط والمزدوج والمخمس .

١ — فالمسمط أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة

---

(١) المقدمة لابن خلدون .

على غير قافيته ، ثم يعيد قسيما على قافية البيت الأول ، وهكذا . وربما خلا من البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة . ومنه :

غزال هاج لى شجنا فبت مكابداً حزناً عميد القلب مرتهناً
بذكر اللهو والطرب
سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل
ثقيل روادف الحقب

٢ — والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ، ثم من آخرين من أخرى ، وهكذا ، كقول أبى العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا
ما انتفع المرء بمثل عقله	وخير ذخر المرء حسن فعله
مازالت الدنيا لنا أذى	ممزوجة الصفو بأنواع القذى
إن الشباب حجة التصابى	روائح الجنة فى الشباب

وهذه المزدوجة لأبى العتاهية تسمى ذات الأمثال ، وله فيها أربعة آلاف مثل .

٣ — والمخمس أن يؤتى بخمسة أقسام كلها من وزن واحد ، وخامسها بقافية مخالفة الأربعة قبله ، ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية للأربعة الأولى ، ويتحد القسيم الخامس مع خامس الأولى فى القافية :

ورقيب يردد اللحظ ردا ليس يرضى سوى ازديادى بعدا
ساحر الطرف مذ جنى الخد وردا إن يوما لناظرى قد تبدى
فتملا من حسنه تكحيلا
وتصد من لحظه فى استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق
أيأس العين من لحاظ اعتناق قال جفنى لصنوه : لا تلاق
إن بينى وبين لقياك ميلا

أخيلة الشعر ومعانيه فى هذا العصر

أثرت الحضارة بنوعيها : المادى ، والعقلى ، فى أخيلة الشعر ومعانيه فى هذا العصر تأثيراً بالغا .

١ — فأما تأثير الحضارة المادية فيهما فى هذا العصر فإنه قد وجد الشعراء فى مختلف مظاهر الحضارة المادية ، مادة لا تنقطع ، ومدداً لا ينفد . وذخراً لا ينتهى ، ومعينا لا ينضب . فتنوعت معانيهـــم ، واتسعت أفـكارهم ، وانفسح مجال أخيلتهم (١) ، وجادت تشبيهاتهم واستعاراتهم ، ولا بدع فهم يعيشون فى مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتعمر بفنون البهجة والبذخ ، وتزخر بمختلف المشاهد والصور ، وتـكتظ بمجالى الطرف والسمر وتشرق بمغانى اللهو والغزل والمجون . . ذلك إلى طبيعـة جميلة مزدهرة الرياض مترقرقة الجداول ، هاتفة الأطيار ، عاطرة الأجواء :

هـذه الحضارة المادية خليقة بأن تفتق أكمام القريحة ، وتفجر ينبوع الشاعرية ، عسية أن تفتح مغالق الفـكر ، وتفسح مجال الخيال ، جديرة بأن تذكى الإحساس بالحياة ، وتنمى الشعور بالجمال .. وإنما تستمد التشبيهات

---

(١) للخيال شأن كبير فى الأعمـال العقلية وفى الحياة العملية نفسها ، فهو خطوة أولى أرقى من الإدراك الحسى ، ومن مجرد التذكر نفسه ، فالتخيل يعين على استغلال الماضى للمستقبل ، ولولاه لأصبحت الحياة فقيرة كل الفقر . ولـكانت حياة الإنسان النفسية ضئيلة محدودة ، فهو الأصل فى تـكوين المثل العليا ، وهو الذى يعيننا على فهم الحقائق والفنون .

وتبدو صور الخيـال الشعرى فى : التشبيه والمجاز والـكناية وحسن التعليل والمبالغة وما أشبه ذلك .

من المشاهد ، وتتجدد بتجدد المناظر ، وتتعدد بتعدد الصور ، وإنما يحلق الخيال حين يتهيأ له الأفق الرحب، وينطلق حيث يغريه الفضاء الفسيح الجميل .
اقرأ أثر الحضارة فى التشبيه والخيال عند البحترى وهو يصف الحسان :

لما مشين بذى الأراك تشابهت   أعطاف قضبان به وقدود
فى حلتى حبر وروض فالتقى   وشيان : وشى ربا ووشى برود
وسفرن فامتلأت عيون راقها   وردان : ورد جنى وورد خدود
وضحكن فاغترف الأقاحى من ندى   غض وسلسال الرضاب برود(١)

واقرأ وصف أبى نواس للعب بالصولجان والكرة :

جن على جن وإن كانوا بشر   كأنما خيطوا عليها بالإبر
أو سمر الفارس فيها فانسمر   بين رياض مثل موشى الحبر
مكللات ببهار وزهر   فانتدبوا فى يوم قر وخصر(٢)
إذ ذر قرن الشمس فى غب مطر   صوالجاً يصبو إليها من نظر
فلم يعب طول ولا شان قصر   وقد تنادوا فتراموا بالأكر
أحكمها صانعها لما فطر   ألطف بالإشفاء خرزاً إذ دسر(٣)
فليس للإشفاء بالجلد أثر   يحسبن تفاحا تدلى من شجر

وأبو نواس هو الذى ألبس الدمن ثوب الحضارة فقال :

لمن دمن تزداد حسن رسوم   على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما   لبسن على الأقواء ثوب نعيم

ولقد كان القدماء يشبهون الحلم بالجبال ويزنونه بها :

---

(١) أى لما ضحكن ظهرت أسنانهن كالأقحوان وقد امتلأ بالندى ، ندى الأسنان وريقها .

(٢) القر : البرد . وكذا الخصر .

(٣) فطر ، شق . الأشفاء . مخرز يثقب به . ودسر . ثقب وطعن .

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جنا إذا مانجهل

ولكن المتحضر غير البدوى، والحلم فى بغداد وفى القرن الثالث الهجرى غير الحلم فى البصرة وفى القرن الأول : فالحليم الحضرى هو الذى يبتسم لكبار الحوادث ، ويتحدث عنها حديثاً يفيض رقة وظرفاً ، حتى كأنه برد رقيق الحواشى ، كهذا البرد الذى استعاره أبو تمام المتحضر للحلم الحضرى، حيث يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه ... بكفيك ماماريت فى أنه برد(١)

وهكذا تعمل الحضارة المادية عملها فى تنويع التشبيه ، وتعدد الاستعارة وتجدد المعنى واختراعه ، وسمو الخيال وإبداعه .

٢ - وأما الحضارة العقلية التى أتيحت للشعراء العباسيين ، والتى كانت نتيجة الاختلاط والامتزاج ، والتأثر بمختلف الثقافات . فقد أثرت أثرها البالغ فى معانى الشعر وأخيلته ، إذ أكسبتها ماامتازت به العقليات الأجنبية من عمق التفكير ، وبراعة التحليل ، وكثرة الاستطراد ، واستيعاب المعانى ، وترتيب الأفكار ، وظهر أثر اللقاح واضحاً جلياً فيها ، من حيث الدقة والعمق ، والتحليل والتفصيل ، والابتكار والتجديد ، والترتيب والتنسيق ، والتأثر بالمنطق وأقيسته ، والفلسفة وآرائها .

وهكذا جددت الحضارة المادية والعقلية من الشعر ، فأمدته بالخيال الخصب ، والفكر العميق . والمعنى الدقيق ، ولونته بألوان زاهية كثيرة من التشبيه والاستعارة ، وصبغته بأصباغ طريفة جديدة من الثقافة والفلسفة ، ومزجته بحكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان .

ولهذا جاء الشعراء العباسيون بالمرقص المطرب ، الذى يهز المشاعر ،

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين (من حديث الشعر والنثر) .

ويطير بالقلوب حتى قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ .

فإن كان المتقدمون قد استقلوا بصحة الأداء ومتانة التعبير وحجة القول فإن للمحدثين فضل المعنى الجيد ، والخيال المحلق ، والفكر المنسق .

وسوف نعرض بشىء من التفصيل لأهم ماطرأ على معانى الشعر وأخيلته ، من مظاهر التأثر بهذه الحضارة وألوانها المختلفة :

١ — التجديد فى المعانى القديمة : فقد تناول الشعراء العباسيون معانى السابقين ، فتصرفوا فيها بما توحيه بيئتهم وحضارتهم ، ومايمليه تفكيرهم وثقافتهم ، وحوروا فيها بالزيادة والنقص ، والإيجاز والاطناب والإجمال والتفصيل والتوليد والتحليل والدقة والاستدراك ، حتى صبغوها بصبغتهم وألبسوها ثوب الجدة والطرافة ، فبدت جديدة كأنها من صنعهم ، طريفة كأنها من اختراعهم ، وبهذا سبقوا الأولين ، وبذوهم فى مضمار التنافس والسباق .

يصف النابغة قدرة النعمان ، ويبين أنه لامنجى منه ولا عاصم ، فيقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فيجد الشاعر العباسى أن الليل والنهار يتساويان فيما يدركان ، وأنه كان ينبغى أن يأتى النابغة بما لا قسيم له ، حتى يأتى بمعنى مفرد ، وهكذا يقول سلم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لاملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية مافاتك الطلب

ويقول البحترى :

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

وكان الفرزدق يقول فى ناقته :

علام تلفتين وأنت تحتى   وخير الناس كلهمو أمامى
متى تأتى الرصافة تستريحى   من الأنساع والدبر الدوامى (١)

فيجعل جزاءها على بلوغ الممدوح أن يريحها من الأنساع والدبر ، أما أبو نواس فإنه يسخو فى الجزاء سروراً بلقاء الممدوح ، فيطلق راحلته ، ويحرم ظهرها على الركاب ، ويخلع على المعنى بعد ذلك رداء رقيقاً شفافاً من اللفظ والأسلوب :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً   فظهورهن على الرجال حرام

وكان الشعراء من قديم يصفون ممدوحيهم بالبأس والظفر فى القتال ، ويتخيلون أن الطير قد ألفت ظفرهم حتى إنها لتتبعهم فى كل غزاة ، وتحلق فوقهم فى كل ميدان ، ثقة منها بأنها ستغدو معهم خماصاً وتروح بطاناً من لحوم الأعداء ، قال الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارنا   رأى عين ثقة أن ستمار

وقال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله   إذا ما التقى الجمعان أول غالب

فقال أبو نواس :

تتأيى الطـــير غزوته   ثقة بالشبع من جزره (٢)

فكان فى إيجازه أبلغ مدحاً وأدق معنى . إذ صرح بأن شبعها سيكون

---

(١) الأنساع : جمع نسع وهو سير يشد به الرحل . والدبر بفتحتين : قرح الدابة جمع دبرة .

(٢) تتأيى : تنتظر . الجزر بالتحريك اللحم أو قطعه .

من لحم أعدائه بقوله (من جزره) ثم إنه لم يكتف بتحليقها وقت الغزوة ، بل جعلها تتأبى الغزو وتتبعه ، أما مسلم بن الوليد فإنه جعل ممدوحه يعود الطير الشبع ، إنها لتتبعه فى كل رحلة ولو لم تكن رحلة حرب :

قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه فى كل مرتحل

ويجىء أبو تمام فيفصل هذا التفصيل .

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها ... من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فجعلها تنهل فى الدماء ، وتقيم مع الرايات ، وإن لم تقاتل ، وهذه زيادات لابد أن تقع فى ذهن شاعر كأبى تمام يحلل ويستوعب .

وكان جرير يقول :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهمو غضابا

فقال أبو نواس :

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

فجعل ممدوحه الفرد العالم كله ، على حين جعل جرير القبيلة هى الناس كلهم ، على أن العالم أشمل وأعم من الناس ، وهكذا يكون بيت أبى نواس أبلغ وأعم وأبعد فى المبالغة ، إلى أنه سيق مساق الحكم والكلمات الجامعة .

ولقد قال المعذل بن غيلان قديماً .

ولست بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

فجاء أبو تمام وقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ... ولو برزت فى زى عذراء ناهد

فزاد فى تصوير الدنيا وإغراء الغنى قوله : «ولو برزت ...» فجدد

بذلك المعنى ، حتى كاد يستبد به ، وهكذا تحس بجدة القديم ، وطرافة التليد ، وتشعر بحسن تصرف العباسيين فى المعانى القديمة ، حتى ليكادون يستقلون بها ، ويستبدون بنسبتها .

٢ — ابتكار المعانى ودقتها : أما المعانى الجديدة التى ابتكروها ابتكاراً واستنبطوها استنباطاً ، وخلقوها خلقاً ، فإنها تعيي الحصر ، وتفوق العد . ولا بدع فقد كثرت بكثرة المشاهدات ، وتعددت بتعدد المناظر ، وتنوعت بتنوع الحضارة ، وتلونت بألوان الثقافة . فكل ماجد فى حياة الشعراء من طبيعة متبرجة ، وحضارة زاهرة ، ومدنية وارفة ، وعادات طارئة ؛ ألهمهم جديد المعنى ، ومبتكر الخيال وكل ماوقع فى أفكارهم من ثقافة وحكمة وفلسفة أكسبهم استقصاء المعانى فى دقة وعمق تفكير ، ولهذا زخر شعرهم وامتلأ أدبهم بكل جديد دقيق .

ألا ترى أبا تمام كيف يجعل عطايا الممدوح فى حاجة إلى تعويذة ؟ وما تعويذتها ؟ إنها نغمة الطالب ، وسؤال السائل :

تكاد عطاياه يجن جنونها   إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وهل كنت تسمع بعشق الأذن قبل بشار ! :

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا : بمن لا ترى تهذى فقلت لهم   الأذن كالعين توفى القلب ماكانا

وما رأيك فى هذا التشبيه الجديد : أبو نواس يمدح الخمر ولا يشربها خوفا من الخليفة ، كقعدى الخوارج ، يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح ؟

فكأنى بما أزين منها   قعدى يزين التحكيما

كل عن حمله السلاح إلى الحر   ب فأوصى المطيق ألا يقيما

ويقول أبو تمام فى فضل الحاسد على المحسود :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

ويصف أبو نواس كؤوس الصهباء ، فيبعث النشوة فى نفوس سامعيه :

فى كؤوس كأنهن نجوم ... دائرات بروجها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا ... فإذا ماغربن يغربن فينا

وهذا مسلم بن الوليد يستحسن إساءة الواشى ، فيأتى بجديد ، ويغرب فى التفكير :

ياواشياً حسنت فينا إساءته ... نجى حذارك إنسانى من الغرق

ولاغرو فهو صاحب المعنى الدقيق والفكر الطريف ، أليس هو القائل :

أما الهجاء فدق عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وأخيراً يقول ابن الرومى :

نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ... ثم انثنت عنه فظل يهيم
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضت ... وقع السهام ونزعهن أليم

٣ — استقصاء المعانى وتحليلها : ويتصل بهذه الدقة فى معانى الشعر العباسى ، تحليل المعنى وشرحه وتفصيله ، واستقصاء كل مايتصل به ، واستيفاء عناصره وألوانه وظلاله ، حتى كان هذا الاستقصاء يضطر الشعراء إلى الاستطراد ، ومن هنا طالت أنفاسهم فى القصائد طولا يلفت النظر ، ويدعو إلى العجب . وليس ذلك إلا من أثر الثقافة والفلسفة واتساع الأفكار ، وتتابع المعانى بتتابع الصور والمشاهدات :

ولقد مرت بنا — وستأتى — أمثلة ، استوفى الشاعر فيها المعنى بتحليله واستيفاء عناصره ، وهذا مثل لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، يتجلى فيه المعنى الجديد الدقيق المفصل :

أخاف عليها العين من طول وصلها ... فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملامة ... ولكننى أملت عاقبة الصبر
أفكر فى قلبى بأى عقوبة ... أعاقبه فيها ارضى فما أدرى
سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر
فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وكان يكفى أبا تمام أن يكذب المنجمين الذين قالوا : إن المعتصم لا يفتح عمورية ، فيقول : إن السيف أصدق من الكتب والمنجمين ، ولكنه أخذ يشرح ويحلل على هذا النحو :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وهكذا كانوا يشبعون المعنى ، ويحللونه ويفصلونه ، ويحتجون بالبراهين والأدلة ، ويعرضونه فى صور مختلفة ، ومعارض متعددة ، ويقلبونه على كل وجه ، ويسلكون به كل سبيل . وذلك كله بفضل ما أمدتهم به الفلسفة والعلوم العقلية من قدرة على التفسير والتحليل ، وما أسعفتهم به الحضارة من وفرة المعانى والأفكار .

ومازالت هذه الظاهرة تشيع وتتسع حتى بلغت نهايتها — وقد تم التأثر بالثقافة والحضارة — فى أواخر هذا العصر . فرأينا قصائد الشعراء تطول طولا عجيبا ، بسبب هذا التحليل والتفصيل ، وإشباع المعانى بالأدلة ، وعرضها فى مختلف الصور ، وحسبك أن تقرأ قصائد ابن الرومى لترى كيف استقرت هذه الظاهرة فى شعره .

قال يحسن الحقد ويزكيه :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع ... من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة ... ورب امرىء يزرى على خلق محض

ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها بل العيب أن تدّان دينا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض

٤ — قوة التصوير وبعد الخيال : وقد وجد الشعراء فى الحضارة المادية ينبوعا ثجاجا للصور ، وأفقاً فسيحا للخيال ، وأعانتهم الحضارة العقلية بأفكارها العميقة ، وخيالاتها المبدعة ، وتصاويرها الفنية ، على أن يأتوا بكل عجيب يبهر ببراعة الوصف ، ويسحر بروعة التصوير ، ويطير بالألباب فى مطارح الخيال .

يقول بشار فى وصف الجيش والقتال وهو أعمى :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطى حمر ثعالبه(١)
غدونا له والشمس فى خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

واقرا هذه الصورة الرائعة للهيبة من جلال الممدوح ، التى صورها البحترى فاستوفى كل عناصر الإجلال والجلال ، وجمع كل الوان العظمة والمجد ، إذ صور الحجاب يقومون على سدة الممدوح ، فلا يدخلون أحدا إلا بإذن ، فلما أذن له ودخل ، لم يدر كيف دخل ، لما طالعه من هيبة ،

---

(١) الحصى : العدد الكثير ، الشوك جمع شوكة : السلاح ، الخطى : الرمح ، الثعلب طرف الرمح .

وغمره من جلال ، فانعقد لسانه وبهر جنانه ، ولا ينطقه إلا ما آنسه من بشاشة الممدوح ، وتهلل أساريره ، وحينئذ دنا فقبل يده ، بل قبل الندى في يده ، بل في يد امرىء كريم محياه ، سباط أنامله :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال من الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وسلمت فاعتاقت جناني هيبة تنازعني القول الذي أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى إلى ببشر آنستني مخايله
دنوت فقبلت الندى في يد امرىء كريم محياه سباط أنامله

وسنقرأ كثيراً من وصف البحترى الذي تتجلى فيه البراعة وروعة التصوير ، فلنرجع إلى بشار لنرى تصويره لفؤاد المضطرب وعين الساهر :

كأن فؤاده كرة ترامى حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

ونترك هذه الصور الواضحة مع ما فيها من براعة الوصف ، وسمو الخيال ، ونتزود منها بوصف البحترى لؤلؤ الثغر ولؤلؤ الحديث :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رائي الدر حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

إلى أبي تمام حيث يمثل مذهب الغموض في الصور ، والإغراق في التصوير ، والشرود في الخيال ، وحيث تطالعنا في شعره تلك الأشباح المتجهمة والصور القاتمة ، على ما فيها من سحر تصوير ، وتهاويل خيال .

ولا بدع فأبو تمام يتنفس الدم في معانيه ، لأنه غرق في الفلسفة إلى أذنيه وكان أكثر الشعراء تأثراً بها . ولئن كان البحترى قد تتلمذ عليه فإن طبيعته البدوية لم تسغ هذه الفلسفات العميقة ، ومن ثم وقف تأثره به عند

الجوانب الظاهرة لقد برع الشعراء العباسيون فى التصوير وتجسيم الخيال، وإلباس المعنويات ثوب الحسيات ، وإنطاق الطبيعة والجماد ، حتى لترى الروض يتحدث ، والجماد يتحرك . ولكن أبا تمام أوغل فى ذلك التجسيم ، ولم يكتف بذلك ، بل ركب فى الصور ، ومزج بين الاستعارات . فالصورة تعتمد على صورة ، والاستعارة تتكىء على استعارة ، وكل ذلك يلتف على ما كان يولع به من جناس وطباق ونحو ذلك من ألوان التصنيع ، حتى جلل الغموض معظم صوره .

قال يصف السحاب ويخلع عليه صفات الأحياء :

سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا	يداً قالت الدنيا أتى قاتل المحل
إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الندى	له تبعا أو يرتدى الروض بالبقل
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت	بطون الثرى منه وشيكا على حمل

وقال يصف روضا :

ومعرس للغيث تخفق فوقه	رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفاً	لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى	وانحل فيه خيط كل سماء

فقد عبر عن السحب التى يتلألأ البرق فى أطرافها بالرايات المطرزة التى تخفق بالريح . ولكن ما هذه الصورة المركبة فى الشطر الأول من البيت الثالث ؟ أما مسك الطل فهو رائحة الروض العطرية التى تكون بعد الطل ، وأما كافور الندى فهو الرشاش الذى يكون على أوراق الروض كالكافور ، إنها صورة معقدة على كل حال .

وانظر كيف يعطى لصوره ألوانا حسية ملموسة :

كأن سواد الليل ثم اخضراره	طيالسة سود لها كفف خضر
، لا تبعدن أبداً وإن تبعد فما	أخلاقك الخضر الربى بأباعد

،نضى ضوؤها صبغ الدجنة فانطوى لبهجتها ثوب الظلام المجزع
،راحت غوانى الحى عنك غوانيا يلبسن نأيا تارة وصدودا

واقرأ هذا التشخيص :

حتى إذا اسود الزمان توضحوا فيه فغودر وهو فيهم أبلق
، لدى ملك من أيكة الجود لم يزل على كبد المعروف من فعله برد
،سلوت إن كنت أدرى ما تقول إذن جعلت أنمله الأحزان فى أذنى
، تطل الطلول الدمع فى كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل
، دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولا مر فى أغفالها وهو غافل

وأخيرا يقول فى وصف الربيع :

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشى خده الترب
فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل فى ضحى شحب

فإذا انتهينا إلى آخر هذا العصر ، وجدنا فن التصوير الشعرى يستكمل كل أدواته وأصباغه ، ورأينا الشاعر يتخير لموضوعه ما يناسبه من المرائى المتعددة والمشاهد المتتابعة ، التى تمر أمام ناظره ، ورأينا الحضارة وقد صقلت حسه ، وفتقت ذهنه . والثقافة وقد أورثته الدقة وعمق التفكير ، حتى نرى فنه قد استوى واستكمل عناصره . وهذا ابن الرومى يسلط عدسة تصويره على أحدب ، فلا يترك عنصراً ولا يدع لوناً أو ظلا ، وإنما يستوفى كل ذلك حتى تخرج الصورة ناطقة واضحة ، فعنق الأحدب قصير لقصر أخدعه أى عرقه ، ومؤخر رأسه غائب وغائص بين كتفيه ، وهو متوقع أن يصفع ، وذلك مما يزيد فى انكماشه خوفا من الصفع بل كأنه صفع قبل ذلك ، فذاق ألم الصفع فهو لذلك أشد انكماشا :

قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

أرأيت إلى هذه الصورة الناطقة ؟ . . . إنه فن التصوير عند ابن الرومى ، اقرأ تصويره لمغن قبيح الصوت :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا ... عند التنغم فكى بغل طحان

وتصويره للبخيل :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

٥ — التأثر بالفلسفة والثقافات المختلفة : ومن الظواهر التى نلاحظها فى الشعر العباسى تأثره فى معانيه بالأفكار الفلسفية العميقة ، والثقافات المتنوعة التى اصطبغ بها هذا العصر ، ولو ذهبنا نتتبع هذه الظواهر لطال بنا البحث ، وتشعبت مسالكه ، فحسبنا أن نعرض بعضها الآن : يقول أبو تمام :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى ... تنص من الإلهام خلناك ملهما

والجعفرية قوم من الشيعة ينسبون إلى جعفر بن محمد ويدعون له الإلهام .

ويقول أبو نواس متأثراً بالثقافة الهندية التى عمادها النجوم والرياضة ، فى وصف الخمر :

تخيرت والنجوم وقف ... لم يتمكن بها المدار

يريد أنها تخيرت حين خلق الله الفلك ، وأصحاب الحساب والنجوم يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة فى برج ، ثم سيرها من هناك . ويقول :

قل لزهير إذا حدا وشدا ... أقلل وأكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى ... صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتي ... كذلك الثلج بارد حار

والهند يزعمون أن الشيء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً .

وكان تأثير الثقافة الفارسية واضحا فى الحكم الكثيرة التى كانت تنقل عن الفرس ، حتى ليقال إنه اجتمع فى ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم ، كما كان تأثيرها جلياً فى الصور والأخيلة الدقيقة ، إذ كان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، على نحو ما ذكروا من أن كسرى كان يقول فى وصف النرجس : إنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر ، فنظم ذلك شاعر عباسى ، وقال :

ويا قوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

ويقول أبو العتاهية فى الزهد والحكم :

ياعجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر
عجبت للإنسان فى فخره وهو غداً فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

أما الثقافة اليونانية فهى أعمق أثراً ، وأوسع مدى فى معانى الشعر . لما امتازت به من الدقة والعمق والتحليل : فهذا نوع من الغزل الواهم يتأثر فيه الحسين بن الضحاك بعناصر أفلاطونية ، وتظهر فيه الصياغة الذهنية :

إن من لا أرى وليس يرانى نصب عينى ممثل بالأمانى
بأبى من ضميره وضميرى أبداً بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرنا وروحا ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ماهممت بالأمر أو هم بشىء بدأته وبدانى

كان وفقاً ماكان منه ومنى   فكأنى حكيته وحكانى

ويقول أبو نواس فى الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها   بقايا يقين كاد يذهبه الشك

ويقول :

صفت وصفت زجاجتها عليها   كمعنى دق فى ذهن لطيف

ولقد حكى الآمدى أن بعض نقدة الشعر سمع قول العباس بن الأحنف:

وصالكمو هجر وحبكمو قلى   وعطفكمو صد وسلمكمو حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة   وكل ذلول من مراكبكم صعب

فقال : هذا والله أحسن من تقسيمات إقليدس (١) : ويقسم بشار العى على هذا النحو :

وعى الفعال كعى المقال   وفى الصمت عى كعى الكلم

وتستمر فى هذا التتبع ، فتجد الفلسفة بغموضها وعمقها وتناقضها تسرى إلى المعانى ، فتجمع بين المتنافر ، وتؤلف بين الأضداد ، وتأتى بالغريب العجيب . كيف يهلك الشيء نفسه ؟ . يقول أبو تمام :

صيغت له شيمة غراء من ذهب   لكنها أهلك الأشياء للذهب

وماذا تنتظر من أبى تمام إلا أن يجعل النور مظلماً ، والظلام منيراً ، والصحو مطراً . والمطر صحواً :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى   نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم
مطر يذوب الصحو منه وبعده   صحو يكاد من النضارة يمطر

---

(١) اليتيمة ١ : ١٦٦

إنه أبو تمام الذى يجمع بين المتنافرات ، ويأتى بالمعنى الغريب غير المألوف ، ثم يفرغ هذا الفن الفلسفى فى أوعية البديع .

ويقول بشار :

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو   ف ولكن يلذ طعم العطاء

فتجد فكرة طريفة وقعت فى ذهن الشاعر العباسى ، إذ يجعل العطاء بدون غاية مألوفة .

٦ — استخدام البراهين العقلية وحسن التعليل : وكأنهم أحسوا بهذه الغرابة غير المألوفة ، وهم فى مجتمع يموج بالحوار والنقاش ، فاحتاجوا إلى البراهين العقلية ، والأقيسة المنطقية ، يدعمون بها المعنى الغريب العميق ، ويقربونه إلى المألوف .

قال بشار يشرح الإغضاء عن هفوات الصديق ، ويبرهن على خطأ تتبعها :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا   صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه   مقارف ذنب تارة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وكان أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم ، حتى قال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال بعض الحاضرين : الأمير فوق من وصفت : فارتجل أبو تمام هذا الدليل :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وأبو تمام هو الذى يقول :

وطول مقام المرء في الحى مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقول :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

ويقول البحترى :

دنوت تواضعاً وعلوت مجدا ... فشـأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

ويقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها ... خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى ... طوالع فى داج من الليل غيهب

ولهذا شاع فى شعرهم حسن التعليل ، وكثر فى أدبهم كثرة ظاهرة .

قال أبو تمام :

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ ... دى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعد اخضرار ... قبل روض الوهاد روض الروابى

ويقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

وتطرد هذه الظاهرة ، حتى نرى الشعراء يكلفون بها تبعاً لكلفهم بتحليل المعانى وشرحها ، فنجد ابن الرومى يطلع علينا بمعنى جديد ، إذ يجعل الإسهاب فى الثناء والمدح هجاء للممدوح ويعلل ذلك أحسن تعليل ، ويفسره بأن المادح يرى أنه لا ينتزع عطاء ممدوحه بسهولة لبخله ، بل لا بد من أن يطيل الأسباب ليصل إليه ، كما يطيل الحبل إذا استقى من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرء لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

ووجدناه يقول :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد

٧ — كثرة الحكم والأمثال : وقد شاعت الحكم والأمثال فى شعرهم ، اقتباساً مما ترجم عن الفرس ، أو من الثقافات الأخرى ، أو ابتكاراً واختراعاً واستنباطاً ، وقد كان فى شعر صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعرب ومثلها للعجم كما قلنا ، وكان لأبى العتاهية أرجوزة بها أربعة آلاف حكمة .

قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

٨ — المبالغة والتهويل : وهى ظاهرة تشيع فى شعر المولدين ممن خالطوا الفرس أو نبتوا من أصول فارسية ، وللفرس غرام بالمبالغة وولع بالتهويل والاغراق ، وقد كان لشعرائهم ورجالاتهم فى هذا العصر مقام كبير لدى

الخلفاء ونفوذ عظيم ؛ دفعا الشعراء الآخرين إلى محاكاتهم والتأثر بهم فانساق الجميع إلى المبالغة ، وأكثروا منها فى المدح بنوع خاص ، طمعاً فى جزيل الهبات ، وسنى الجوائز .

وينبغى ألا نغفل سبباً آخر ساعد على المبالغة والغلو ، ذلك هو تزاحم المعانى وتفتح آفاقها بتأثير الحضارة ، واتساع مناحى التفكير بتأثير الثقافة والفلسفة ؛ وتسابق الشعراء وتنافسهم فى ميدان الحظوة والعطاء .

على أن هذه الظاهرة قد ظلت محتفظة بشىء من التعقل والاتزان ، حتى كان العصر التالى ، فجانبت كل إمكان ، وجافت كل مألوف ، واندفع فى تيارها جميع الشعراء .

وكان خلفاء هذا العصر يشجعون على المبالغة ، ولا يطربهم إلا التهويل ، وقد مر بنا أن الشعراء لما اجتمعوا بباب المعتصم لم يقبل منهم إلا من يحسن أن يقول كما قال منصور النمرى فى الرشيد .

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع . . الخ

فقام محمد بن وهيب وأنشد قصيدته :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

وفيها يقول :

فالخلق جسم له رأس يدبره ... وأنت جارحتاه : السمع والبصر

واقرأ وصف أبى تمام للمعتصم يوم عمورية ، واعجب واطرب لهذه المبالغة : جيش من الرعب يتقدمه إلى الأعداء فيفزعهم ، ونفسه وحدها جيش يغنيه عن قيادة الجيوش :

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها فى جحفل لجب

ولكنها مبالغة معقولة ، فكم من بطل نصر بالرعب ، وغزا بقوة الروح وبسالة العزيمة ، ويقول البحترى فى المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما　　فى وسعه لسعى إليك المنبر

فتجد مبالغة ولكنها فى حدود الإمكان ، ويقول أبو نواس فى الهجاء :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى　　وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يبينها المعتفى بفنائهم　　ثلاث كنقط الثاء من نقط الحبر (١)
إذا ماتنادوا بالرحيل سعى بها　　أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جئتها ملآ عبيطاً جزورها　　لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويقول بشار الضخم :

إن فى بردى جسما ناحلا　　لو توكأت عليه لانهدم

ومهما يكن من شىء فإن هذه المبالغات أهون وأيسر من المبالغات التى ظهرت فيما بعد فى شعر المتنبى وغيره .

٩ — تمحيص الأفكار وترتيبها: وأخيرا لقد تهيأ لشعراء هذا العصر من أسباب الحضارة وألوان الثقافة وعمق الفلسفة ودقة المنطق ، مانمى أذواقهم ورقق إحساسهم ، وهذب أفكارهم ، ونسق معانيهم ، فجاءت أفكارهم ممحصة ، وعناصرهم منظمة ، ومعانيهم متسقة مرتبة . نقرأ قصائدهم فلا نجد نبوا فى الفكرة ، ولا خللا فى المعنى ، ولا اقتضابا فى الغرض ، ولا اضطرابا فى السياق ، وإنما نجد القصيدة بناء واحدا وهيكلا سليما ، وموضوعا متلاحم النسج ، مرتب العناصر .

وقد قرأت وستقرأ كثيرا من القصائد ، يتبين لك فيها حسن الربط بين

---

(١) يريد أن القدر صغيرة جداً حتى إن حواملها الثلاث كنقط الثاء .

المعانى لكثرتها عندهم ، وصدورها عن فكر مرتب وخيال مهذب . كما يتجلى لك فيها التمحيص والتهذيب من شغفهم بالغوص على المعانى واستيفاء عناصرها وترتيب نتائجها على مقدماتها . وهنا تتجلى براعتهم فى الانتقال من غرض إلى غرض ، بما يسمى « حسن التخلص » وهو يعتمد خلق المناسبة بين المعنيين ، وإيجاد الصلة بين الغرضين ، حتى يوحد بينهما فى رفق ولطف ودقة ، فلا يكون بينهما شرود أو تقطع أو اقتضاب .

استهل أبو تمام قصيدته فى مدح المعتصم بوصف الربيع ، ثم تخلص إلى المدح هكذا :

خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الإمام وهديه المتنشر

وكان أبو نواس يقول :

تقول التى من بيتها خف مركبى ... يعز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ؟ ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى من جريهن غدير
دعينى أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيها الخصيب أمير
فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن النائبات تدور

وقال مسلم فى يحيى وجعفر :

أجدك هل تدرين كم رب ليلة ... كأن دجاها من قرونك تنشر
لهوت بها حتى تجلت بغرة ... كغرة يحيى حين يمدح جعفر

وقال البحترى :

رياض تردت بالنبات مجودة ... بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحتها مزنة بكرت لها ... شآبيب مجتاز عليها وقاصد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت ... عليها بتلك البارقات الرواعد

وكان من مظاهر ذلك : العناية بمطلع القصيدة ، وجعله مناسباً المقام ، مشيرا للمقصود ، كما فى قصيدة « عمورية » لأبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

والاهتمام كذلك بختامها ، وجعله مؤذناً بالفراغ ، شافياً للنفس ، متمما للمعنى ، على نحو قول الشاعر :

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله   وهـــذا دعاء للبرية شـامل

وإن كان ذلك لم يظهر بوضوح إلا بعد هذا العصر .

أغراض الشعر

إنما يستمد الشاعر موضوعاته من المجتمع الذى يكتنفه ، والأفق الذى يظله ، والبيئة التى تنشئه ، والعصر الذى يعيش فيه . ولا شك فى أن لكل بيئة مظاهر حياتها ، وظواهر طبيعتها، ولكل مجتمع أسلوب عيشه ، وطابع حياته ، ونظام تقاليده وعاداته ، ولكل عصر تأثيره فى حياة الناس وأذواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولهذا رأينا أغراض الشعر تختلف باختلاف البيئة ، وتتقلب بتقلب الأزمان ، وتتطور بتطور المجتمع ، وتتأثر بالحضارة أو البداوة ، بالجهل أو العرفان .

وفى العصر العباسى تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وتجددت أساليب العيش ، وتولدت بالاختلاط عادات ، وجدت فى المجتمع تقاليد . ولهذا رأينا أغراض الشعر تتجه اتجاهاً جديداً ، وتتخذ طابعاً يلائم ما يوحى به العصر من موضوعات :

١ — فهناك أغراض قديمة أصبحت لا تلائم أذواقهم ، ولا تتسق مع

مدنيتهم ، وقد وجدوا فى مشاهد الحضارة ومظاهر الحياة الجديدة ، ما يغنيهم عنها ولذلك هجروها ، بل سخروا منها كل السخرية . ومن هذه الأغراض : بكاء الديار ، ومناجاة الأطلال ، وتتبع الآثار ، ونعت الناقة ، ووصف الصحراء ، ونحو ذلك من مظاهر البادية . وإن كان بعض الشعراء قد ظل على وفائه للقديم ، ورأى أن القول فى هذه الموضوعات إبقاء على التراث العربى ، وحفظ لعمود القصيد .

ولقد رأينا حملة أبى نواس على هذه الموضوعات ، وسخريته منها ، وإحلاله وصف الخمر وإعلان محاسنها محلها . . وما زال سادراً فى نشوته وتعهره ، حتى حبسه الرشيد فأفاق على ذكر الأطلال ، وصحا على نعت القفار ، ولكنها صحوة مخمور يهذى ويسخر ، حيث يقول :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

٢ — وثمة أغراض جديدة لم تكن معروفة قبل هذا العصر ، وإنما خلقها الاختلاط بالأعاجم ، أو أوحت بها مشاهد الحياة والحضارة ، أو استحدثتها بعض المعارف والعلوم . وذلك كالغزل بالمذكر ، ووصف العذار ، والخوض فى الدعابة والمجون ، والرمى بالأبنة والذم بالرشوة ، وهجاء المغنين ، والتعصب لبعض أنواع الزهر . . . ثم نظم القصص (١) والحكايات ونظم قواعد العلوم من فقه وغيره ، فيما بعد .

---

(١) ومنها نظم أبان اللاحقى (٢٠٠ هـ) لكليلة ودمنة ، ويعد كليلة ودمنة من أدب القصص على لسان الحيوان وقد ترجم الكتاب ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ويذكر الجاحظ فى الحيوان الجزء السابع ماورد فى كليلة ودمنة من أمثال عن الفيل (٧ : ٩٢ الحيوان) .

٣ — أما الأغراض القديمة الأخرى كالمدح والهجاء والرثاء والغزل بالمؤنث ، والوصف والفخر ، والسياسية والزهد ، والحكمة والمثل ونحوها فقد أكثروا منها ، وتوسعوا فيها وطبعوها بطابع العصر والبيئة ، من التحليل والتفصيل ، والمبالغة والتهويل . وسوف نعرض لمختلف أغراض الشعر فى هذا العصر ...

الغزل

أما الغزل بالمؤنث فيكاد ـ مع أنه عرض قديم ـ يكون كله إباحياً فى هذا العصر ، وماذا ننتظر من مجتمع تشيع فيه مفاتن المدنية ، ومفاسد الحضارة ، وتنتشر مجالى اللهو والعبث والمجون ، إلا أن تستعر فيه الشهوات ، وتثور الغرائز ، وتتفتح مغالق الميول والنزوات ؟ لهذا كاد الغزل العذرى يموت إلا على بعض الألسنة كالعباس بن الأحنف . أما عامة الغزلين ، فقد تبذلوا فى وصف المرأة ، وتعهروا فى الحديث عنها ، وأمعنوا فى هتك حجاب العفة ، وأفحشوا فى تناول العورة ، وأعلنوا كل سر ، وكشفوا كل مستور ، وأذاعوا كل سوأة . ألم يقل بشار :

أمتى بدد هــــذا نقبى   ووشاحى حله حتى انتثر
فدعينى معــــه يا أمتا   علناً فى خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها   واعتراها كجنون مستعر
بأبى والله ما أحسنه   دمع عين يغسل الكحل قطر

والغزل من أهم أبواب الشعر ، وكان يفتتح به القصيد ، اللهم إلا فى القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بوصف الراح ، وكأبى نواس الذى دعا إلى افتتاح القصائد بذكر الراح :

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه فى ذلك ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمأل

شهر امرؤ القيس فى العصر الجاهلى بغزله واستهتاره ودبيبه ، وفى العصر الأموى عاش شعراء وقفوا حياتهم وشعرهم على الغزل وحده ، فهم موكلون بالجمال يتبعونه ويصفونه ويتغزلون به ، كعمر (٢٣ - ٩٣)، وجميل وقيس بن ذريح وسواهم . وفى العصر العباسى اشتهر بشار بالغزل ، وكذلك العباس بن الأحنف(١) ، ولحمدان بن أبان اللاحقى قصيدة طويلة فى وصف الحب (٢) ، وكان البحترى أرق الناس نسيبا وأملحهم طريقة لاسيما إن ذكر الطيف وهو الباب الذى اشتهر به ، ولم يكن لأبى تمام حلاوة توجب له حسن التغزل وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير فى خلال القصائد (٣) .

وأسلوب الغزل يمتاز بجماله وسلاسته وعذوبته مما لا يصلح شىء منه فى مواقف الجد وأوصاف الحرب ، وإن كان المتنبى يستعمل ألفاظ النسيب والغزل فى ذلك وهو مما لم يسبق إليه وتفرد به (٤) . . . ويشيع فى الغزل التهالك وإظهار الصبابة .

---

(١) قصر شعره على الغزل من بين فنون الشعر (١١٧ : ٣ الرافعى) ، وكان شاعراً ظريفاً مفوها منطيقا مطبوعاً ، وكان صاحب غزل رقيق ولم يكن يمدح ولا يهجو إنما كان شعره كله فى الغزل والوصف (١١٩ طبقات ابن المعتز)ويشبه بابن أبى ربيعة (١١٩ المرجع ، ٨٣ : ٤ زهر ، ٣٣٥ الشعر والشعراء ، ٦٧ : ١ العمدة) وكان شاعراً مجيداً غزلا (٩٢ خاص الخاص) وأشاد به بشار وأبو نواس والعلاف (٨٣ : ٤ زهر) ، وهو من أوائل الشعراء المجيدين (٦٧ المثل السائر) ونوه دعبل بقوله : هى الشمس مسكنها فى السماء (٢٦٩ : ١ ديوان المعانى).

(٢) ٥٧ — ٦٢ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

(٣) ١١٣ : ٢ العمدة .

(٤) ١٦٤ : ١ اليتيمة .

ولابن المعتز مجال كبير فى الغزل، والغزل فى شعره فن تسرى الجودة والحياة والدماثة والرقة والعذوبة فى أعطافه ، وهو فيه مجيد صاحب طبع مطبوع وملكة موهوبة ، ولا بدع فى ذلك فقد أفعمت نفسه بألوان الجمال، وأشربت حبه ، وغذيت بمتعه وصباباته ولهوه ولذاذاته ، وكان لطيف الحس رقيق العاطفة ملتهب الإحساس والشعور يسقى شبابه الظامىء من ينبوع الحب المتفجر ، ويجد من بيئته وعصره حرية تسمح له بالهيام بالجمال والتبتل فى معابد السحر والفتنة ، فشدا بألحانه الساحرة أناشيد ناطقة بما فى نفسه وعواطفه من حب ووفاء وماامتزج بروحه وسرى فى دمه من هيام وشغف بألوان الجمال ، وفن ابن المعتز فى الغزل يقف بجانب فن امرىء القيس وابن أبى ربيعة والعباس بن الأحنف وسواهم من المجيدين فى هذا الباب . ويقول الصولى : «وهو متقدم فى الغزل لأن الشعراء الذين أحسنوا فى الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم قليلون وخاصة من عمل فى المذكر والمؤنث ، وهو أول من حصل هذا وجعله فنين ، وأضاف إليه فنا ثالثاً سماه مجونا وكثره حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس»(١) ، ومن شعره فى الغزل قوله :

ياهند حسبك من مصارمتى لا تحكمى فى الحب بالظن

وقول فى شريرة محبوبته :

وقلت تعالى ياشريرة نمتزج كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين

ومن غزله قوله :

بان الخليط ولم تطق صبرا ووجـــدت طعم فراقهم مرا
وكأنما الأمطار بعــــدهم كست الطلول غلائلا خضرا

---

(١) ١١٤ الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء .

هل تذكرين وأنت ذاكرة　　مشى الرسول إليكم سرا
إن يغفلوا يسرع لحاجته　　وإذا رأوه أحسن العذرا
فطن يؤدى ما يقال له　　ويزيد بعض حديثنا سحرا
قالت لأتراب خلون بها　　وبكت فبلل دمعها النحرا
ما باله قطع الوصال ولم　　يسمح زيارة بيتنا شهرا
حتى طرقت على مخاطرة　　أطأ الصوارم والقنا الحرا
ياليلة ماكان أقصرها　　لازلت أشكو بعدها الدهرا

فتجد روح ابن أبى ربيعة فى الغزل والحوار ، والتهالك من المرأة على حبه ، وإن كان ذلك مما يذمه النقاد فى فن الغزل ، فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغازل المتمارت(١) ، وإنما توصف المرأة بالحياء(٢) ، ولكنك مع ذلك تجد فى القطعة جمالا لايعدله جمال فى وصف الرسول .

ويقول :

لاتلومونى على حب هند　　سحرتنى إنما الحب سحر

ومن غزله قصيدته :

ياغزال الوادى بنفسى أنتا　　لا كما بت ليلة الهجر بتا

ومنه قوله :

تعاهدتك العهاد ياطلل　　حدث عن الظاعنين مافعلوا
فقال لم أدر غير أنهم　　صاح غراب بالبين فاحتملوا
فلا تحليت بالرياض ولا　　النور ومغناى منهم عطل

---

(١) ١١٨ : ٢ العمدة .

(٢) ٢٥٤ ديوان ابن أبى ربيعة والنقاد كثيرا ماانقدوا ابن أبى ربيعة فى وصفه لتهالك المرأة على حبه (١١١ : ٢ عمدة ، ٢٥٢ ديوان ابن أبى ربيعة) .

على هذا فما عليك لهم ؟ قلت زفير ودمعة همل
وأننى مقفل الضمائر من حب سواهم ماحنت الإبل
فقال هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا
هيهات إن المحب ليس له هم بغير الهوى ولا شغل
تركت أيدى النوى تعودهم وجئتنى عن حديثهم تسل ! !
فقلت للركب لا قرار لنا من دون سلمى وإن أبى العذل
حتى تبدى فى الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والد مع كلام لنا ولا رسل

وتجد هنا رقة الأسلوب وجمال الحوار المبتكر وسحر المعانى ولطفها مما يسمو بفن ابن المعتز فى الغزل إلى منزلة عالية .

ومن روائع بشار فى الغزل ، قوله وقد نهاه الخليفة المهدى عن الغزل :

يا منظرا حسنا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته(١)
والله — رب محمد — ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيته
ومخضب رخص البنا ن بكى على وما بكيته
ويشوقنى بيت الحبيـ ب إذا ادكرت ، وأين بيته ؟
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته(٢)

---

(١) تسومنى ، من سام يسوم ، إذا أخذ فى الحديث فى البيع أو الشراء ، الشباب استعارة بالكناية ، والمراد به نضارته وبهجته وفتوته ، وذلك كله كناية عن رغبتها فى مغازلته .

(٢) من القلى وهو الهجر ، الإعراض .

ونهانى — الملك الهما م(١) عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهدا(٢) ولا وأيا وأيته
وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته(٣)
أصفى الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيته(٤)
وأميل فى أنس النديـ م من الحياء وما اشتهيته(٥)

وهذا النص من شعر بشار يصور عذوبة أسلوبه، وافتنانه فى معانيه، وانتحاءه جانبا خاصا فى شعره يشبه الجانب القصصى الذى اشتهر به فى عصرنا إيليا أبو ماضى وكان بشار شديد الذكاء، واسع الخيال، ذا ملكة قوية فى الشعر يعد من أكبر شعراء عصره، وزعيم المحدثين كافة، ومن أصحاب المعانى المخترعة فى الشعر العربى، وقد تصرف فى كثير من فنون الشعر ومعانيه.

وكان فارسى الأصل وأبوه فيما يقال من سبى المهلب بن أبى صفرة، وكان ولاؤه فى بنى عقيل من قيس عيلان، ونشأ بشار فى البصرة نشأة عربية خالصة، فأتقن اللغة وبرع فى الأدب، وكان شاعراً محاوراً وخطيباً، واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفى غيره من مجالس المتكلمين

---

(١) الهمام: العظيم الهمة.
(٢) لم أضع العهد: أى لم أحنث به.
(٣) المطل على العدا: المستمر فى إيذائهم. الحمد: الثناء.
(٤) من الدنو وهو القرب. وأصفا الصديق يصفيه مودته: أخلص ووفى لعهد أخوته. والخليل: الصديق. ونأى: من النأى وهو البعد والمراد به الهجر وقطع المودة.
(٥) النديم: الرفيق والمصاحب، والمشارك فى الشراب والميل فى أنس النديم: القيام بمؤانسته، اشتهيته: رغبت فيه، والضمير يعود إلى الكأس أو الراح وهو مضمر للعلم به من المقام.

وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد فتن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحهُ ، ثم وقع الخلاف بينه وبينهم فتركهم وهجاهم واستطار الشر بينه وبين واصل .

ولقد كان شاعراً مجيداً تأثر بالشعراء الإسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريراً ويؤثره على غيره ، وقد أدركه ، وهجاه فيما يقول الرواة رغبة فى أن ينوه به جرير فيرتفع أمره ولكن جريراً أعرض عنه . وكان بشار عربى النزعة فى الشعر ، حريصاً على متانة اللفظ ورصانته ، قلما يميل إلى تجاوز المألوف فى الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مزاجه الفارسى قد ترك فى شعره أثراً ظاهراً ، فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخلص ، ولا سيما حين كان يتغزل ، فقد مال فى غزله إلى نحو من الفتون والمجون لم يعرفه الغزلون من شعراء الحجاز سواء منهم العذريون وأصحاب المجون ، كان بشار صريحا فى غزله قبيح الصراحة أحيانا .

وكان مسرفا فى الرقة إذا تغزل فذمه الوعاظ والقصاص فى وعظهم وقصصهم وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهاه المهدى عن الغزل فانتهى على كره ونفاق . ومع ذلك كان يعاود الكلام فى الغزل كما ترى فى هذه القصيدة ، ومازال به إسرافه فى الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدى فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ ﻫ .

وفى شعر بشار قوة اللفظ ومتانته إذا جد ، واللين والفتور إذا تغزل أو هزل ، وفيه جودة المعانى ودقتها وحسن الاستقصاء لها ، والرواة مجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة .

ومن شعر ابن المعتز العباسى فى موقف وداع قصيدته :

تعادتك العهاد ياطلل   خبر عن الظاعنين ما فعلوا

فقال : لم أدر غير أنهم صاح غراب بالبين فاحتملوا
وقال : هلا تبعتهم أبدا إن نزلوا منزلا وإن رحلوا

وقد مضت آنفا ، ومنها قوله :

كأنما طار من تحتنا قزع على أكف الرياح ينتقل
حتى تبدى فى الفجر ظعنهم وسائق الصبح بالدجى عجل
فلم يكن بيننا سوى اللحظ والـ ـدمع كلام لنا ولا رسل
كم من عداة أبارهم غضبى فلم أقل أين هم وما فعلوا

وأما الغزل بالمذكر فهو غرض جديد من أغراض الشعر العباسى ، وقد سرى إليهم من الفارسيين ، وأول من نظم فيه : حماد عجرد ، ووالبة ابن الحباب ، ثم أبو نواس ، وحسين بن الضحاك ، ويحيى بن زياد ، ومطيع ابن إياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، ممن كانوا يلتقون على موائد الشراب ، وبين أيديهم الغلمان والقيان ، فلا يتورعون عن حرام ؛ وسرت هذه الموجة إلى الشعراء الغزلين ، فطغى الغزل بالمذكر على شعرهم ، وقلدهم غيرهم حتى شعراء الغزل بالمؤنث فقلبوا ضمير الأنثى إلى ضمير الذكر ؛ وبتأثير ذلك أكثروا من وصف العذار والافتنان فيه ، وقذف الناس بالمرد ، ونبذهم بالابنة ، وغير ذلك من مجالات الكلام ..

وينكر الجاحظ أن يكون العرب قد عشقوا الغلمان ، أو تغزلوا بالمذكر ، فيقول فى رسالته فى « النساء » (١) :

لو تعشق العرب الغلمان ، لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب النسيب ، ولتهاجوا به وتفاخروا ، ولتنافسوا فى الغلمان ، ولجرى فى ذلك مالا يخفى ، ولحدثت

---

(١) راجعها فى رسائل الجاحظ نشر السندوبى .

فيه أشعار وأخبار ؛ والذى يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعانى ، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا فى بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق (١) .

ومن الغزل بالمذكر أشعار كثيرة عباسية تروى فى كتب الأدب العربى وفى دواوين الشعراء العباسيين .

يقول الشاعر سعيد بن هاشم الخالد فى غلام له (٢) :

ما هو عبد لكنه ولد خولنيه المهيمن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدى والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلد
فى سن بدر الدجى وطلعته فشله يصطفى ويعتمد
معشق الطرف كحـله كحل مغزول الجيد حليه الجيد
أنسى ولهوى وكل مأربتى مجتمع لى فيـه ومنفرد
مسامرى إن دجى الظلام فلى منه حديث كأنه الشهد
ظريف مزح مليح نادرة جوهر حسن شراره يقد
خازن مافى دارى وحافظه فليس شيء لدى يفتقد
ويعرف الشعر مثل معرفتى وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفى القريض وزان دنانير المعانى الرقاق منتقد
وواجد بى من المحبة والرأ فة أضعاف ما به أجد
إذا تبسمت فهـو مبتهج وإن تنمرت فهو مرتعد
ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يحوها أحد

---

(١) والنص موجود أيضا فى ٢ : ٤١٧ و ٤١٨ أمراء البيان لمحمد كرد على .

(٢) معاهد التنصيص للعباسى مخطوطة برلين رقم ٧٢٢٤ ص ١٥ ب .

ويقول شاعر آخر (١) :

ألا ياجامع البصر ... ة لاخربك الله
وسق صحنك الغيث ... من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك ... يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنس ... مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم ... له فيك فصدناه
وكم من طالب للشعر ... بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا ... م حتى لان متناه

يقول أبو نواس :

يا بدعة فى مثال ... يجوز حد الصفات
الوجه بدر تمام ... بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام ... والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو ... مؤنث الخلوات

ويقول الحسين بن الضحاك فى غلام يستحم :

وابأبي أبيض فى صفرة ... كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة ... تلوح فيها عكن بضه
غصن تبدى يتثنى على ... مأكة مثقلة النهضه(٢)
كأنما الرمش على خده ... طل على تفاحة غضه
صفاته فاتنة كلها ... فبعضها يذكرنى بعضه

---

(١) ٢ : ١٣٠ اليتيمة ، ٦ : ٣١٧ ياقوت الارشاد ، معجم الأدباء .
(٢) المأكة : اللحمة على رأس الورك وللانسان مأكتان .

واستعمل أبو نواس لفظ المذكر فى المؤنث فقال :

يا قمرا أبصرت فى مأتم   يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيذرى الدمع من نرجس   ويلطم الورد بعناب
أبرزه المأتم لى كارها   برغم دايات وحجاب (١)
لاتبك ميتاً حل فى قبره   وابك قتيلا لك بالباب

المدح

رأينا فيما سبق كيف كان الخلفاء فى هذا العصر يتمتعون بالنفوذ الواسع والجاه العريض ، ورأينا كيف كان كلفهم باظهار نفوذهم ، وإعلان هيبتهم ، وإطراء مجدهم ، فقربوا الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ليعلنوا مفاخرهم على الناس ، ويزيدوا من هيبتهم فى نفوس العامة . فأخذ الشعراء يتنافسون فى التمجيد ، ويتسابقون فى التعظيم ، ليحظوا بجزيل العطاء وعظيم الهبات . وقد انتهى بهم ذلك إلى المبالغة فى المدح حتى قاربوا الكفر ، والتهويل فى الثناء حتى خرجوا عن المعقول .

وإنما دعاهم إلى هذه المبالغة البالغة، رغبتهم فى إرضاء غرور الممدوحين وطمعهم فى أن ينالوا أكبر الجوائز وأسناها، فقد كان العطاء على قدر المبالغة ، وكان الخلفاء كما رأينا من قبل يتخرقون فى العطاء ، ويسرفون فى المنح ، حتى أثرى الشعراء ، واقتنوا الثروات الطائلة ، والضياع العامرة .

ولقد رأينا أن المعتصم لم يقبل من الشعراء إلا من يمدحه بمثل مدح النمرى للرشيد ، حتى أشبع محمد بن وهيب رغبته ، وأرضى غروره .

ومحمد بن وهيب هذا هو الذى قال فى مدح الحسن بن سهل .

تعظمه الأوهام قبل عيانه   ويصدر عنه الطرف وهو محاذر

---

(١) المأتم : مجتمع الناس فى الخير والشر .

به تجتدى النعمى وتستدرك المنى ‌ ‌ وتستكمل الحسنى وترعى الأواصر
قسمت صروف الدهر بأسا ونائلا
فمالك موتور وسيفك واتر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا ‌ ‌ لما انتسبت إلا إليك المفاخر

حتى طرب الحسن ونزل عن سريره إلى الأرض ، وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل فى ولا قلت باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، واقتطعه لنفسه . كما رأينا أن جلساء المعتصم لم يقنعوا بتشبيه أبى تمام له بحاتم فى الكرم ، وعمرو بن معد يكرب فى الشجاعة ، وإياس فى الذكاء ، فانتقدوه ، حتى اضطر للاعتذار .

ومن صور المدح قصيدة أبى نواس فى مدح الأمين ويقول منها :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا ‌ ‌ فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصا ‌ ‌ فلها علينا حرمة وذمام
ملك إذا علقت يداك بحبله
لا يعتريك البؤس والإعدام
فالبهو مشتمل ببدر خلافة ‌ ‌ لبس الشباب بنوره الإسلام (١)
سبط البنان إذا احتبى بنجاده ‌ ‌ فرع الجماجم والسماط قيام (٢)
إن الذى يرضى الإله بهديه ‌ ‌ ملك تردى الملك وهو غلام (٣)

---

(١) يريد بالبهو هنا البيت ، ومشتمل : مزدان : ومعنى الشطر الثانى أنه أعاد للدين سلطانه .

(٢) السبط : السهل الذى لاخشونة فيه ، والبنان أطراف الأصابع واحدتها بنانة . وسبط البنان : الكريم . والنجاد : حمائل السيف التى يتعلق بها . احتبى بنجاده : لبسه ، وفرع الجماجم : علاها . سماط القوم صفهم .

(٣) تردى : لبس الرداء والمراد أنه ولى الخلافة فتى .

ملك إذا اعتسر الأمور مضى به   رأى يفل السيف وهو حسام (١)
داوى به الله القلوب من العمى   حتى أفقن وما بهن سقام (٢)
أصبحت يابن زبيدة ابنة جعفر   أملا لعقد حباله استحكام (٣)
فسلمت للأمر الذى ترجى له   وتقاعست عن يومك الأيام (٤)

والبيت الأول والثانى شبيهان بقول الشاعر :

إذا بلغتنى وحملت رحلى   عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقال ذو الرمة :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته   فقام بفأس بين وصليك جازر

وقال عبد الله بن رواحة :

إذا بلغتنى وحملت رحلى   مسيرة أربع بعـــد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم   ولا أرجع إلى أهلى ورائى

وقال الفرزدق فى هذا المعنى :

علام تلفتين وأنت تحتى   وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى   من الأنساع والدبر الدوامى

---

(١) اعتسرت الأمور اشتدت والتوت ، يفل السيف : يثلمه . والحسام : السيف القاطع ، يريد أن الأمور إذا صعب حلها كان له فيها رأى ناقد سديد .

(٢) عمى القلوب : زيغها . السقام بفتح السين المرض .

(٣) زبيدة أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد وهى بنت جعفر ابن المنصور ، الأمل هنا هو المقصود والمأمول . استحكام : قوة . يقول : صرت أملا يعلق الناس حاجاتهم بك فلا يخيب رجاؤهم ، وقوله (لعقد) إلى آخر الجملة صفة لقوله أملا .

(٤) تقاعس : تأخر . يقول : إن أيامك خير الأيام .

وقد عاب الرواة ونقاد الكلام قول الشماخ وذى الرمة ، سمع عبدالملك قول الأول فقال : بئست المكافأة حملت رحله و بلغته بغيته فجعل مكافأتها نحرها وقد قال رسول الله للأنصارية التى نجت من الأسر على ناقته صلى الله عليه وسلم فنذرت أن تنحرها : لبئس ما جزيتها . وهما إلى جانب الخطأ فى المعنى رديئا الأسلوب يتخذهما النحاة مجالا لكثير من سخف التأويل . فأما عبد الله بن رواحة . فقد أحسن إليها مع استغنائه عنها ، دعا لها بأن تعيش ناعمة طليقة خالية من الذم لأنها بلغته ما يأمله من الاستشهاد فى سبيل الله .

ويقول الفرزدق مخاطباً ناقته : متى تناخى فى ساحة أمير المؤمنين تراحى من عناء الرحيل إلى غيره لأننا نصادف من نداه ما نعيش به أغنياء ، وزاد أبو نواس فأعتق ظهورها من الحمل وحماها من الركوب وجعل ذلك حقاً خليقاً بالرعاية ودينا واجب الأداء . وكلمة الرجال فى بيته تسىء إلى الغرض لأنها تخصص العام وتقيد الإطلاق كما أن حملتنى وحملت رحلى فى الأبيات السابقة حشو جىء بها لإقامة الوزن . وكذلك كلمة زمام فى بيت أبى نواس ، وبيت ابن رواحـــة الأول فيه إطناب ، وكان يغنى عنه أن يقول إذا بلغتنى الغاية .

وأبو نواس هو الحسن بن هانىء (١٤٥ — ١٩٨ ﻫ) من شعراء الدولة العباسية ، نشأ فى البصرة ، ثم تحول إلى الكوفة ، وأخذ عن والبة بن الحباب وكان والبة شاعراً ماجناً شراباً للخمر وصافا لها ، ثم انتقل إلى بغداد . وفاق أبو نواس أهل عصره فى وصف الخمر ، وكان مستهتراً كأستاذه ، همه الانبعاث فى الشهوات وقرض الشعر فى أبواب الخلاعة ، ولقد أجاد فى جميع فنونه ، وهو من الشعراء القادرين على التصرف فى الشعر ، مع متانة الأسلوب وجزالة اللفظ وسلامة النظم ، ويعد من مفاخر العربية والمحسنين إليها ، وتوفى سنة ١٩٨ هجرية .

وهذه هى رائية أبي نواس المشهورة فى المدح ، قال أبو نواس يمدح العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

أيها المنتــــاب من عفره ... لست من ليلى ولا سمره (١)

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره (٢)

قد لبست الدهر لبس فتى ... آخذ الآداب من غيره (٣)

فاتصل إن كنت متصلا ... بقوى من أنت من وطره (٤)

خفت مأثور الحديث غداً ... وغداً أدنى لمنتظره (٥)

خاب من أسرى إلى بلد ... غير معلوم مدى سفره (٦)

وسدته ثنى ساعـده ... سنة حلت إلى شفره (٧)

---

(١) المنتاب : القاصد المتردد عليك ، والعفر بضم فسكون وبضمتين : طول العهد ، والسمر : حديث الليل خاصة ، يتبرأ منه . . والمعنى : أيها الزائر بعد زمان طويل لست من سمارى فى ليلى .

(٢) يقول : لا أمنعك من الاتصال بهذه المرأة التى خانتنى وستلقى هــــذا المصير ، والبيت من قبيل الاستعارة التمثيلية .

(٣) أى صاحبت الدهر حتى تعلمت من حوادثه ، وغير الدهر : أحداثه .

(٤) الوطر : الحاجة . والقوى : الأسباب والحبـــــال ، أى اتصل بمن تحب الاتصال به غيرى فليس بيننا سبب .

(٥) المأثور : المروى . أى خفت مايرويه الناس من الأحاديث السيئة فى غد ، وإن غداً لقريب .

(٦) الخيبة : ضد النجاح . والإسراء : السير ليلا . والمدى : الغاية ، والمعنى : خاب من سار على غير هدى ومن لم ينظر فى العواقب .

(٧) الشفر : منبت الشعر من الجفن ، والسنة : النوم الخفيف ، وهذا تكميل لما قبله ، يصف السارى المسافر بأن النوم يحمله على أن يتوسد ساعده المثنى .

فامض لاتمنن على يدآ منك المعروف من كدره (١)
رب فتيان ربأتهم مسقط العيوق من سحره (٢)
فاتقوا بى ما يريبهم إن تقوى الشر من حذره (٣)
وابن عم لا يكاشفنا قد لبسناه على غمره (٤)
كمن الشنآن فيه لنا ككمون النار فى حجره (٥)
ورضاب بت أرشفه ينقع الظمآن من خصره (٦)
علنيه خوط إسحلة لان متناه لمهتصره (٧)

---

(١) المن : ذكر المنعم إحسانه ، وذلك مفسـد للاحسان ، ومن كلام العرب : المنة تفسد الصنيعة .

(٢) ربأتهم : حرستهم مخافة أن يدهمهم العدو ، مسقط : وقت سقوط (العيوق) ، وهو نجم يتلو الثريا ، يظهر سحراً ، يفتخر بأنه يحرس إخوانه فى الشدائد .

(٣) يريبهم : يفزعهم ، يقول : اعتمدوا على فى دفع مايحذرون فكنت عند ظنهم .

(٤) كاشفه بالعداوة : أظهره عليها ، والغمر : الحقد ، يقول : أدارى ابن عمى الذى يكمن لى العداوة والبغضاء وأعاشره وكأنى لا أعلم بشىء من أمره .

(٥) كمن : استتر ، والشنآن : البغض ، أى توارت البغضاء فى نفسه كتوارى النار فى الحجر .

(٦) الرضاب : الريق ، والظمآن : العطشـان ، والخصر : البرد ، وينقع : يروى .

(٧) علنيه : سقانيه مرة بعد أخرى ، والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة ، والاسحلة : مفرد اسحـل شجر عظيم ينبت بأعالى نجد ، والمهتصر جاذب الغصن ، يقول : سقانى هذا الريق امرأة لينة كأنها الغصن فى تثنيها طيعة لجاذبها إليه .

ثم أدناني إلى ملك ... يأمن الجاني إلى حجره (١)
تأخذ الأيدي مظالمها ... ثم تستذري إلى عصره (٢)
كيف لايدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره (٣)
فاسل عن نوء تؤمله ... حسبك العباس من مطره (٤)
ملك قل الشبيه له ... لم تقع عين على خطره (٥)
لاتغطى عنه مكرمة ... بربا واد ولا خمره (٦)

---

(١) الضمير المرفوع عائد إلى الحصان الذي قطع الطريق به إلى الممدوح . يقول : بلغني هذا الحصان ملكا يحمي اللاجيء إليه ، والحجر : حضن الانسان .

(٢) تستذري : تلتجيء ، والعصر : الملجأ ، أي ينصف اللذين يقصدونه شاكين ، لأنه عادل وسطان محكم .

(٣) النفر : الجماعة ، وهذا البيت معيب لأن حق رسول الله أن يضاف إليه لا أن يضاف إلى غيره . فكان الأنسب أن يقول من هومن نفر رسول الله ، فيكتسب هذا الأمير الشرف بالإضافة إلى السيد الرسول الأعظم .

(٤) النوء : النجم ، وكان العرب يربطون بين المطر وظهور نجوم بعينها . والمعنى : لا تؤمل في خصب يأتيك به مطر السماء فندى العباس خلف من كل مطر ، وغنى عن كل غيث .

(٥) الخطر : المثل ، يقال هذا خطر له أي مثله ، وقل هنا : معناه فقد وعدم ، أي لا شبيه لهذا الممدوح ولن تقع عين على نظير له .

(٦) لا تغطى : لا تتوارى ولا تستتر ، والربى ما ارتفع من الأرض واحدها ربوة ، والخمر : ماواراك من شجر وغيره ، والمعنى : أنه لا يترك مكرمة إلا فعلها ولا صنيعة إلا أتمها وأحسنها .

سبق التفريط رائده وكفاه العين من أثره (١)
وإذا مج القنا علقا وتراءى الموت فى صوره (٢)
راح فى ثنيي مفاضته أسد يدمى شبا ظفره (٣)
تتأيى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره (٤)
وترى السادات ماثلة لسليل الشمس من قمره (٥)
وكريم الخال من يمن وكريم العم من مضره (٦)
فهم شتى ظنونهم حذر المكنون من فكره (٧)

---

(١) التفريط : مصدر فرط رسوله : قدمه وأرسله ، والرائد : الرجل يرسله أهله يلتمس لهم منزلا خصبا ، يقول : إن العباس رائده ـ أى الرائد منه ـ يسبق الرسول ويعرف ببصيرته المستور ، ومعنى الشطر الثانى أنه لقوة بصيرته يعرف الأمور بذاتها فلا يحتاج إلى آثارها التى تعينه فى المعرفة .

(٢) مج : لفظ ورمى ، والقنا . الرماح ، المفرد قناة ، العلق : الدم ، وتراءى الموت الخ : أى ظهر الموت فى أشكاله المتباينة ، فطعين بالرمح ومضروب بالسيف وصريع .

(٣) الثنيان : مثنى ثنى بكسر فسكون وهو ما كف من طرف الثوب . والمفاضة الدرع الواسعة . والشبا : جمع شباة وهى حد السيف أو السنان فى طرفه ، يقول : إنه يعود من الحرب مدرعا كالأسد وقد احمرت ثيابه من دماء الأعداء .

(٤) تتأيى : تتعمد وتنتظر . والجزر : قطع اللحم .

(٥) سليل : وليد ، والمعنى المولود من أمه التى هى كالشمس عن أبيه الذى هو كالقمر ، وضميره (قمره) للممدوح أو لوالده .

(٦) الممدوح خاله يمنى وعمه مضرى .

(٧) شتى : متفرقة متنوعة ، يقول : إن السادات متنوعو الأفكار عما يضمره هو بالنسبة لهم وما يقضى فى شئونهم ، مخافة منه وإجلالا له .

ومن دراسة هذه القصيدة نجد أبا نواس يؤثر فيها الغريب ، وكأنه أراد أن يرضى أبا عبيدة والأصمعي وأضرابهما من اللذين يحفلون بغرابة اللفظ أو يظهر لهم أنه لايقل عنهم علماً باللغة وحفظاً لها وهى على ذلك حافلة بالاستعارة الحسنة والأمثال السائرة والمعانى النادرة . يبرز ذلك كله فى أسلوب جيد ولفظ جزل ووزن راقص يصلح للغناء والتلحين .

وأحب أن أقف معك عند هذا البيت :

تتأيى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وأوازن بينه وبين قول النابغة :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طيرى تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أراد كل واحد من الشاعرين أن يصف الممدوح بأنه قاهر لعدوه ظاهر عليه يتركه عند اللقاء مضرجا بالدماء، طعاما لآكلات اللحم من الطير . وأن الطير قد علمت ذلك فهى تتبعه فى غدوه إلى القتال واثقة أنها سترجع بطاناً من لحوم أعدائه الذين قتلهم . وقد عمد النابغة إلى وصف شجاعة الممدوح بأن الطير تعلم أن الظفر للمدوح على عدوه فذكر ذلك صريحاً وكنى عن طمعها فى اتساع رزقها عليها بصحبتها له فى غدوه إلى الحرب ، وعكس أبو نواس فنص على هذه الثقة ، ودل على قهره لمن ناوأه بطريق الفحوى .

وأبو نواس وإن كان متبعاً فقد زاد على النابغة بفضل إيجازه وخفة وزنه وباختيار ألفاظه فكلمة (تتأيى) تدل على الترقب والانتظار وأنها مستشرفة لذلك متشوفة إليه ، وكلمة الطير أشمل من عصائب طير ، وكلمة ثقة بالشبع لا يقابلها فى كلام النابغة ما يدل على معناها ، وكلمة جزره تدل على أن عدوه عند الجملة يصير بمنزلة الإبل تنحر والشياه تذبح قد استسلمت للقضاء المحتوم

والقدر النازل ، وكلمة «أول غالب» فى كلام النابغة أضعفت المراد لأنه من الجائز أن يكون أول الجملة له وآخرها عليه ، وغاية القول أن النابغة وإن كان قد سبق فإن أبا نواس قد أحسن فى الاتباع وزاد .

ومما عيب على أبى نواس فى هذه القصيدة قوله :

كيف لايدنيك من أمل   من رسول الله من نفره

يروى أن راوية أبى نواس قال عندما سمعه ينشد هذا البيت : إنه كلام ردىء موضوع فى غير موضعه لأن سيدنا رسول الله أجدر أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى أحد ، فقال له أبو نواس : ويلك إنما أردت أن رسول الله من القبيل الذى هو منه ، كما قال حسان :

ومازال فى الإسلام من آل هاشم   دعائم عز لاترام ومفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه   على ومنهم أحمد المتخير

وقال أبو تمام يمدح أبا العباس عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب :

وركب كأطراف الأسنة عرسوا   على مثلها والليل تسطو غياهبه(١)
لأمر عليهم أن تتم صدوره   وليس عليهم أن تتم عواقبه(٢)
على كل مواد الملاط تهدمت   عريكته العلياء وانضم حالبه(٣)
رعته الفيافى بعد ماكان حقبة   رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

---

(١) أطراف الأسنة : أسنة الرماح . عرسوا : نزلوا ليلا . يقول إن هؤلاء الركب ركبوا على مثل أسنة الرماح وهى كور الجمال التى تشبه الأسنة فى الصلابة والمضاء .

(٢) أى هؤلاء الركب ركبوا لأمر وهو نيل العطاء من الممدوح .

(٣) الملاط : عضد البعير والموار : المتحرك . والحالب : عرق يتصل بأسفل البطن وهو كناية عن الضمور .

إليك جزعنا مغرب الملك كلما
هبطنا ملا صلت عليك سباسبه (١)
إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآمله غاد عليه فسالبه (٢)
وقد قرب المرمى البعيد رجاؤه وسهلت الأرض العزاز كتائبه
سما للعلا من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه (٣)
فنول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وأين بوجه الحزم عنه وإنما مرائى الأمور المشكلات تجاربه (٤)
أرى الناس منهاج الندى بعد ماعفت
مهايعه المثلى ومحت لواحبه (٥)
ففى كل نجد فى البلاد وغائر مواهب ليست منه وهى مواهبه (٦)
إذا ما امرؤ ألقى بربعك رحله فقد طالبته بالنجاح مطالبه (٧)

---

(١) جزعنا الأرض . قطعناها عرضا ، ومغرب الملك . الشام ، وكان أبو تمام بها وكان ممدوحه بخراسان ، والملا . الصحراء ، وصلت عليه . أثنت عليه ، والسباسب جمع سبسب . الأرض المستوية .

(٢) بيضة الملك. حوزته وأصله ، وآمله طالب العطاء منه ، يقول : إنا سرنا إلى من يسلب الجبار ملكه وطالب العطاء منه يسلبه ماله ، فهو سالب ملك الجبار ومسلوب المال من الطالبين .

(٣) يريد بجانبي العلا الشجاعة فى الحرب والكرم ، والعباب معظم الماء وجاشت زخرت وغواربه أعلى أمواجه .

(٤) أين بوجه الحزم أى كيف يشكل عليه الحزم وتجاربه مرآة للمشكلات ومرائى جمع مرآة .

(٥) المهايع واللواحب الطرق الواضحة .

(٦) لما علم الناس الكرم كانت هباتهم ليست منه وهى فى الحقيقة منه لأنه هو الذى علمهم .

(٧) أى من نزل عندك وألقى رحله بعك صمن نجح مطلبه .

وهكذا كان المدح يهز أعطافهم ، ويثير أريحيتهم ، ويستدر عطاءهم وهكذا كان الشعراء يمعنون فى المبالغة ، ويهولون فى تصوير الممدوح ، لأنهم يرون ذلك السحر الذى يخلب العقول ، والرقى التى تختلب الصلات ، وكان من أثر ذلك أن وجدنا بعض الشعراء تغريهم كثرة العطاء ويهون عليهم أمر الدين ، فيدنون من الشرك أو يقعون فيه كما قال أبو نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وكما يقول :

حتى الذى فى الرحم (لم يك صورة) لفؤاده من خوفه خفقان

وقد ظل الشعراء يبالغون فى المدح ، ويغرقون فى الثناء ، وينافس بعضهم بعضا فى ذلك ، حتى رأينا هذه الظاهرة تشيع وتتسع فيما بعد ، وتبلغ نهايتها فى الغلو والتهويل ، ولقد ذكروا أن المستعين بالله قال لشعرائه : لا أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فقال البلاذرى : قد قلت فيك أحسن مما قال البحترى ، فقال هات ، فأنشده :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال المستعين : ارجع إلى بيتك وافعل ما آمرك به ، فرجع ، فبعث إليه سبعة آلاف دينار ، وضمن له كفايته مدة حياته .

شعر السياسة والعصبية

١ — ورثت الدولة العباسية ما خلفه العصر الأموى من إحياء العصبيات بين اليمانية والمضرية ، فقد بقيت هذه الأحقاد مضطرمة ، لا يخبو لها ضرام

ولا تهدأ ثورة . ومن ثم أخذ شعراء الفريقين يتراشقون بالهجاء ويتساجلون بالفخر . وكان من شعراء اليمانية : مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ومن المضرية الحكم بن قنبر ، قال مسلم يفاخر قريشاً :

فاخرتنا بما بسطنا لها الفخـ ... ـر قريش وفخرها مستعار
ذكرت عزها ، وما كان فيها ... ـ قبل أن تستجيرنا ـ مستجار
إنما كان عزها فى جبال ... ترتقيها كما ترقى الوبار(١)
أيها الفاخرون بالعز والعـ ... ـز لقوم سواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمنـ ... ـصور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش ... وقريش تلك الدهور تجار

٢ — وكان الموالى فى العصر الأموى يكنون الحقد للعرب ، ويضمرون لهم العداوة ، بسبب احتقار الأمويين لهم ، وترفعهم عنهم ، وقد هموا بالدفاع عن أنفسهم ، والإشادة بمفاخرهم ، وتعداد مثالب العرب ، ولكن حريتهم كانت مكبوتة ، بحيث لم يجترىء على إعلان ذلك منهم إلا القليل .

فلما تنسموا نسيم الحرية فى العصر العباسى ؛ واعتد الخلفاء بهم هذا الاعتداد الذى عرفناه ، بدأوا يجهرون بالعداوة ، ويعلنون المثالب ، ويذيعون مفاخرهم وأمجادهم . ومن هنا أخذت الشعوبية تظهر بوضوح بين العرب والعجم ، بحيث يصح اعتبارها غرضاً جديداً من أغراض الشعر . وكان من شعراء الموالى الشعوبيين : بشار وديك الجن والخريمى والمتوكلى .

٣ — وكان الشعر السياسى يأخذ مكانه بين هذه العصبيات ، ويحتل أرفع المنازل ، لأنه يتصل بسياسة الدولة ، ويتعلق بالخلافة .

كان لبنى العباس شعراء يعتمدون عليهم فى إذاعة محامدهم ، والاحتجاج

---

(١) الوبار بكسر الواو جمع وبرة بفتحها وهى دويبة كالسنور .

لهم فى استحقاق الخلافة ، وأولويتهم بها دون بنى على . ومنهم : مروان ابن أبى حفصة وعلى بن الجهم ، وأبان بن عبد الحميد . وكذلك كان للعلويين شعراؤهم الذين يذودون عنهم ، ويتعصبون لهم ، ويهجون الخلفاء العباسيين ، ويلاحون شعراءهم المتعصبين . ومنهم السيد الحميرى ودعبل الخزاعى ، ومسلم بن الوليد . قال مروان بن أبى حفصة يخاطب بنى على :

خلو الطريق لمعشر عاداتهم ... حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيد سامى
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

وقال الحميرى وكان علوياً :

إذا أنا لم أحفظ وصاة محمد ... ولا عهده يوم الغدير المؤكدا
فإنى كمن يشرى الضلالة بالهدى ... تنصر من بعد التقى وتهودا
ومالى وتيم أو عدى وإنما ... أولو نعمتى فى الله من آل أحمدا
وإن امرأ يلحى على صدق ودهم ... أحق وأولى فيهمو أن يفندا

ولقد أحسن الرشيد إلى دعبل ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه وأركبه ، حين سمع بعض المغنيات تغنى من شعره :

أين الشبـــاب وأية سلكا ... لا أين يطلب ضل بل هلكا
لاتعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يومكما ... ياصاحبى إذا دمى سفكا ؟
لاتأخذوا بظلامتى أحداً ... قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

فلم يخفف هـذا من عصبية دعبل للعلويين ، ولم تنسه المكافأة السخية حقده على العباسيين . فلما مات الرشيد قال يمدح أهل البيت ويهجوه :

وليس حى من الأحياء نعلمهم ... من ذى يمان ولا بكر ولا مضر

إلا وهم شركاء في دمائهمو كما تشارك أيسار على جزر(١)
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر(٢)
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكي إذا ما كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس خير الناس كلهمو وقبر شرهمو ؛ هذا من العبر(٣)
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت له يداه فخذ ماشئت أو فذر

الوصف :

الوصف (٤) تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية (٥) ، أوهو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات(٦) ، وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا (٧) ، وما استوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصوره لك (٨) .

والوصف أكثر أبواب الشعر العربي ، وكثير من النقاد يرى أن الشعر

---

(١) الأيسار : لاعبو الميسر ، والجزر : النوق يقامرون عليها .
(٢) الخزر بفتح الخاء والزاى جيل من الناس ضيقو العيون .
(٣) يريد قبر موسى الكاظم .
(٤) ويعد ابن رشيق الطرد والخمريات من باب الوصف (٢٨٠ : ٢ العمدة) ويتابعه فى ذلك كثير من النقاد ، ويعدون أيضا شعر الطبيعة من باب الوصف (٢٥٢ التوجيه الأدبي) .
(٥) الأسلوب للشايب .
(٦) ٧٠ نقد الشعر .
(٧) ٢٧٨ : ٢ العمدة .
(٨) ١٢٣ صناعتين .

إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) ، وقد وصف شعراء الجاهلية كل ماوقعت عليه أعينهم من شتى ألوان بيئتهم التى عاشوا فيها ومظاهر الحياة التى ألفوها فى هذه البيئة ، وكان امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوى والنابغة الجعدى من وصاف الخيل (٢) كما كان طرفة وأوس بن حجر وكعب ابن زهير ٢٤ هـ ، والشماخ من وصاف الإبل (٣) وكان عبيد بن الأبرص مجيـدا فى وصف المطر (٤) ، واستمر الأمر كذلك فى العصر الإسلامى ، وانفرد بعض الشعراء بالتفوق فى بعض الأوصاف ، فكان الشماخ من أوصف الناس للقوس والحمر (٥) ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وقرادوحية (٦) وأحسن الناس وصفا المطر (٧) ، ويذكر بعض الباحثين أنه يكاد يكون أكبر شعراء الوصف فى العصر المتقدم كله (٨) ، وكان ابن أحمر وهو إسلامى قديم وشاعر مجيد وصافا للحيات وعلى قوله احتذت الشعراء (٩) وللتغلبى أجود قصيدة قيلت فى وصف القط (١٠) ،

---

(١) ٢٧٨ : ٢ العمدة : ٢٥١ التوجيه الأدبى .

(٢) اقرأ وصف الجوارى الخمس لخيل آبائهن (١٧٨ : ١ الأمالى) ، ومقصورة أبى صفوان الأسدى فى وصف الخيل (٢٤٠ : ٢ الأمالى) .

(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة . ١٢٥ : ٣ الرافعى .

(٤) راجع قصيدتيه الحائية والقافية فى وصف المطر (١٧٣ : ١ الأمالى : ١٧٨ : ١ الأمالى أيضا) واجع وصف الأعراب للمطر (١٧١ و ١٧٣ : ١ الأمالى) .

(٥) ١٠٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢،١٠ : ٢ العمدة .

(٦) ٢٧ الشعر والشعراء (٧) ٣٠ المرجع .

(٨) ٢٥٢ التوجيه الأدبى .

(٩) ٣٧ المؤتلف .

(١٠) راجع ١٦٩ : ٥ الحيوان .

ولعبيد بن أيوب العنبرى إجادة وشهرة فى وصف الصحارى والمجاهل وما فيها من حياة وكائنات [١] ، وكان مزاحم العقيلى ينعت الفلوات فيجيد وشهد له بذلك الفرزدق وجرير والأخطل عند عبد الملك [٢] ، وكان الراعى أوصف الناس للإبل [٣] ، كما كان الفرزدق والحطيئة يجيدان صفات الخيل والقسى والنبل [٤] ... وفى العصر العباسى هجر الشعراء الأوصاف التقليدية فى الشعر العربى فدعا مطيع إلى وصف الجمال لا إلى وصف المهامه والقفار:

لأحسن من بيد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه ترعى

ودعا أبو نواس إلى أن تفتتح القصائد بأوصاف الراح :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

يا ربع شغلك إنى عنك فى شغل لاناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وتابعه فى ذلك ابن المعتز فقال :

أحسن من وقفة على طلل ومن بكاء فى أثر محتمل
كأس مدام أعطتك فضلتها كف حبيب والنقل من قبل

وقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه كما يقول هو :

عاج الشقى على رسم يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
تبكى على طلل الماضين من أسد ثكلت أمك قل لى من بنو أسد

---

(١) راجع ٥٠ : ٦ الحيوان . (٢) راجع ١٥٥ : ٢ ديوان المعانى .
(٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة . (٤) ٢٨٠ : ٢ العمدة .

ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولم يكن يدعو إلى فكرة أدبية جديدة بل إلى إدخال أنواع من المجون فى الشعر [١] ، ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث فى الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما، وينادى بتحضر الشعر وترك روح البداوة فيه ، والنقاد يختلفون فى هذه المناهج ، فابن قتيبة يدعو إلى المحافظة على سنن العرب فى ابتداء القصائد بذكر الديار والنسيب ثم وصف الرحلة إلى الممدوح والتخلص إلى المدح [٢] . ويرى ابن رشيق أنه لامعنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازا [٣] ، وأن ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس فى الوقت عن ذلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها والأولى فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان [٤] .

وقد أجاد الشعراء العباسيون فى الأوصاف إجادة بالغة ، وجاءوا فيها بالتشبيه المفرط البعيد [٥] ، على حين كان من قبلهم يجرون فى أوصافهم على الصدق ويسيرون فى ظل الحقائق القريبة ، وهذا مذهب من مذاهب العرب فى أن يصفوا الشىء على ماهو وعلى ماشوهد من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع [٦] ، ، وأشهر قصائد الوصف سينية البحترى التى ليس للعرب مثلها كما يقول ابن المعتز [٧] ، وبرع ابن الرومى فى التصوير وخاصة فيما كان

---

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف .

(٢) ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء .

(٣) ١٩٩ : ١ العمدة . (٤) ١٧٩ : ٢ العمدة .

(٥) راجع ١٢٤ : ٣ الرافعى — والوصف مناسب للتشبيه ومشتمل عليه وليس به ، والفرق بينهما أن الوصف إخبار عن حقيقة الشىء والتشبيه مجاز وتمثيل (٢٧٨ : ٢ العمدة) .

(٦) ١٨٩ الموازنة .

(٧) ٢١٨ : ١ و ٦٤ : ٢ ديوان المعانى ، ٥٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٣٣ رسائل ابن المعتز ، ٧ و ٨ مقدمة ديوان البحترى .

يرجع منه إلى باب التهكم والسخرية ، وكان الجدونى من أصلح الناس شعراً وأقدرهم على الوصف وكان عامة شعره فى طيلسان ابن حرب [١] ، واشتهر بجودة الوصف ابن المعتز [٢] ثم كشاجم بعده [٣] والصنوبرى وهو وحيد جنسه فى صفة الأزهار وأنواع الأنوار [٤] ، وكذلك أبو طالب المأمونى (٣٨٣ هـ) وله شعر كثير فى الأوصاف [٥] ، وكذلك السرى الرفاء وعلى ابن إسحاق الزاهى (٣٥٢ هـ) ثم ابن خفاجة وابن حمديس [٦] ، ولم يكن المتنبى من أهل الأوصاف كما يرى الواحدى [٧] .

وقد اشتهر ابن المعتز بالإجادة فى الأوصاف كلها كامرىء القيس فى الجاهليين وأبى نواس والبحترى وابن الرومى [٨] فى المحدثين ، ورسم صوراً صادقة لكل ماوقعت عليه عينه من أمور الحياة ومظاهر الحضارة ، وفى وصفه رقة وسلاسة ودقة وتفصيل وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة وإكثار من الصور الحية الرائعة ، وقد نمى ملكته فى نفسه

---

(١) ١٧٦ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٢) ٢٧٩ : ٢ العمدة .

(٣) اشتهر بوصف آلات المنادمة (١٢٦ : ٣ الرافعى) ، وكان يجيد الوصف ويحققه (٢٥٠ رسائل البلغاء) ، وله كثير من قصائد فى الوصف (راجع ٢٨٢ - ٢٨٥ : ٢ العمدة ، ١٠٤ : ٢ وما بعدها زهر الآداب) .

(٤) ٢٥٠ رسائل البلغاء .

(٥) ١٤٩ : ٤ اليتيمة - وله ترجمة فى اليتيمة (١٤٩ - ١٧٩ : ٤) .

(٦) ١٢٠ و ١٢٦ : ٣ الرافعى .

(٧) ويرد عليه العكبرى ذاهباً إلى أنه كان يحسن الأوصاف فى كل فن (١٦٥ : ٤ العكبرى) .

(٨) ويجعلهم ابن رشيق من الذين أجادوا فى كل الأوصاف (٢٧٩ : ٢ العمدة) .

دقة حسه ولطف شعوره وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه مما صرفه إلى الإجادة فى هذا الباب الذى تناول فيه وصف ألوان معيشته ومظاهر حياته وأنواع ترفه ولهوه ، وأتى فى ذلك بالرائع البليغ والجيد الممتاز وظهر فيه طابعه الخاص من أوصافه الملوكية التى تستمد صور الأوصاف من صور حياته التى كان يحياها أميرا وولى عهد وشخصية بارزة من شخصيات أسرة الخلافة العباسية التى أغرقها الترف فى عصره إلى حد بلغ فى ذلك مبلغ الأساطير .

وهكذا ظهرت براعة العباسيين فى الوصف وقدرتهم على التصوير وقد ساعدهم على الإجادة فيه والسمو بخياله ومعانيه ، مارددناه من مظاهر الحضارة وألوان الثقافة وكثرة المشاهدات ، مما يفتح أكمام الشاعرية ، وينمى الإحساس بالجمال ، ويقوى ملكة التصوير . ولقد نضجت خواطرهم بكثير من الأوصاف التى تناولت كل ماوقعت عليه عيونهم .

ومن نماذج الوصف قول على بن الجهم يصف الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتاق تسنده	إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته	أو مانعاً جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه	وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته	إلا تبينت فيـــه ذلة الحسد
قامت بحجته ريح معطرة	تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعذبه	بمسمع بارد أو صاحب نكد

وقال ابن الرومى يصف القيان العازفات على الأعواد :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

ومن أجل قصائد الوصف وصف البحترى لإيوان كسرى ، وفى هذه القصيدة الرائعة يصف البحترى الإيوان بالمدائن،ويرثى دولة الفرس قال :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس(١)
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ـر التماساً منه لتعسى ونكسى(٢)
بلغ من صبابة العيش عندى طففتها الأيام تطفيف بخس(٣)
حضرت رحلى الهموم فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عنسى(٤)
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس(٥)

---

(١) الجدا : العطاء . الجبس : الجبان اللئيم .

(٢) تماسكت : ثبت واعتصمت . زعزعنى : حركنى بعنف أى حين نالتنى خطوبه . التماسا : طلبا ومحاولة . التعس : الهلاك والشر . النكس : أن ينقلب الرجل على رأسه ، والمراد الهزيمة والسقوط .

(٣) بلغ : جمع بلغة وهى ما يكفى من العيش ولا يفضل . الصبابة : البقية . طففتها : نقصتها . البخس : الغبن والظلم .

(٤) حضرت رحلى الهموم : طرأت على الأحزان . والعنس : الناقة القوية .

(٥) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكاسرة الفرس . درس : دارس .

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى(١)
وهم خافضون فى ظل عال مشرف يحسر العيون ويخسى(٢)
حلل لم تكن كأطلال سعدى فى قفار من البسابس ملس(٣)
ومساع لولا المحاباة منى لم تطقها مسعاة عنس وعبس(٤)
نقل الدهر عهدهن عن الجد ة حتى غدون أنضاء لبس(٥)
فكأن الجرماز من عدم الأنـ س وإخلاله بنية رمس(٦)
لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس(٧)
فإذا مارأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس(٨)
والمنايا مواثل وأنو شر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس(٩)

---

(١) التوالى : المتالية .

(٢) هم : آل ساسان . خافضون : ناعمون . عال : أى قصر مرتفع وهو القصر الأبيض . يحسر العيون : يضعفها إذا نظرت تتبين ارتفاعه . يخسى : يؤلم .

(٣) الحلل : جمع حلة طائفة من البيوت . والبسابس : القفار . ملس: خالية .

(٤) المساعى : المكارم . لم تطقها : لم تقدر عليها . عنس وعبس : قبيلتان .

(٥) أنضاء جمع نضو : المهزول من الحيوان أو الثوب البالى ، ولبس : استعمال أى أبلاها الدهر .

(٦) الجرماز : بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره وكان عظيما بجوار القصر . والرمس : القبر .

(٧) البيان : المنطق الفصيح . اللبس . عدم الوضوح .

(٨) أنطاكية : بلد بالشام ضمت إلى تركيا إبان احتلال الفرنسيين لسوريا ، وفيها وقعت معركة بين الفرس والروم وقد صورت فى الإيوان . ارتعت : فزعت .

(٩) مواثل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب، وأنوشروان أحد الأكاسرة يزجى : يسوق ، والدرفس : العلم الكبير .

في اخضرار من اللباس على أصـ ـفر يختال في صبيغة ورس(١)
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس(٢)
من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس(٣)
تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس(٤)
يغتلي فيهم إرتيـابي حتى تتقراهم يداي بلمس(٥)
وكأن الإيوان من عجب الصنـ ـعة جوب في جنب أرعن جلس(٦)
يتظنى من الكآبة أن يبـ ـدو لعيني مصبح أو ممسي(٧)
مزعجا بالفراق عن أنس إلف عز ، أو مرهقا بتطليق عرس(٨)
عكست حظه الليالي وبات المشـ ـتري فيه وهو كوكب نحس(٩)
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي(١٠)

---

(١) الورس نبات ذو صبغة حمراء .

(٢) خفوت : سكون صوت ، الجرس : الصوت .

(٣) المشيح : الحذر ، المليح : الذي يخاف ويحذر أيضا ، والترس : المجن .

(٤) تصف العين : يخيل إليها .

(٥) يغتلي : يزيد ، ارتياب : شك ، تتقرى : تتبع .

(٦) الجوب الخرق ، والأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجلس الجبل العالي فكان الإيوان بالنسبة إلى القصر الأبيض العظيم الذي يشمل الإيوان وغيره من الغرف ، والمقاصير : خرق في جانب جبل أرعن وجعل الجبل أرعن لما فيه من الأجنحة والطنف ، والأبيات الآتية توضح هذا التشبيه .

(٧،٨) يتظنى : يظن ، أن يبدو : وقت أن يبدو ، ومزعجاً مفعول ثان ، ليتظنى : أي أنه يظن وقت ظهوره للعين مزعجاً بفراقه أليفا أو عروسا .

(٩) المشتري : كوكب سعد .

(١٠) التجلد : تكلف الجلد والصبر ، الكلكل : الصدر أي نازلة ؛ مرسي : من الإرساء والنزول .

لم يعبه أن بز من بسط الديـ … باج واستل من ستور الدمقس(١)

مشمخر تعـلو له شرفات … رفعت فى رءوس رضوى وقدس(٢)

لابسات من البياض فما تبـ … صر منها إلا غلائل برس(٣)

ليس يدرى أصنع إنس لجن … سكنوه أم صنع جن لإنس

غير أنى أراه يشهد أن لم … يك بانيه فى الملوك بنكس(٤)

عمرت للسرور دهراً فصارت … للتعزى رباعهم والتأسى

فلها أن أعينهـا بدموع … موقفات على الصبابة حبس

ذاك عندى وليست الدار دارى … باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى

غير نعمى لأهلها عند أهـلى … غرسوا من زكائها خير غرس(٥)

أيدوا ملـكنا وشـدوا قواه … بحماة تحت السنور حمس(٦)

وأعانوا على كتائب أريا … ط بطعن على النحور ودعس(٧)

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ … راف طرا من كل سنخ وجنس(٨)

---

(١) بز : سلب ، والديباج : الثوب سداه ولحمتـه حرير ، والدمقس : الحرير الأبيض .

(٢) مشمخر : عال ، ورضوى وقـدس : جبلان ، شرفات : ما أشرف من بناء القصر ، يشبه القصر فى ضخامته وارتفاعه بهذين الجبلين .

(٣) الغلائل جمع غلالة : وهى شعار يلبس تحت الثوب ، والبرس : بكسر الباء وضمهـا القطن أو ما يشبهه .

(٤) النـكس : الضعيف الدنىء . (٥) زكائها : نمائها .

(٦) السنور : كل سلاح من حديد ، وحمس : شجعان ، يشير إلى بلاء الفرس فى إقامة الدولة العباسية .

(٧) أرياط : قائد حبشى فتح اليمن قديماً ، ثم خلفه القائد أبرهة صاحب الفيل وأبنـاؤه ، ثم طرد سيف بن ذى يزن الأحباش بمعـــاونة الفرس ، الدعس : الذود والطعن .

(٨) أكلف : أولع ، السنخ : الأصل والمنبت .

والشاعر أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطائى صاحب القصيدة تخرج على أبى تمام ، ولكنه لم يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وإنما كان يتوسط بعض الشىء فمال إلى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهراً ، فجاء فى شعره شىء من البديع ، والحرص على الصنعة وعلى التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جلية ، فالبحترى وصاف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشد من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيبكيك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، ويبلغ الغاية فى ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح إذا تغزل ، مادح موفق إذا مدح .

وقد أحيا البحترى عمود الشعر العربى بعد أن زعزعه تجديد بشار وأبى نواس وأبى تمام ، ويمثل فى شعره غاية الذوق والترف الفنى ؛ وأثر الحضارة فى الشعر وفى صناعته ، وموسيقاه وعذوبة ألفاظه ، وأسلوبه . مما يضرب به المثل ، ومن ثم قال النقاد : « أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى » .

والبحترى كما يقول عبد القاهر فى كتاب « أسرار البلاغة » : إنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ، ويبلغ فى هذا مبلغه .

وهذه القصيدة فى جملتها ترشد إلى البحترى وخصائص شعره ، وتدل على مكانته من البلاغة ومنزلته فى الشعر ، وطبقته بين الشعراء العباسيين ، وكفى البحترى مجداً أن يكون له مثل هذه القصيدة . فهى فريدة فى الشعر العربى ، وقد سبق بها البحترى إلى فن جديد فى الشعر العربى هو وصف الآثار والمدن البائدة .

فهى من أروع ما نظم من قصائد الوصف ورثاء الآثار والدول فى الشعر العربى .

ويبدو أن البحترى نظمها وهو فى قمة مجده الشعرى، وقد ذكرها مرتين فى شعره ، مرة منهما وهو يمدح ابن ثوابة :

قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا   نستثيب النعمى من ابن ثوابة

ولم يختر ياقوت من كل شعر البحترى سوى هذه السينية .

ووحدة القصيدة ظاهرة ، فهى فى موضوع واحد ، وفكرة واحدة ، وهى مرتبطة العناصر متصلة الأجزاء بعضها بالبعض الآخر . وقد وفق الشاعر فى وصف الإيوان ، ووصف إعجابه به وببنائه وبناته ، وفى رسم شعوره ، وهو واقف أمامه يتأمل هذا الأثر الكبير ، ويخشع لجلاله .

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالثورة على الزمان ، والنقمة على الحظوظ وعلى رضاه بالإقامة فى العراق وتركه الشام وطنه ؛ فرأى أن يرحل إلى مدائن كسرى عساه يجد فيها ما يزيل همه .

ويأخذ الشاعر فى وصف القصر الذى به إيوان كسرى ، فصوره عاليا شاهقا ، حتى لتضعف العين أن تتبين مدى ارتفاعه . ويبين ما كان له من سلطان واسع ، وذكر مجد الفرس القديم ، وحضارتهم التى لا تساويها ما كان للعرب فى صحرائهم قبل الإسلام من مفاخر وآثار وأطلال دراسة ، ولا يصل إليها ما كان لقبائلهم من أعمال . . لكن الدهر لم يبق على حظوظ هذه الآثار ، ولم يحافظ على عهدها ، فصارت هذه القصور وكأنها قبور .

ووقف الشاعر أمام صورة فى هذا القصر ملكت عليه قلبه ، وهى صورة معركة حربية دارت عند مدينة أنطاكية بين الفرس والروم ، وقد

أجاد المصور تمثيل الرهبة التى تسيطر على المعركة حتى ليخيل لرائيها أن الموت ماثل فيها ، يريد أن يختطف النفوس ، بينما كان أنو شروان واقفا تحت علمه الكبير يحرض الجيش على القتال ، ولم ينس المصور أن يلون ثوب كسرى وجواده ، وأن يجيد تصوير المتحاربين حتى لكأنهم أحياء حقا ، فيندفع الشاعر إلى الصورة يتحسسها بيده ليرى أصورة هى أم حقيقة .

ويمضى الشاعر بعد ذلك فى وصف الإيوان ، فيصوره كأنما هو من عمل الطبيعة ، لا من صنع الإنسان ، ويتخيله كئيبا أزعجه فراق صاحب يؤنسه أو زوج أرهقه طلاقها ، فانقلبت سعادته شقاء ، ومع ذلك فهو يكافح أحداث الدهر ، والدهر يريد تحطيمه . . إنه جليل فى العين لم ينقص من جلاله خلوه من البسط والستور .

ويتساءل البحترى فى دهشة مما أحاط به ، وتملكة من جلال روعة صنع هذا الصرح : أهو من صنع الإنس للجن ، أم من صنع الجن للإنس ؟ .

ويمضى البحترى متخيلا ماكان عليه القصر من ازدحام الوفود ببابه وامتلائه بالمغنيات يخطرن فى أرجائه ، وكأنما كان ذلك من وقت قريب وكأنما قد فارقه السكان أمس أو أول أمس .

ويختم القصيدة بدمعة يذرفها على هذا القصر الذى عمر بالسرور دهراً ثم صار موطن عزاء وتأس .

وهنا يذكر الشاعر البحترى أسباب تمجيده لهذا الأثر العظيم ، وهى : أيادى الفرس على العرب فى إقامة الدولة العباسية وتثبيت أركانها ، وأياديهم كذلك فى القديم فى طرد الحبشة من أرض اليمن ، وسبب آخر كذلك هو أن الشاعر رجل يحب الماجدين من أى شعب وأية أمة .

وصف الطبيعة :

ويتصل بشعر الوصف شعر الطبيعة ووصفها اتصالا وثيقا .

فالطبيعة توحى للشعراء فى كل عصر بكثير من المعانى والآثار الأدبية الرائعة ، وقد افتتن بها الشعراء وصوروها فى مختلف مظاهرها ورسموا لها صورا تجمع غالبا بين صدق الأداء وبراعة الوصف وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس .

صورها شعراء الإغريق وخاصة هوميروس فى إلياذته [1] ، كما صورها الشعراء الجاهليون فى قصائدهم وآثارهم التى تشابهت رغم تعددها وخلت من مظاهر التنوع والكثرة وخصوبة التصوير ، ولكنها على أى حال صورة صادقة لتلك البيئة ، فامرؤ القيس فى معلقته يذكر المطر والبرق كما يذكر يوم الغدير ولذاته فى نظرة عابرة ، والأعشى يصف روضة من الرياض فى لاميته ؛ وعنترة يصف الذباب وهو يغنى بها فى معلقته كما يصف فرسه والمعارك التى خاضها ، وهكذا تجد فى الشعر الجاهلى والإسلامى صورا كثيرة لمظاهر الطبيعة القريبة من نجوم وسماء وأنهار وأماكن وقفار ورمال .

وفى العصر العباسى أخذ الشعراء يهتمون بأوصاف الطبيعة من ربيع ورياض وأزهار وأنهار وبرك ، ومن سماء ونجوم وكواكب ، ورائية أبى تمام فى الربيع ، وهائية البحترى فى وصف بركة المتوكل وجيميته فى الربيع

---

(١) ويرى بعض الباحثين أن شعر الطبيعة شعر حديث ليس له صلة بالأدب اليونانى القديم (راجع ٩٨ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) .

ملاحظة : شعر الطبيعة هو الشعر الذى يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، والطبيعة : الحى مما عدا الإنسان ، والصامت كالحدائق والحقول والغابات والجبال وما إليها (ص ١ : شعر الطبيعة فى الأدب العربى تأليف السيد نوفل ط ١٩٤٥)

مثل جيدة لشعر الطبيعة فى هذا العهد . وللغزال يحي بن الحكم البكرى الشاعر الأندلسى المشهور لامية مشهورة [١] وصف فيها البحر ورحلته إلى قسطنطينية موفداً من قبل عبد الرحمن بن الحكم بن هشام عام ٢٢٥ هـ إلى امبراطور الروم فى مهمة سياسية ومنها :

قال لى يحيى وصرنا   بين موج كالجبال
وتولتنــــا رياح   من دبور وشمال
فرأينا الموت رأى   العين حالا بعد حال

ولعبد الصمد بن المعذل قصيدة طويلة فى روضة جميلة [٢] ، واشتهر السرى والصنوبرى م ٣٣٤ هـ ، والتنوخى م٣٨٤ هـ بالروضيات [٣] ، ولابن وكيع م ٣٩٣ هـ قصائد فى الرياض [٤] .

وفى الحق أن العباسيين قبل أبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز كانوا قلما يلجأون إلى تصوير الطبيعة التى عاشوا فيها ، وقد ألم بها البحترى وأبو تمام إلماما دون أن يتصل حبها بأعماق قلبيهما ، وأقبل ابن الرومى عليها يصورها تصوير العاشق المفتون حيث أولع بالطبيعة وتصويرها وكان يحبها حبا جما فلا فرق عنده بين الطبيعة والشعور ولا يكاد ينظر إلى إنسان إلا تذكر الروضة والبستان [٥] ، وقد علل العقاد ذلك بيونانيته [٦] .

---

(١) ١٤٤ : ١ نفح الطيب .
(٢) ١٥ : ٢ ديوان المعانى ، وراجع ٤٠ : ٢ المرجع نفسه .
(٣) ٣١ : ٢ المرجع .
(٤) راجع ٣٢٩ - ٣٣١ : ١ اليتيمة .
(٥) راجع ٢٨٢ - ٢٨٨ ابن الرومى للعقاد .
(٦) ٢٨٢ المرجع ، وينقد ذلك الرأى صاحب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » (٩١ و ٩٩) .

وو راثته اليونانية أصل فنه الأدبي عند العقاد، ويضيف إليها طه حسين الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان يتثقفها الشعراء في القرن الثالث (١) ، ففيه يونانية أصلية ويونانية مكتسبة أهم من الأولى ، وفيه أيضا إسلامية مكتسبة فني فنه عناصر ثلاثة تؤثر فيه لا عنصر واحد (٢) :

وكان ابن المعتز شاعر الطبيعة (٣) ووصافها الممتاز ، وله كثير من الآثار في وصف شتى مظاهرها من رياض وأزهار وقصور وطيور وبرك وميادين ومن نجوم وكواكب وأفلاك وسوى ذلك من شتى أوصاف الطبيعة ، كان يعيش مع الطبيعة عيشة الهائم المتبتل والفنان الشادي والمصور المفتون ، منحها شعوره وشعره وهيامه وفنه أكثر من أي شاعر آخر سبقه وأولع بتصوير كثير من مظاهرها المتعددة .

وإن شئت فانظر إلى تصويره للربيع ، حدث جعفر بن قدامة قال : كنت أسرح مع ابن المعتز في يوم من أيام الربيع بالعباسية والدنيا كالجنة المزخرفة فقال :

حبذا آذار شهر فيه للنور انتشار
ينقص الليل إذا جا ء ، ويمتد النهار
نقشه آس ونسر ين وورد وبهار (٤)
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

---

(١) ٢٣٧ من حديث الشعر والنثر .

(٢) ٩٣ الفن ومذاهبه .

(٣) ويقول أحد الباحثين عنه : كان يحب الطبيعة ويفتن بها لكنه تستهويه الصورة قبل كل شيء ، وهو في إخراجه للصور والأشكال يحتال ويتأنق ويكتفي بالإشارة ويستخدم براعة عجيبة (١٨٢ شعر الطبيعة في الأدب) ، فهو مفتون بالطبيعة يرى فيها صوراً جذابة (١٨٨ المرجع) .

(٤) ١٤٥ : ٩ الأغاني .

فكأن الروض وشى بالغت فيه التجــــار

وانظر إليه يصف الروض والأزهار والطبيعة :

والروض مغسول بليل ممطر جلالنا وجه اثرى عن منظر
كالعصب أو كالوشى أو كالجوهر من أبيض واحمر واصفر
والشمس فى اضحاء جو أخضر كدمعة حائرة فى محجر
نسق عقارا كالسراج الأزهر يديرها كف غزال أحور
تخبر عيناه بفسق مضمر يعلم الفجور من لم يفجر

وأبو هلال يعجب بهــــذه الأوصاف (١) ؛ ومن شعره كذلك فى وصف روضة :

تضاحك الشمس أنوار الرياض بها كأنما نثرت فيها الدنانير
ويأخذ الريح من دخانها عنقا كأن تربتها من مسك كافور (٢)

ويقول :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل النساء تبرجت لزناة
والريح قد باحت بأسرار الندى وتنفس الريحان بالجنات

وهو من قول ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر
تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدت للذكر

ومن روائع شعر الطبيعة قصيدة أبى تمام فى وصف الربيع ، ومنها :

---

(١) ١٦ : ٢ ديوان المعانى .
(٢) ٢١٤ : ١ فوات .

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حليه يتكسر (١)
بذلت مقدمة المصيف حميدة ... ويد الشتاء جديدة لا تكفر (٢)
لولا الذي غرس الشتاء بكفه ... قاسى المصيف هشائماً لا تثمر (٣)
كم ليلة آسى البلاد بنفسه ... فيها ويوم وبـله مثعنجر (٤)
مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يقطر (٥)
غيثان فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث مضمر (٦)
وندى إذا دهنت به لمم الثرى ... خلت السحاب أتاه وهو معذر (٧)
أربيعنا في تسع عشرة حجة ... حقا فإنك للربيع الأزهر (٨)
ما كانت الأيام تسلب بهجة ... لو أن حسن الروض كان يعمر (٩)
أولا ترى الأشياء إن هي غيرت ... سمجت وحسن الأرض حين تغير (١٠)
يا صاحبي تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور (١١)

---

(١) تمرمر : تتمايل ، الثرى : التراب ، الحلى : الزينة ، يتكسر : يتثنى .
(٢) بذلت : امتهنت .
(٣) الهشائم جمع هشيم وهو النبات اليابس المتكسر .
(٤) آسىء : ساوى أو أنال ، الوبل : المطر ، المثعنجر : السائل من المطر .
(٥) الغضارة : الخصب والسعة ، يقطر : يسكب الماء .
(٦) الغيث : المطر ، الأنواء : تجمع الأمطار .
(٧) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن أضافها للثرى وهي الأرض مجازاً . خلت : ظننت ، المعذر : الذي نبت له عذار وهو الشعر النازل على اللحيين .
(٨) الحجة : المرة والسنة .
(٩) يعمر : يعيش كثيرا .
(١٠) سمجت : قبحت .
(١١) تقصيا : تتبعا آخره .

ترِيا نهاراً مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر (١)
دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنور (٢)
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدر (٣)
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر (٤)
حتى غدت وهداتها ونجادها فئتين فى حلل الربيع تبختر (٥)

إن الربيع سحر وشباب . وروعة وجمال . ونور ونور . وورد وزهر ، وطبيعة طلقة متفتحة ، وحياة فتية متجددة ، والربيع دائما قد ألهم الشعر روائع القصائد ، وغرر الفرائد والقلائد فلا بدع أن يلهم الشاعر العربى الكبير الخالد أبا تمام فينطق بهذا الوصف الرائع الجميل .

يقول أبو تمام : إن الدهر بمقدم الربيع رقت حواشيه فهى تمايل ، والثرى امتلأ زهورا ونباتا فهو يتمايل بتمايلها .

والربيع قد اشترك فى ميلاده مقدمة المصيف الحميدة ويد الشتاء الجديدة التى لاتكفر . فلولا غراس الشتاء الذى قدم بكفه له بالماء والنماء لما أثمر الربيع زهرا وروحا وريحانا ، ولرعى الناس فى الصيف هشائم لاتنبت ولا تثمر .

وكم ليلة أعطى الربيع البلاد فيها بنفسه وجوده ، وكم يوم أغدق على

---

(١) شابه : خالطه ، الربى : التلال . (٢) النور الزهر .
(٣) ترقرق : تجرى جريا سهلا ، تحدر : تسكب الدمع .
(٤) الجميم : النبات المغطى الأرض ، العذراء : البكر ، تخفر : تستحى .
(٥) الوهدات : المنخفضات . النجاد : المرتفعات ، الفئة : الطائفة ، الحلل : الثياب ، تبختر : تمايل .

الحياة والناس المطر والماء فتنقلب الأرض على يديه من صحو إلى غيم ومطر، ومن مطر إلى صحو مشرق فتان نضر يكاد من خصبه يسيل الماء، فالأرض بالربيع فى غيثين: غيث ظاهر هو المطر المنسكب، وغيث خفى هو الصحو غب المطر الذى تمتلىء الأرض فيه بالنبات والزهور، وفى الربيع يتساقط الندى على وجه الأرض حتى ليظن أن السحاب مطرها مطرا خفيفا.

ثم يخاطب الشاعر الربيع الذى صادف بدؤه فى التاسع عشر من ذى الحجة أو فى عام ٢١٩ هـ. فيقول له: إنك حقا للربيع الأزهر المشرق الجميل.

ويذكر الشاعر أن الربيع سوف ينتهى وحسنه سوف يتبدد، وجماله سوف ينقص. فيقول فى أسف: إن الدهر ما كان يسلب بهجته لو أن حسن الرياض كان دائما أبداً لايزول ولا يحول.

ثم يقول الشاعر إن من الأشياء ما إذا ناله تغيير قبح وصار دميما ولكن حسن الأرض وجمالها فى تغيير الفصول من شتاء إلى ربيع إلى صيف لخريف، والفصول تسير حتى تكتمل بالربيع، الذى تكتمل به الأرض بهجة وجمالا.

ثم يخاطب صديقيه المتخيلين فيقول لهما: لو أنكما أمعنتما النظر لرأيتما كيف تنتقل الأرض من حالة إلى حالة وكيف تبدو كل يوم بوجه جديد، والذى يمعن النظر للطبيعة فى الربيع يعجبه منظر شعاع الشمس الذى يتساقط بالنهار على الزروع وعلى زهور الربى، فيبدو النهار وكأنما هو ليل مقمر منير.

وما أروع منظر الدنيا فى الربيع، إنها قبله دنيا معاش وسعى للناس، فإذا حل الربيع فإنها تنقلب فتصبح دنيا جمـــال وبهجة وسرور ومتعة خالصة.

وما أروع منظر الزهور بين الحشائش والنباتات حيث تبدو تارة وتحجبها النباتات أخرى ، فكأنها عذراء تظهر محاسن وجهها تارة ، ثم تختفى تارة أخرى ، وما أبدع ما اكتست به هضاب الأرض ووهادها من نبات وحشائش حتى لتبدو وكأنها فتيات وجماعتان تتمايلان فى حلل الربيع . حيث تأخذ بطونها تخرج على ظهرها الزهر والزروع والنبات الذى تكاد القلوب تنور به ا واعجب لما تخرجه الأرض فى الربيع من زهرة تترقرق بالندى فتتفتح ويتساقط من فوقها حتى لتظنها عينا تطل عليك وترنو إليك .

وهكذا يصف أبو تمام الربيع وأثره فى إيقاظ الطبيعة ، وإحياء الأرض وما تمتلىء به الدنيا فيه من جمال ونضرة وحسن ساحر .

وفى أسلوب أبى تمام كثير من ألوان الصناعة الشعرية ، وكثير من صنعة البديع من طباق وجناس ومقابلة وسواها ، وذلك فن اشتهر به أبو تمام ، وتفوق فيه . ولغة أبى تمام هنا حسنة وألفاظه فيها بعض الغرابة : ومن بين ألفاظه لفظة « مثعنجر » .

ووصفه للربيع فى جملته وصف لمظاهره المادية الخارجية .

وللصنوبرى (٣٣٤ ﻫ : ٩٤٥ م) (١) فى الربيع :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة	والأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف النخل مخترفا	فالأرض عريانة والجو مقرور
وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا	فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا	جاء الربيع أتاك النور والنور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا	تغرر فقايسه بالصيف مغرور

والصنوبرى من كبار شعراء الطبيعة فى الأدب العربى ، يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسماء والضياء والهواء ، مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، وكان كشاجم صديقا له .

(١) ١ : ٦١ فوات الوفيات لابن شاكر .

الصيد والطرد :

من باب الوصف شعر الطرد والصيد ، وقد كثر فى العصر العباسى الصيد ووصف افتراسه ، وكان مألوفا ببساطة فى الشعر الجاهلى لأنه كان مألوفا فى الحياة الجاهلية الساذجة ، وفى شعر النابغة مثل كثيرة له ، وكذلك عند بعض الشعراء سواه : وفى العصر الإسلامى هجر الناس اللهو وعاشوا حياة كلها جد وإقدام ونشاط وعمل، فانصرفوا عن الصيد إلا قليلا منهم كالشمردل ابن شريك[١] فله فى الصيد والطرد أراجيز حسان[٢] .

وفى العصر العباسى نبغ أبو نواس فى الطرد وكاد أن يخلق هذا الباب خلقا جديداً ، فنظم الأراجيز فى وصف كلاب الصيد : وآلاته وافتراسه ووصف الرحلات التى كان يقوم بها للصيد واشتهر بالإجادة فى هذا الباب وعكف عليه تجويداً وتجديدا ولم يتابعه أحد من الشعراء بعده فيه إلا ابن المعتز الذى اشتهر بالصيد والطرد شهرة أبى نواس[٣] ، ويشيد بطردهما الحاتمى فى مناظرته للمتنبى[٤] ، وللناشىء م ٢٩٣ هـ طرديات على أسلوب أبى نواس[٥] .

وقد وصف "شعراء الصيد ورحلاته وآلاته من كلاب وفهود وبزاة وغربان وصقور وسواها من أسلحة ، ووصف لذاته به ولهوه فيه ، كل ذلك فى قصائد يغلب أن تكون من الرجز ويغلب عليها صبغة الغريب ، وهى مع ذلك

---

(١) شاعر إسلامى من بنى غطفان وكان شاعر فصيحاً وفارساً شجاعا (٣٦٦: ١ شرح الحماسة) .

(٢) ١٣٩ المؤلف . (٣) ٢٨٠ : ٢ العمدة ، ١٢٥ : ٣ الرافعى .

(٤) ٥٠٩ : ٦ معجم الأدباء .

(٥) ٤٧١ : ١ وفيات الأعيان .

جميلة ساحرة دقيقة الوصف والتصوير والتشبيه ، وطرديات ابن المعتز هى الباب السابع من ديوانه ، وفيها كثير من الصور البيانية الجميلة والتشابيه الساحرة البديعة مما يرفع من مكانته فى هذا الفن الذى لا ينطق فيه إلا القليل من الشعراء ، يقول يصف كلبة الصيد :

لما تعرى أفق الضياء ... مثل ابتسام الشفة اللمياء
وشمطت ذوائب الظلماء ... قدنا لعين الوحش والظباء
داهية محذورة اللقاء ... تحملها أجنحة الهواء
أسرع من جفن إلى إغضاء ... ومخطفا موثق الأعضاء
كأثر الشهاب فى السماء ... ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء ... كوردة السوسنة الشهلاء
ذا برثن كثقب الحذاء ... ومقلة قليلة الأقذاء
صافية كقطرة من ماء

ويقول :

لما غدونا بسحر ... نأخذ أرضا ونذر
وقام رام فابتدر ... أوتر قوسا وحسر
إذا رمى الصف انتثر ... فارتاح من حسن الظفر

ويصف كلاب الصيد فيقول :

عواصف مشابهات الأمد ... لما عدون وعدت خيل الطرد

فيبلغ نهاية الجودة فى تشبيهها بالعاصفة ، ويشبهها بزوبعة الريح فيقول :

وزوبعة من بنات الرياح ... تريك على الأرض شدا عجب

لها مجلس فى مكان الرديف كتركية قد سبتها العرب

وقال فى البازى :

يحز أعناق الرياح حزا
وسامها قبضا ونقدا وخزا
يطلب فى رؤوسهن كنزا

والبيت الأخير فى نهاية الروعة والجودة ، ويقول فى كلبة صيد :

وكلبة غدا بها فتيان أطبقهم من يده الزمان
كأنها إذا تمطت جان والنجم فى مغربه وسنان
والصبح فى مشرقه حيران كأنه مصبح عريان

فستجد روعة لا يماثلها روعة فى التصوير والوصف .

الخمريات :

ومن الوصف شعر الخمريات ، وهو كثير فى العصر العباسى ووصف الخمر ومجالسها قديم فى الشعر العربى ، وكان الأعشى إمام هذه الصناعة فى الجاهلية [١] ، وممن ألموا بوصفها عمرو بن كلثوم فى معلقته ، وبعد عهد الجاهلية اشتهر بوصفها أبو محجن الثقفى [٢] وعمرو بن حسان بن هانى [٣] ويزيد بن معاوية [٤] والوليد بن يزيد [٥] وقد ذهب به الشراب كل

---

(١) ٢٤ حلبة الكميت للنواجى . (٢) ١٦٢ الشعر والشعراء .
(٣) ٢٣٢ معجم الشعراء .
(٤) ٩٧و٣٤٢ حلبة الكميت ، وله فيها أشعار (٣٠ و ٤٠ و٤٨و١٢٢و١٣٩ حلبة الكميت) وربما كان ذلك من دعاية خصومه السياسيين .
(٥) ٩٨ حلبة الكميت ، والأغانى .

مذهب (١) ، ثم أبو الهندى (٢) .. وجاء العصر العباسى وأغرق الشعراء فى وصف الخمر ، وبالغوا فى ذمها وأسرفوا فى الحديث عنها ، والدعوة إليها ، وجعلوا القصيدة وقفا على هذا الفن أو استهلوها بتحسين شربها ، بدلا من وصف الأطلال . أما قبل هذا العصر فلم يكن واصف الخمر فناً مستقلا من فنون الشعر . وكان الشعراء يلمون بها إلماماً ، ويتحدثون عنها فى غير إغراق ولا سرف . حتى جاء أبو الهندى عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحى من مخضرمى الدولتين ، وكان رقيق الدين ، فاسد الخلق ، مدمناً للخمر ، فأخذ يشيد بها ويحض عليها ويزينها للناس ، كما فى قوله :

قل للسرى أبى قيس أتهجرنا ... ودارنا أصبحت من داركم صددا
أبا الوليد أما والله لو عملت ... فيك الشمول لما فارقتها أبدا
ولا نسيت حمياها ولذتها ... ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

ثم جاء أبو نواس وندماؤه ، فقدموها فى المطالع ، وأفردوا لها القصائد ، وأمعنوا فى نعتها ماوسعهم الإمعان ، وأغرقوا فى مدحها ما وجدوا السبيل إلى الإغراق ، وأكثروا من القول فيها حتى غلبت على شعرهم ، وحتى بلغ ما قاله أبو نواس فيها بضعة آلاف من الأبيات .

ومن فرائده الخمرية :

ياشقيق النفس من حكم ... نمت عن ليلى ولم أنم (٣)
فاسقنى البكر التى اختمرت ... بخمار الشيب فى الرحم (٤)

---

(١) ٣٢٨ : ٤ العقد ، وراجع ترجمته فى مهذب الأغانى (٥٧ - ٩٢ : ٧) ، والوليد هو الذى جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها وأخبارها ولغاتها (١٣٤ فهرست) .

(٢) ٢٢ و ٩٦ حلبة الكميت ، ٤١ : ٢ الكامل ، ٣٢٢ : ٤ العقد ، ٥٨ - ٦١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٣) حكم : مخلاف من اليمن ينسب إليه أبو نواس .

(٤) خمار الخمر مايعلوها من الزبد .

ثمت انصات الشباب لها بعد ماجازت مدى الهرم (١)
فهى لليوم الذى بزلت وهى ترب الدهر فى القدم (٢)
عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم ماثلة ثم قصت قصة الأمم
قرعتها بالمزاج يد خلقت للسيف والقلم
فى ندامى سادة زهر أخذوا اللذات من أمم
فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح فى الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

ولابن طباطبا (٣٥٢ هـ) :

أأترك الشرب والأنوار دائمة والطل منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب والورد فى العود مطوى ومنثور
لا ، والتى تركتنى يوم فرقتها كأنما الرمل فى عينى منثور (٣)

وهذه هى سينية أبى نواس المشهورة فى وصف الخمر ، قال أبو نواس فى الخمر :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس (٤)
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان : جنى ويابس (٥)

---

(١) انصات أجاب . (٢) بزلت بالمجهول صبت وسالت .

(٣) ٤٩ المغرب لابن سعيد .

(٤) الندامى جمع ندمان جليسك على الشراب . عطلوها أخلوها ، والإدلاج السير أول الليل ، والدارس البالى . يريد الشاعر داراً اجتمع فيها بصحبه وشربوا فيها الخمر ثم تركوها وتركوا فيها آثاراً جديدة وقديمة بالية .

(٥) الزقاق جمع زق وعاء الخمر . الثرى التراب الندى أراد الأرض ، والأضغاث جمع ضغث الحزمة من العشب ، والجنى الحديث العهد بالقطع . وهذا البيت بيان الأثر الذى تركوه من الخطوط على الأرض من جر الزقاق ومن حزم الرياحين اليابسة لطول العهد على قطعها والحديثة التى قطعت لوقتها .

حبست بها صحبي وجددت عهدهم   وإنى على أمثال تلك لحابس(١)
تدور علينا الراح فى عسجدية   حبتها بأنواع التصاوير فارس(٢)
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها   مهاً تدريها بالقسى الفوارس(٣)
فللخمر مازرت عليه جيوبهم   وللماء مادارت عليه القلانس(٤)

دراسة لهذه القصيدة :

أقام أبو نواس أياما فى رفقة كريمة عليه يتمتعون فى ظل عيش رخى ، وحياة خالية من الهموم ، تدار عليهم الخمر فى كئوس ذهبية فأراك صورة الشرب يتساقون الكئوس ويتهادون بالرياحين وقد ذبل بعضها وبقى بعضها غضا جديداً كعهـــد الشاربين به ، وأراك الكئوس الفارسية وقد تأنق صانعوها فزينوها بصور تزيدها جمالا ، فهذه صورة كسرى فى قرارة الكأس وفى جوانبها فوارس تصطاد الوحش ، وأراك مقدار الخمر فى الكئوس وكمية الماء فيها .

---

(١) يريد أنه ألزم من صحبه هـذه الدار حيث توفروا على اللهو والشراب وأعادوا العهد على مثل هذا العبث ، وهو حريص على أمثال هذه شديد الاهتمام بها .

(٢) الراح الخمر . والعسجدية منسوبة إلى العسجد أى الذهب ، والمراد أن الكأس مذهبة ، وحباها منحها . وفارس : الدولة المعروفة .

(٣) قراراتها أسفلها ، والمها جمع مهاة البقرة الوحشية . وادرى الصيد ختله . والقسى جمع قوس . والفوارس جمع فارس راكب الفرس ــ والمعنى أن الكاس محلاة بصورة كسرى فى أسفلها ، أما جوانبها فحلاة بصور فرسان ينتهزون غفلة المها ليرموها بسهام أقواسهم .

(٤) الجيب طوق القميص . والقلانس جمـــع قلنسوة ، يقول : إنهم كانوا يشربون الخمر ممزوجة ، يصبون الخمر حتى تبلغ أعناق صور الفوارس ثم يمزجونها بالماء حتى تغطى رؤسهم .

وهذه القصيدة تصور لك ثورة أبى نواس على القديم فهو فيها لايبكى طللا ولايقف على رسم ، إنما يبكى داراً للهو والمجون قضى فيها أياما ثم تركها وفى نفسه حنين إليها وشوق إلى استعادة مثلها . وقد كان أبو نواس ينعى على المقلدين من الشعراء وصفهم لحياة البادية وهم يعيشون فى حياة حضرية بلغت الذروة فى الرقى الاجتماعى والثقافى .

وشاعرية أبى نواس كما تبدو فى هذه القصيدة قوية فياضة متأججة الشعور مضطرمة العاطفة ، ملتهبة الإحساس ، والشاعر هنا مؤمن بالتجديد حريص عليه يسير على أسلوب القصيدة العربية ومنهجها فى شعره فى كل شىء ؛ إلا فى عرض قصيدته ، الذى كان جله فى وصف الخمر ، والدعوة إلى ترك مساءلة الأطلال .

وقد كان أبو نواس مفخرة من مفاخر العربية وآدابها ، وكان شعره من أقوى مظاهر التجديد فى الشعر العباسى ، لذلك عد رأس مدرسة من مدارس المحدثين بعد بشار ومدرسته الشعرية . وقد جمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى ، وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه شاعرنا منهم وصب على قوالب معانيه : بشار بن برد . وقد كانت أكثر معانى أبى نواس المبتكرة وتشبيهاته البديعة فى الخمريات التى فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نسب إليه من الخمريات إن صدقا أو كذبا ؛ ثم فى الغزل بالمذكر ، ولاغرابة فى ذلك نعنه وعن شيطانه والبة شاع هذا النوع وذاع ، ومن معانيه استمد شعراء المولدين بعده . على أن له فى الأغراض الجدية معانى لم يحم حولها شاعر ، كما أن له فيها وفى غيرها معانى مبتكرة .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف الردىء والمكرر ، وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيوناً . فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة . وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة راعى أسلوب الحضريين فى دماثته ولينه ورقة نسجه . ومهد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ، ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك ، وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد . وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب .

الحكمة :

الحكمة هى آثار التفكير فى الإنسان والمجتمع والوجود والحقائق والأشياء وهى ثمرات العقل الإنسانى والإحساس الفكرى بالحياة .

والحكمة قديمة فى الشعر العربى نجدها فى الجاهلية فى شعر زهير وأضرابه وفى الإسلام فى شعر كعب الغنوى (١) وكثير من الشعراء ، وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور شاعرا ذا حكمة فى شعره (٢) .

وكان عمران بن حطان أشعر الناس فى الزهد (٣) ، وكان القطامى كثير الأمثال فى شعره (٤) وكان أبو بكر بن محمد بن عبيد الله الكوفى جل أشعاره آداب وأمثال وأدرك الدولتين (٥) . ثم جاء عصر المحدثين ،

---

(١) كان يقال له كعب الأمثال لكثرة مافى شعره من الأمثال (٢٤١ معجم الشعراء) . (٢) ١٧٢ المؤتلف للآمدى .

(٣) ٩١ المرجع .

(٤) ٢٤٤ معجم الشعراء .

(٥) ٤١ المرجع .

فأكثروا من الحكمة كصالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ومحمود الوراق ، كان صالح من الشعراء الفلاسفة وجميع شعره فى الحكمة والأمثال ، وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها وله كتاب سماه الشكوك [١] وكان أبو العتاهية لا يكاد يخلى شعره مما تقدم من الأخبار والآثار [٢] ، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال [٣] ، وكان أكثر شعر محمود الوراق أمثالا وحكما ومواعظ ، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس [٤] . ولأبى تمام كثير من الحكم الاجتماعية فى شعره .

وكانت الحكمة فى العصر الجاهلى مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة فى الحياة ، وفى العصر الإسلامى كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما فى التفكير والأخلاق والاجتماع ، وفى بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية التى احتذاها الشعراء ونظموا كثيراً من معانيها ، ثم جاءت الفلسفة والحكمة اليونانية ، فلقحت العقول بلقاح جديد ظهر أثره فى هذا الفن فى العصر الثانى على يد أبى تمام م ٢٣١ هـ، وابن الرومى م ٢٨٣ هـ والناشىء الأكبر ٢٩٣هـ ثم المتنبى والمعرى .

ويصف المتنبى الحياة والناس فيقول فى حكمة عالية [٥] .

---

(١) ١٣٢ و ١٣٣ جـ ٣ الرافعى .

(٢) ٢٣٨ جـ ١ الكامل للمبرد .

(٣) ١٢٢ جـ ٤ الأغانى .

(٤) ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٥) المتنبى شاهد أواخر العصر العباسى الأول وأوائل العصر العباسى الثانى فهو مخضرم .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه   وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه   ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الد   هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن   نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا   كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى   لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تكون جبانا

الزهد :

وهو فن جديد نشأ فى الشعر العباسى بتأثير كثرة الترف ، والدعوة إلى الرجوع إلى البساطة ، وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ، ونقد المجتمع ، على أن فى شعر الزهد جانبا من جوانب الدين الذى يوجب البساطة فى كل شىء ، ومن شعراء الزهد فى هذا العصر : أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبان بن عبد الحميد الكاتب ، الذى نظم كتاب كليله ودمنة للسمر والموعظة ، وقد أخذ الشعراء ينظمون فى هذا الباب وإن لم يكن لهم فيه مضمار ، كأبى نواس وغيره .

ونماذجه فى ديوان أبى العتاهية كثيرة ، فقد أكثر أبو العتاهية فى شعره من الدعوة إلى الزهد والرغبة عن الملذات والانصراف عن الدنيا ، فهو يقول فى شعره :

رغيف خبز يابس   تأكله فى زاوية
وكوز ماء بارد   تشربه من صافية
وغرفة ضيقة   نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل   عن الورى فى ناحية

تدرس فيه دفترا مستندا بسارية
خير من الساعات فى فىء القصور العالية

ومع ذلك فقد كان فى ثراء عريض (١) .

ويقول أبو العتاهية يخاطب الخليفة ، مصورا فى شعره للغلاء فى بغداد :

من مبلغ عنى الإمام نصائحا متوالية
إنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية
وأرى غموم الدهر را ئحة تمر وغادية
يرجون رفدك كى يروا مما لقوه العافية
من يرتجى للناس غير ك للعيون الباكية ؟
من مصبيات جوع تمسى وتصبح طاوية
من يرتجى لدفاع كرب ملمة هى ماهية ؟
من للبطون الجائعا ت وللجسوم العارية ؟
يا ابن الخلائف لا فقد ت ولا عدمت العافية
إن الأصول الطيبا ت لها فروع زاكية
ألقيت أخبارا إليـ ـك من الرعية شافية (٢)

---

(١) راجع ١٣٩ و ١٥٣ ج ١ ضحى الإسلام .
(٢) ٣٠٤ ديوان أبى العتاهية .

الفخـــر :

١ — يرى ابن رشيق أن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه[١] ، ويراه أديب محدث تأريخا لفضيلة الفرد والجماعة[٢] ، وفى الحق أن الفخر إشادة الشاعر بنفسه أو قومه وتنويهه بأدبه أو حسبه ، ولا يدعو إليه عاطفة الأثرة والأنانية فى كل وقت، بل قد يكون الشاعر مضطرا لأن يساجل خصومه ويسجل على أعدائه ماخفى عنهم من صفاته وآدابه ، أو ماجحدوه من مآثره وفضائله ، وليس من شك فى أن حب النفس عاطفة من العواطف ، وأن الشعر مجال للعواطف الشخصية والإنسانية جميعا ، والذى نطالب به الشاعر حين يفتخر هو الصدق والتجرد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعة التى لاتركن إلى الخيال بل إلى الواقع نفسه فى تصورها وتصويرها .

وللشعراء المحدثين ، ولابن المعتز من بين المحدثين مجال كبير فى الفخر ، وشعره فيه كثير ، ويشيد بفخره الأدباء والنقاد جميعا ، فيذكره ابن شرف منوها بافتخاراته الملكية وهماته العلوية[٣] ، ويقول الباقلانى : وتجد لابن المعتز فى مواقع شعره من القلب فى الفخر وغيره مالا تجد لغيره لأنه إذا قال:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا ... وسارت ورائى هاشم ونزار

أو قال :

قد ترديت بالمكارم دهرا ... وكفتنى نفسى من الافتخار

أنا جيش إذا غدوت وحيدا ... ووحيد فى الجحفل الجرار

أو قال :

أيها السائلى عن الحسب الأ ... طيب مافوقه لخلق مزيد

---

(١) ١٣٦ جـ ٢ العمدة . (٢) ٩٩ جـ ٢ الرافعى .

(٣) ٢٤٩ رسائل البلغاء .

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القرى فماذا تريد؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود

ويقول من قصيدة له :

وأسهر للمجد والمكرمات إذا اكتحلت أعين بالكرى

فانظره فى هذه القصيدة كلها ، ثم فى جميع شعره ، تعلم أنه ملك الشعر ، وأنه يليق به من الفخر خاصة ، ثم ما يتبعه مما يتعاطاه مالا يليق بغيره بل ينفر عن سواه (١) .

ولأبى نواس (٢) فى عزة النفس وهو من المعانى القريبة من الفخر ، والأبيات عالية الطبقة فى البلاغة ، ويصف فيها أبو نواس انفعالاته النفسية وصفا رائعاً :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبرا ـ أبر ـ (٣) على كبر
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبى وعرا (٤) يزيد على الوعر
أخالبه فى شكله ، وأجره (٥)
على المنطق المنزور (٦) والنظر الشزر (٧)

---

(١) ٢٠٩ و ٢١٠ إعجاز القرآن .

(٢) من شعراء الدولة العباسية (١٤٥ - ١٩٨ هـ) .

(٣) أبر (فعل ماض) فيكون معناها غلب وقهر ، ويصح أن تكون أفعل تفضيل فيكون معناها أعظم قهرا وغلبة . والمعنى من يتخذ غناه وسيلة لاستعباد إخوانه ، وتكبره عليهم ـ فإنى ألبس له كبرا يغلب كبره ويقهره ، أو كبرا أعظم قهرا وغلبة من كبره .

(٤) صعباً .

(٥) أطعنه ، أو أقطع لسانه .

(٦) القليل .

(٧) النظر الشزر ما يكون بجانب العين ، بغضا وإعراضا ، ومعنى البيت أنى أخالف الغنى المتعجرف فى كل ما يكون منه ، وأقطع لسانه وأوذيه ، لما يتكلفه من قلة الكلام والنظر الشزر .

وقد زادنى تيها[1] على الناس أننى ... أرانى أغناهم ، وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة ... إلى أحد حتى أغيب فى القبر
ولو لم أنل فضلا لكانت صيانتى ... فمى عن جميع الناس حسبي من الفخر

العتـــاب :

ومن نماذجه قول ابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم الشطرنجى :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ... أين ماكان بيننا من صفاء
كشفت منك حاجتى هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء
تركتنى ولم أكن سيىء الظن ... أسيء الظنون بالأصدقاء
يا أخى هبك لم تهب لى من سعـ ... ـيك حظا كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء
يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ... ه لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك إيا ... ى غرورا وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ... ك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء
ما بأمثال ماأتيت من الأمر ... يحـــل الفتى ذرى العلياء
بذل الوعد للأخلاء سمحا ... وأبى بعد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخلاف[2] يورق للعين ... ويأبى الإثمار كل الإباء

وفى أبيات ابن الرومى السالفة صورة لصناعته الشعرية ومذهبه فى نظم القصيدة ، فهو يعتمد على الحجاج العقلى وكثرة التـــوليد للمعانى

---

(١) كبرا .
(٢) هو شجر الصفصاف .

والاشتقاق لها والزيادة فيها والدخول إلى مغالقها . . وهو لايترك منطقا معقولا فى عتاب صديقه إلا ذكره ، ولا بابا من الأبواب يدخل منه لتأييد حجته إلا دخل منه ، وعتاب ابن الرومى هنا عتاب كله حجج وأدلة وأقيسة ، وهذا من باب المذهب الكلامى الذى ذكره علماء البديع فى المحسنات المعنوية للأسلوب .

وألفاظ ابن الرومى عذبة سهلة وأساليبه تلمس فيها بساطة التعبير ، وصدق العاطفة وعمق التجربة ودقته فى تناوله الفنى لأسلوب الصياغة الشعرية ، والتشبيه التمثيلى فى آخر هذه الأبيات تشبيه دقيق بليغ ، إذ شبه وعد صديقه الخلاب الخادع بمظهر شجرة الصفصاف الجميل المونق ، الذى ليس وراءه ثمرة ولا فائدة .

وابن الرومى شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث الهجرى ، ويعد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهى الطبقة التى كان من أبطالها : أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكان لها منهجها الأدبى الخاص ، الذى يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفى الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسى ، وأبوه ينحدر من عنصر رومى ، كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويعتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وولد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومى فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره . فلم يلبث أن أحاط بكل مايمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيراً يريد أن يعيش ، وجائعا

يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحا فحرموه العطاء، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء :

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى   عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزوداً بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فى حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التى يحياها فى عصره كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الإحساس ، فاشتد سخطه على الناس وأمطرهم وابلا من أهاجيه ، التى بغضته إلى الكثير وزادت من آلامه فى الحياة . تزوج فأعقب ثلاثة أولاد ففقدهم جميعاً. وفقد بعدهم أخاه ثم زوجته وأمه ؛ فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا فى هذه الطيرة التى لازمت ابن الرومى طول حياته؛عاصر المعتصم والواثق والمتوكل المنتصر والمستعين والمعتز ، والمهتدى والمعتمد ، وتوفى فى عهد المعتضد سنة ٢٨٣ ، أو ٢٨٤هـ كما يقول ابن خلكان .

وكان للدم الرومى وأثر الوارثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبيئته، ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ،كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى ، الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه ، فولدت فى نفسه روح السخرية ، وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذى امتاز به الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذه بشىء ،كما يقول يهجو مغنيا من قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقته فإنها نعمـــة من النعم
مجلسه مأتم اللذاذات والقصـــف وعرس الهموم والسدم
كأنى من طول ما أشاهده أشرب كأسى ممزوجة بدمى
إذا الندامى دعوه آونة تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء ، أثر واضح فى إجادته فن الرثاء ، وداليته فى رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ ﻫ ، وميميته فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ ﻫ (١) . وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين فى الشعر العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ، ويقول منها :

يا خليلى تيمتنى وحيد ففؤادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبى مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها فشقى بحسنها وسعيـــد
تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تميد
مد فى شأو صوتها نفس كاف كأنفاس عاشقيها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة : غناء وحسنا ما لها فيهما جميعا نديد
هى شىء لا تسأم العين منه ولها كل ساعة تجديد

---

(١) ذاد عن مقلتى لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام
، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

منظر ، مسمع ، معان من اللهـــو ، عتاد لمـا يحب عشيد

وكذلك نونيته فى يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومى الجيد ومنها فى وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتى يحملنها :

وقيان كأنها أمهـــات   عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا   مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى   بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه   وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده فى الوصف والتصوير ، كما أجاد فى وصف الخمر وفى وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ فى العتاب الغاية فى الجودة ، كما فى قصيدته فى عتاب أبى القاسم الشطرنجى ، التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء   أين ماكان بيننا من صفاء

وله آيات فى المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته فى أبى الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمرى ولـكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف   كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومى بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبى ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالى حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق (١) . كان بديع المعانى بعيدها ، كثير الاخـــتراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها ، لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة فى تشقيق المعانى وتفصيلها هى أخص خصائص شاعرية ابن الرومى ، ويقول ابن رشيق

(١) ٨٢ : ١ العمدة .

فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعانى ، أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت فى شعره أقل منها فى شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومى يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان فى ذلك أجود الشعراء ، وفى الغالب أن شعراء المعانى كابن الرومى وأبى تمام ، قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومى لايحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول النفس ، مما لايجاريه فيه إلا ابن هانىء الأندلسى ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص فى تناول كل معنى من معانيه بالإضافة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة فى تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة ، مؤلفة تأليفا منطقيا لاعوج فيها ولا ضعف ولا استطراد .

وخياله خيال يقظ ، حسى فى غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم العقل أحيانا ، أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد فى منزلته الأدبية مثل ابن الرومى ، أهمله صاحب الأغانى إهمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التى كانت بين ابن الرومى والأخفش ، أستاذ أبى الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومى كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا . وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومى كانت لا تزال متأججة اللهب ، لأهاجيه فى رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومى فى الشعر ، ونهجه فى نظم القريض . يقول القاضى الجرجانى عنه فى وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهى قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهى واقفة تحت ظلها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ

---

(١) الرسل : التؤدة .

منها (١) ، ويقول ابن رشيق فى عمدته : « وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٢) » . ويقول ابن شرف القيروانى فيه : « وابن الرومى شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ، ماليس له فى الإطراء ، ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٣) » . ويقول المعرى عنه فى رسالة الغفران : « وابن الرومى أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٤) » : ويقول فيه ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودى فيه : « كان من مختلق معانى الشعر ، والمجودين فى القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير فى الشعر العربى ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفى أذواقهم ، تفرده ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم (٥) . وقد صور ابن الرومى رأيه فى شعره فى قصيدته التى يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٦) والخشب ... اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن ... قصر فى الشعر ، إنه بشر

---

(١) ٥٤ وساطة .
(٢) ٢٢٥ : ١ العمدة .
(٣) رسائل الانتقاد .
(٤) ١٦١ — ١٦٤ رسالة الغفران .
(٥) مقدمة ديوان ابن الرومى للعقاد . (٦) قشر الشجر .

الهجاء والمجون :

كان الهجاء بباعث العصبية والخصومات السياسية مألوفا فى هذا العصر، يظهر فى باب الشعر السياسى ، ويتجلى فى ثوب التعصب القبلى ، ويستعلن فى الأحقاد الشعوبية .. وهناك لون جديد من الهجاء لم تدع إليه عصبية ، ولم تثره خصومة سياسية ؛ وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتنادر والتهكم ، إزجاء للفراغ وإظهاراً للبراعة فى التقبيح وتوليد المعانى فيه .

فلقد كان من أثر المدنية انتشار المفاسد ، وذيوع المثالب ، وكثرة الفجور ؛ كما كان من آثارها ارتقاء الأذواق ، حتى لم تعد تسيغ كثيراً من المناظر المألوفة من قبل ، أو ترضى عن كثير من العادات الشائعة حينذاك .

فلما ضعف الوازع الدينى . وتوفرت أسباب الراحة ، واتسعت أوقات الفراغ ، ولان جانب العيش . وجد الشعراء فى هذه السوءات والمثالب والمفاسد ، وفى تلك المناظر الشاذة ، والعادات القديمة ، مادة واسعة للهجاء، ومنبعاً فياضاً يستمدون منه مايتندرون به فى مجالسهم ، ويتفكهون فى أسمارهم ومايتسابقون فيه من إظهار البراعة فى الوصف والإبداع فى السخرية والإضحاك .

ولقد راحوا يتتبعون العورات ، ويتقصون العثرات ، ويترصدون العيوب ، ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة ونحو ذلك ،كما راحوا يذمون اللحى ، ويهزأون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ، ويستهجنون أصوات المغنين ، ويسخرون من عادات المتزمتين ، وصاغوا ذلك كله فى شعر مقذع مضحك، يغريك بالضحك من التصوير قبل أن يغريك بالإشفاق على من قيل فيه .

وهكذا شاع المجون وانتشرت سمومه ، بسبب المدنية والإباحية وضعف وازع الدين ، قالوا إن مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد وحماد

ابن اسحق ، فقال لهما : فيم تتحادثان ؟ قالا : فى قذف المحصنات ، فقال : أفى الأرض محصنة تقذفانها .

ومن شعر بشار يهجو بخيلا:

كأن عبيد الله لم يلق ماجداً ولم يدر أن المكرمات تكون
إذا جئته فى حاجة سد بابه ولم تلقه إلا وأنت كمين

وقال يهجو المهدى مشيراً إلى تفرد وزيره يعقوب بتدبير الأمور :

بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خلافة الله بين الزق والعود

ويقول أبو نواس يهجو بخيلا :

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلبه طوراً وطوراً يلاعبه
ويخرجه من كمه فيشمه ويجلسه فى حجره ويخاطبه
وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه
يكر عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه وينتف شاربه

ويقول كذلك فى قدر بخيل :

يغص بحلقوم الجرادة صدرها وينضج مافيها بعود خلال
وتغلى بذكر النار من غير حرها
وتنزلها عفواً بغـــير جعال

ويهجو البحترى الخثعمى بكبر الأنف فيقول :

رأيت الخثعمى يقل أنفاً يضيق بعرضه البلد الفضاء
سما صعداً فقصر كل سام لهيبته وغص به الهواء
هو الجبل الذى لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء

ولقد قرأنا لابن الرومى بعض صوره (الكاريكاتورية) البارعة .

رأينا تصويره الأحدب ، فلنشهد هذه الصورة لجحظة المغنى :

رأيت جحظة يخشى الناس كلهمو ... إذا همو عاينوه الفالج الذكرا
تخاله أبداً من قبح منظره ... مجاذباً وتراً أو بالعاً حجرا
كأنه ضفدع فى لجة هرم ... إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
لو كان لله فى تخليدنا قدر ... مع قربه ماأردنا ذلك القدرا

ويقول فى صلعة أبى حفص :

ياصلعة لأبى حفص ممردة ... كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها ... حتى ترن بها أكناف بغداذ

ويهجو عمراً فيقول :

وجهك ياعمرو فيه طول ... وفى وجوه الكلاب طول
والكلب واف وفيك غدر ... ففيك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى ... وما تحامى ولا تصول
وأنت من أهل بيت سوء ... قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات ... لكن أقفاءهم طبول
مستفعلن فاعلن فعولن ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه ... معنى سوى أنه فضول

ويقول :

لو أن قصرك ياابن يوسف كله ... إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

وهذه ليلة من ليالى أبى نواس الماجنة :

وأحور ذمى طرقت فناءه ... بفتيان صدق ماترى منهمو نكرا
فلما قرعنا بابه هب خائفاً ... وبادر نحو الباب ممتلئاً ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فناءنا ؟ ... فقلت له افتح ، فتية طلبوا خمرا

فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمراً بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله ... يجاذب منه الردف فى مشيه الخصرا
فقلت له : ما الاسم حييت قال لى ... دعانى أبى (سابا) ولقبنى (شمرا)
فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه ... نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلت له جئناك نبتاع قهوة ... معتقة قد أنفدت قدماً دهرا
فقال اربعوا عندى الذى تطلبونه ... قد احتجبت فى خدرها حقباً عشرا
فقلت فماذا مهرها قال مهرها ... إليك فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقلت له خذها وهات نعاطها ... فقام إليها قد تملى بنا بشرا
فشك بإشفاء له بطن مسند ... فسالت تحاكى فى تلألئها البدرا
وجاء بها والليل ملق سدوله ... مدلا بأن وافى محيطاً بها خبرا
ربيبة خدر راضها الخدر أعصرا ... فكانت لها قلباً وكان لها صدرا
إذا أخذتها الكأس كادت بريحها ... تخال بها عطراً وما مزجت عطرا
ومازال يسقينا ويشرب دائبا ... إلى أن تغنى حين مالت به سكرا

ومن مجونه قوله فى تفضيل الغلمان :

وعاذلة تلوم على اصطفائى ... غلاما واضحا مثل المهاة
فقلت لها جهلت فليس مثلى ... يخادع نفسه بالترهات
بذا أوصى كتاب الله فينا ... بتفضيل البنين على البنات

الرثاء :

قال أبو تمام يرثى محمد بن حميد الطوسى :

كذا فليجل الخطب، وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد ... وأصبح فى شغل عن السفر السفر (١)

---

(١) السفر : المسافرون ، يقول : إنه بموته انقطعت الآمال لأن الناس لم يكونوا يأملون إلا فيه ، وشغلت الناس الرزيئة فيه عن أسفارهم وقضاء حاجاتهم.

وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى ، وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله ، والثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر(١)
فتى دهره شطران فيما ينوبه : ففى بأسه شطر ، وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت إخمصك الحشر(٢)
غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى ثياب الموت حمراً ، فما دجا لها الليل إلا وهى من سندس خضر
كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه البأس والجود والشعر
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال : به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها وبزته نار الحرب وهو لها جمر(٣)

---

(١) يقول : إنه ما من قبيلة دحرت فى الحرب حتى فاض الدم من عيونها إلا ذكره الناس بالفخر لأنه هازمها .

(٢) يريد أنه قد ثبت للموت فلا تتحول رجله إلى أن يموت حتى كأن الحشر من تحتها .

(٣) بزته ، يقال بزه ثوبه وابتزه ، سلبه .

وقد كانت "ابيض المآثير في الوغى بواتر ، فهى الآن من بعده بتر(١)
أمن بعد طل الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نشر
إذا شجرات العرف جذت أصولها ففى أى فرع يوجد الورق النضر ؟
لئن أبغض الدهر الخئون لفقده لعهدى به ممن يحب له الدهر
لئن غدرت فى الروع أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الغدر
لئن ألبست فيه المصيبة طيئا فما عريت منها تميم ولا بكر
كذلك ماننفك نفقد هالكا يشاركنا فى فقده البدو والحضر
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه
وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعة بإسقائها قبرا ، وفى لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
عليك سلام الله وقفا فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وأبو تمام رأس مدرسة من مدارس المحدثين ؛ وهو أبو تمام حبيب ابن أوس الطائى ، يعد رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، وصاحب الطريقة التى تؤثر المعنى وتحتفل به وتتعمد الإكثار من البديع انتهت إليه زعامة الشعر فى عصره فلم يكن أحد من الشعراء يستطيع أن يجرى معه فى ميدان وحسبك أن البحترى سئل عن نفسه وعن أبى تمام فقال : إنما أكلت العيش به .

ولد بقرية جاسم على ثمانية فراسخ من دمشق عام تسعين ومائة من الهجرة ثم انتقل إلى مصر صغيرا فكان يسقى الماء بجامع عمرو وكان المسجد

---

(١) المآثير : جمع مأثور ، والسيف المأثور القديم المتوارث ، وبواتر : جمع باتر وهو القاطع . وبتر ؛ جمع أبتر ، أى مقطوعة .

إذ ذاك معهدا تدرس فيه العلوم والآداب فعكف على العربية يرويها ويدرسها حتى حفظ الكثير من شعر العرب ، ونبغ فى قرض الشعر ، ثم خرج إلى بغداد فمدح المعتصم ووزيره ابن الزيات والحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل ، ثم ولاه الحسن بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

وقصيدته هى فى الرثاء ، وهو أوسع فنون الكلام مجالا وأحفل أبواب الأدب بالحكمة ، وأحرى أن تجد فيه الخبر النادر والمثل السائر والموعظة البالغة ، والمرثى قائد عظيم طالما خرج إلى القتال حميداً ورجع مظفراً منصوراً ، ذلك القائد هو محمد بن حميد الطوسى من بنى نبهان قبيلة من طىء التى ينتسب إليها الشاعر .

خرج هذا القائد لمحاربة بابك الخرمى رئيس الطائفة المنسوبة إليه الخارجة على الخلفاء ، والتى ملأت الأرض فساداً ، وامتدت ثورتها من عهد المأمون إلى عهد المعتصم ، ولم يحالف الحظ القائد فى هذه المعركة فقتل سنة ٢٢٤ هجرية فرثاه أبو تمام بهذه القصيدة .

وقد بدأ القصيدة فعظم من شأن الخطب ووصف العيون التى لا تفنى ماء شئونها بالبخل ، ونسبها إلى التقصير ، فقد مات عميد الناس فى كل نائبة وموضع آمال العفاة والبائسين ، وذكر أنه مات مجاهداً فسهل موته السبيل إلى غزو البلاد وأنه طالما رجع من الغزو مظفراً منصوراً فأطلق ألسنة الشعراء بالثناء عليه وترك وراءه عيونا دامية تبكى قتلاها وتنعى موتاها ، وأن هذا المرثى قضى عمره بين يومين : يوم يقتل فيه الأعداء ويوم يحسن فيه إلى الفقراء :

فيوم لإلحاق الفقير بذى الغنى ويوم رقاب بوكرت لحصاد

ثم اعتذر عنه بأنه لم يقتل حتى أبلى بلاء حسنا ، وحتى تعطلت آلات

القتال فتثلمت السيوف وتكسرت الرماح ، وكانت السبيل إلى النجاة ميسورة والهرب من الموت ممكنا ، ولكنه آثر جميل الذكر وحسن الأحدوثة ما بقى الدهر ، ورأى صبراً على الموت أكرم ، وأن وقوف ساعة فى ساحة الموت تعقب حمداً وتورث مجداً :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

لقد عاش البطل جليداً ، وغدا إلى المعركة حميداً ، وسقط فى ساحة المجد شهيداً ، فما أتى الليل إلا وهو ينعم مع الشهداء فى دار الخلود . . ثم أقبل على عشيرته الأقربين يواسيهم فذكر أن الرزء عام والمصيبة شاملة حتى إن الفضائل تندبه وتبكى عليه وإن كان الصبر غير مستطاع فقد ذهب بذهابه ومثله لا ينسى لأنه كان كريم النفس عظيم الخلق رضى العشرة يغضى حياء وتواضعا .

ثم تعجب من الحرب كيف تقتل مسعرها ، ومن الفوارس كيف تفتك بحاميها، وذكر أن آلات القتال فقدت من يحسن استعمالها ويظهر فى الحروب مزيتها ، وأن الكرم ذهب من الناس فقد قطعت أصوله . وذبلت أوراقه ، ومص الثرى بقية الماء من العود فأصبح هشيما تذروه الرياح ، ثم وصف العيش بعده بأنه مر لا يطاق . والحياة بغيضة يهرب المرء منها ويتمنى الموت من أجلها ، وقد كانت فى أيامه كريمة سعيدة ينعم الناس فى ظلالها ويتساقون كؤوس السعادة فى جنباتها . لكنها الأيام لا تؤمن فجعتها ولا تدوم حبرتها . . ثم ذكر أن الفجيعة عمت العرب جميعا فهم مأجورون فيه ومعزون به ، ولا تزال المنايا تختار من يعم رزؤه ويجل مصابه . ثم سأل الغيث أن يتعهد قبره بالسقيا ، ولكنه عاد فأنكر ذلك على نفسه لأن فى القبر البحر الذى تنشأ عنه هذه الأمطار ، وسأل الله فى ختامها أن ينزل رحماته عليه ، وتأس بأن عادة الموت أن ينزل بالكرام ، ويكلف بكل شريف .

ولقد أخذ نقاد الأدب على أبي تمام مآخذ كثيرة : منها رداءة مطلعها وأنه سرق جل معانيها ، وحذا حذو كثير من الشعراء فى خيالها . ذكروا أنه أخذ قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته

من قول صفية الباهلية :

كنا كأنجم ليل بينها قمر

وقوله :

أمن بعد طى الحادثات محمدا

من قول أبى نواس : « طوى الموت ما بينى وبين محمد »

وقوله :

لئن عظمت فيه مصيبة طيء

من قول عبد الله بن أيوب :

جلت رزيته فعم مصابه

وقوله :

توفيت الآمال بعد محمد

من قول مكنف السلمى يرثى ذفافة :

روى الأغانى قال قال محمد بن موسى كنا عند دعبل فذكرنا أبا تمام فثلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم أخرج دفتراً فإذا فيه : قال مكنف السلمى يرثى ذفافة العبسى :

ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خلى مكانه	فلا حملت أنثى ولا مسها طهر
ولا أمطرت أرضاً سماء ولا جرت	نجوم ، ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القعقاع يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح فى شغل عن السفر السفر
يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

وذلك إسراف منهم فى النقد ، وتحامل لا يقوم فى بعضه على أساس ، فإن هذه المعانى مشتركة بين الشعراء ، وليس أحد أولى بها من غيره ، ولا ننسى أن دعبلا كان منافساً لأبى تمام معاصراً له وبينهما من الخصومة ما يدعونا إلى الشك فى خبره ، وأبو تمام شاعر وراوية سن للناس طريق اختيار الشعر وحفظ منه مالم يحفظه أحد ، فإذا جرى فى شعره على معانى المتقدمين وأساليبهم وأخيلتهم فذلك راجع إلى كثرة محفوظه وانطباع الصور فى شعوره ، لا إلى سرقة متعمدة ألجأه إليها جدب فى تفكيره أو إملاق فى لغته . . وأبو تمام الرجل الذى يخضع اللغة لمعانيه العميقة وأخيلته المبتكرة ويأتى بالنائى البعيد فيدنيه منك ويقربه إليك وقد تجد عسرا فى بلوغ مرامه لكنه على كل حال لا تعوزه المادة ولا تشعر باستجدائه وقصور باعه لكن ذلك لا يعفيه من المؤاخذة ، فقد أخذ بيت صفية ونقله إلى شعره بمعناه وأكثر ألفاظه وقصر عن اللحاق به مع احتذائه له وأخذه منه ، وكذلك أيضاً تقصيره عمن سبقه من الشعراء فى قوله : رأيت الكريم الحر ليس له عمر .

قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقال الحماسى :

وقالوا ماجداً منكم قتلنا كذاك الرمح يكلف بالكريم

وقال الخارجى : إن الشراة قصيرة الأعمار .

وقال هو فى قصيدة أخرى فبلغ الغاية :

إن تبتخل حدثان الموت أنفسكم
ويسلم النـــاس بين الحوض والعطن
فالماء ليس عجيباً أن أعذبه   يفنى ويمتد عمر الآجن الأسن

فرفع التمثيل من شأن المعنى وبوأه من النفوس موضعاً مرضياً ، واحتج لذلك احتجاجا مقبولا . وكم كان من الحرى بأبى تمام أن يتحدث فى قصائد الرثاء إلى النـــاس فى سهولة ويسر ، وأن يعدد مناقب المرثى ، دون احتفال بالصنعة أو إسراف فى التماس وجوه البديع ، وكان ينبغى أن يشغله الحزن عن توخيها وتوفير العناية عليها ، ويندر أن تجد بيتاً من أبياتها خالياً من صنعة ، ولكنها متينة رائعة تدل على مهارة فائقة وحذق عجيب . انظر إلى هذه الاستعارات الجميلة : توفيت الآمال . فاضت العيون دما . ضحكت الأحاديث . مات مضرب سيفه . ثياب الموت . يبكى عليه البأس . استشهد الصبر . طى الحادثات محمداً . شجرات العرف . سقى الغيث غيثاً . فى لحده البحر . يحيا به الثرى . والطباق فى مثل : بكت ، وضحكت ، وطى ، ونشر ، وأبغض ، ويحب ، وألبست ، وعريت ، وبدو ، وحضر ، وحمر ، وخضر .

والجناس فى مثل : اثغر الثغر ، مضرب سيفه من الضرب . بواتر وبتر . إلى غير ذلك من ضروب البديع الذى كان معنياً به ومتوافراً عليه ، وكان يخرجه أحياناً إلى التـكلف : كاثغر الثغر مثلا ، أراد أن يجانس فوقع فى هذا الثقل ، ومثله من قصيدة أخرى له :

قرت بقران عين الدين وانشـــترت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وفى القصيدة يقول أبو تمام :

وقد كان فوت الموت سهلا فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

وهو شبيه بقول الحماسية :

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لكانوا أعزة ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

ومما لاريب فيه أن أبا تمام أخذ منها وقصر عنها ، لأن محصول كلامه أن الفرار كان ممكناً ولكن كان يلزمه العار فأبت نفسه الدنية ، فردها إلى الموت؛ ومحصول كلامها أنهم أبوا الفرار والموت يهجم عليهم ويأخذ بنفوسهم وعلم النجاة بأيديهم والفرار لاعار فيه لأنهم أعذروا بل هو بقاء وحياة .

ومن صور الرثاء قول ابن الرومى يرثى ابنه محمداً :

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى(١)
ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد(٢)

---

(١) بكاؤكما : الخطاب لعينيه ، ولايجدى : لاينفع ، وأودى : هلك .
(٢) الجادى : الزعفران ، وهو أصفر .

وظل على الأيدى تساقط نفسه
ويذوى كما يذوى القضيب من الرند(١)

عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ... ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وماسرنى أن بعته بثوابه ... ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد(٢)
وإنى وإن متعت بابنى بعده ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد(٣)
وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لايسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولاجلد
هل العين بعدالسمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
لعمرى لقدحالت بى الحال بعده ... فياليت شعرى كيف حالت به بعدى
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخازهد

أريحانة العينين والأنف والحشا
ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى

سأسقيك ماء العين ماأسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لاتجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد
كأنى ماااستمعت منك بضمة ... ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ماأبدى
محمد ماشىء توهم سلوة ... لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ماقصد

---

(١) الرند : نبت طيب الرائحة له زهر أصفر يسمى الزينب ، وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان .

(٢) معد من أعدى : بمعنى نصر وأعان .

(٣) النيب : جمع ناب وهو الناقة المسنة .

والرثاء من أهم موضوعات الشعر ، واشتهر بالإجادة فيه أوس [1] والأعشى وأبو زبيد الطائى ولبيد م ٤١ هـ ، ومتمم بن نويرة وأبو ذؤيب ومالك بن الريب وكعب بن سعد [2] ، وانفردت به الخنساء ، ثم اشتهر بعد ذلك حسين بن مطير والكميت فى مراثيه للعلويين ودعبل فى مرثيته معاهد العلويين ، ثم أبو تمام « وهو من المعدودين فى ذلك » [4] ، ومثله ديك الجن وهو فى هذا أشهر من حبيب [3] ، وللبحترى فى الرثاء آيات رائعة ومنها مرثيته فى المتوكل ، وكذلك ابن الرومى كما فى مرثيته لولديه « بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى » .

الشعر الحماسى :

ومن روائعه قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية .

وكان أبو تمام صاحب مذهب فى الشعر ، وأميرا فى دولته منذ مطلع القرن الثالث الهجرى حتى وفاته ، كان يتخير ألفاظه تخيرا شديدا ، ويجتهد فى الصناعة البديعية ويدقق فيها غاية التدقيق وخاصة فى الجناس والطباق وبالغ فى تجويد صياغته مبالغة شديدة ، دقق فى معانيه أشد التدقيق ، وتكلف تجويدها أشد التكلف ، وأهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر وأحيانا حتى أفسدته العناية ، وتكلف البديع إلى حد شديد ، حتى كاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع ، ويجعله صناعة فنية عتيدة ، وقد أكثر فى شعره من ضرب المثل ، ومن الحكمة ، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها .

---

(١) ومرثيته : « أيتها النفس أجملى جزعا » عند الأصمعى لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية أحسن من ابتدائها (٣٤ : ٣ الأمالى) .

(٢) وقالوا ليس للعرب مرثية أجود من بائيته فى أخيه أبى المغوار (١٧٨ : ٢ ديوان المعانى) .

(٣) ١٤١ : ٢ العمدة .

وعمورية إحدى مدن الروم فى آسيا الصغرى ، وكانت قلعة عسكرية حصينة ، ففتحها المعتصم ودك حصونها ، فقال أبو تمام هذه القصيدة :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب (١)

بيض الصحائف لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب (٢)

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب (٣)

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب (٤)

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب (٥)

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب (٦)

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتغب فى الله مرتقب (٧)

---

(١) الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر . المعنى : السيف أصدق مما تضمنته الكتب، وكان المنجمون يحذرون المعتصم من فتح عمورية فى هذا الأوان ، وقالوا له : إنا نجد فى الكتب أنها لا تفتح إلا فى وقت نضج التين والعنب فلم يستمع المعتصم لهم.

(٢) الصفائح : جمع صفيحة : السيف العريض ، والصحائف : جمع صحيفة : القرطاس المكتوب ، والمعنى : إن السيوف البيض هى التى تجلو الشك وتزيل الريب لا الصحائف المكتوبة .

(٣) فتح الفتوح : هو فتح عمورية ، وكانت عزيزة على الروم ، محصنة غاية التحصين، ودافع عنها جيش الروم دفاع الأبطال. وكانت ذات موقع استراتيجى عظيم .

(٤) تبرز : تظهر القشب : جمع قشيب أى جديد .

(٥) المنى : مايتمناه الإنسان . حفل جمع حافل وهى الناقة التى امتلأ ضرعها. الحلب : الحلبة من اللبن . معسولة : حلوة ، والمعنى : إن أمانينا عادت وهى حافلة بالسرور لتحقق ما أملت .

(٦) الجد : الحظ صعد : صعود . صبب : انحدار .

(٧) التدبير : تقدير الشىء على الوجه السليم المأمول الفوز .

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد   إلا تقدمه جيش من الرعب (١)
لولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها فى جحفل لجب (٢)

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، وهى طويلة اخترنا منها هذه الأبيات وتمثل الجزالة غاية التمثيل ، وتمتاز بوحدة القصيدة ، وبصدق عاطفة الشاعر فيها ، وبقوة التصوير . وروعة النسج ، ودقة معانى الشاعر فيها .

وأبو تمام فيها ينوه بالمعتصم الخليفة وبجيشه وبالانتصار الذى أحرزه فى هذه المعركة الخالدة باستيلائه على عمورية ودك حصونها ، وتشتيت شمل المدافعين عنها ، وبالتحكم بعد ذلك فى آسيا الصغرى مركز التخطيط العسكرى الرومانى ضد العالم العربى الإسلامى آنذاك .

أبو تمام يشيد بهمة المعتصم وعزيمته ، ويقول : إن سيفه وهو الذى يحل المشكلات ؟ لانبوءات المنجمين ، وإن فيه الفصل بين الجد واللهو ، ثم يتحدث عن عظمة هذا الفتح وأهميته وأنه أكبر من خطب الخطباء ومن نثر الناثرين . ثم يذكر الفتح وأنه أرضى الأمانى فهى به فى عيد جديد ، وأنه جعل حظ المسلمين فى صعود حظ والكافرين فى هبوط .

وأنه كذلك أثر لحنكة المعتصم وتدبير وشجاعة هذا الخليفة العظيم الذى نصر بالرعب يتقدم جيشه وكأنه معه جيش آخر غير الجيش المحارب ، والذى يغنى هو بنفسه وشجاعته عن الجيوش الكثيفة والجنود الباسلين .

وهنا نجد التجربة الشعرية قوية ، والعاطفة الفرحة بانتصار المسلمين ملتهبة ، وخيال الشاعر يقظا مشبوبا ، ومعانيه كثيرة عليها مسحة من ثقافة عالية وذهن خصب ، مع المبالغــة فى المعانى ، ومع الحرص على صناعة البديع ؛ من سجع وطباق وجناس ومقابلة ومبالغة وسواها .

---

(١) نهد الرجل : نهض . الرعب بسكون العين أى الفزع والخوف .
(٢) الجحفل : الجيش العظيم . الوغى : الحرب . اللجب : الكثيف .

نماذج أخرى من الشعر

١ ـ لأحمد بن محمد الافريقى الشاعر المعروف بالمتيم وكان فى بخارى فى أواخر القرن الرابع الهجرى(١) .

تلوم على ترك الصلاة حليلتى ... فقلت: اعزبى عن ناظرى، أنت طالق
لماذا أصلى وأين باعى ومنزلى؟ ... وأين خيولى والحلى والمناطق ؟
وأين عبيد كالبدور وجوههم؟ ... وأين جوارى الحسان العواتق ؟
أصلى، ولا فتر من الأرض يحتوى ... عليه يمينى ! إننى لمنافق !
بلى ، إن على الله وسع لم أزل ... أصلى له مالاح فى الجو بارق
فإن صلاة السيء الحال كلها ... مخارق ليست تحتهن حقائق

٢ ـ ويقول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين وإن أبى ... آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية أن هذا قائد ... زهر الرياض وأن هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد ... بتسلب الدنيا وهذا واعد
ينهى النديم عن القبيح بلحظة ... وعلى المدامة والسماع مساعد
اطلب بعقلك فى الملاح سميه ... أبدا فإنك لامحالة واجد
والورد إن فكرت فرد فى اسمه ... ما فى الملاح له سمى واحد
هذى النجوم هى التى ربتهما ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فانظر إلى الأخوين من أدناهما ... شبها بوالده فذاك الماجد
أين الخدود من العيون نفاسة ... ورياسة لولا القياس الفاسد

---

(١) ٢ : ٨١ الإرشاد لياقوت ، ٢ : ١٢ اليتيمة :

وفى هذه القصيدة صنعة لطيفة يقول فيها عبد القاهر: عمل ابن الرومى على قلب طرفى التشبيه فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل، ثم تناسى ذلك وخدع عنه نفسه وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة فجعل علته أن فضل النرجس ووضعه فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها، فصار يتوب من ذلك ويتخوف عيب العائب وغميزة المستهزىء ويجد مايجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ويفرط حتى تصير كالهزء بمن قصد بها، ثم زادته الفطنة الثاقبة والطبع المثمر فى سحر البيان، مارأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس وجهة استحقاقه الفضل على الورد فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له ومما هو خليق أن يوضع فى منزلة هذه القطعة، ويلحق بها فى لطف الصنعة قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه
لم يظلموا فى الحكم إذ مثلوا به فلشد مارفع البنفسج شانه

٣ — على بن الجهم يتحدث عن الورد :

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها وراحت الراح فى أثوابها الجدد
وقابلته يد المشتـــاق تسنده إلى الترائب والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صبابته أو مانعا جفن عينيه من السهد
بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد
ماقابلت طلعة الريحان طلعته إلا تبينت فيه ذلة الحسد
قامت بحجتـــه ريح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد
لاعذب الله إلا من يعـــذبه بمسمع بارد أو صاحب نكد

٤ — مروان بن أبى حفصة يحتج للعباسيين بأنهم عصبة النبى فهم ورثته،

وليس لأبناء فاطمة أن يرثوه ، وذلك من قصيدة له فى مدح المهدى :

يا ابن الذى ورث النبى محمداً	دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم	قطع الخصام ، فلات حين خصام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبنى البنات وراثة الأعمام(١)
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم	حطم المناكب يوم كل زحام
وارضوا بما قسم الإله لكم	ودعوا وراثة كل أصيد حامى

٥ — مسلم بن الوليد يفاخر قريشا ، وكان من شعراء اليمانية :

فاخرتنا بما بسطنا لها العذ	ر قريش وفخرها مستعـــار
ذكرت عزها ، وماكان فيها	قبل أن تستجيرنا مستجار
إنما كان عزها فى جبال	ترتقيها كما ترقى الوبار(١)
أيها الفاخرون بالعز والعز	لقوم ســـواهمو والفخار
أخبرونا عن الأعز : أألمنـ	صور حين اعتلى أم الأنصار ؟
فلنا العز قبل عز قريش	وقريش تلك الدهور تجار

٦ — دعبل الخزاعى فى رثاء الشباب :

أين الشباب وأية سلكا ؟	لا أين يطلب ؟ ضل ، بل هلكا
لا تعجبى ياسلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف يومكما	ياصاحبى إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحدا	قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

---

(١) أى وراثة مثل وراثة الأعمام .

(٢) جمع وبرة : دويبة كالسنور .

رواية الشعر

فى العصر الأموى نشطت حركة إحياء الشعر الجاهلى وروايته وتلقيه شفاها من أفواه الأعراب والعجائز وشيوخ القبائل وحكاتها ومعمريها .

وقد اشتدت حركة الرواية فى العصر العباسى عصر التدوين والتأليف ، وضاعف الاهتمام بهـا كثرة ما دس على الشعراء من شعر ، وما نحلوا من قصائد ، لذلك اتسمت حركة الرواية بسمة نقدية غالبة .

وقد كانت العرب أمة بدوية ، ومن ثم لم يعرفوا الاستقرار الذى يدفعهم إلى العلم ، ويؤهلهم للحضارة ؛ ولم يجلسوا إلى العلم ، ولم تمكنهم ظواهر حياتهم وعوامل بيئتهم من أن يمسكوا بالقلم أو يخطوا باليراع ، ولذلك كانوا يعتمدون على الذاكرة يختزنون فيها ماعرفوا ، ويحتقبون بين ثناياها مايتردد بينهم من ألوان المعارف . فى ذاكرة العربى مايعتز به ويحافظ عليه من أنساب القبائل وأشعارها ومفاخر أيامها ومأثور وقائعها ، كأنه مسطور فى كتاب ومدون فى صحائف ، لايند عنه شىء ، لأن الحافظة الواعية تصونه ، والذاكرة القوية المطبوعة تحميه .

ولقد وصل إلينا الكثير من الغرائب عن رواة العرب وسعة حفظهم ممـا يعده بعض الناس وهماً من الأوهام أو خيالا من الأخيلة . ولكنها القدرة البارعة التى لم تعتمد على الكتب ولم تعول على الكتابة والتدوين . ويحدثون أن العربى كان يعرف سلسلة نسبه ، ويعرف كذلك أنساب القبائل ، فلايغيب عنه شىء ولا يتسرب الخطأ إلى شىء مما روى .

وكان للعرب عناية خاصة برواية الشعر ، إذ هو سجل مفاخرهم ، وديوان مآثرهم ، ومجمع أحداثهم ووقائعهم ، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم

أجل منه ، وكان لـكل شاعر راوية خاص يتتلمذ عليه ويروى عنه ، ويحتج لقوله ، ويظهر محاسنه ويذيع أشعـاره ، فامرؤ القيس كما يقولون راوية أبي دؤاد الأيادى ، وزهـــير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس . والحطيئة راوية زهير وابنه كعب .. وهـكذا .

وفى عهد الدولة الأموية نشطت الرواية ، وانتعش رجالها كما ذكرنا ، ووجدوا تشجيعاً من الولاة والخلفاء لأغراض سياسية معروفة وليستعينوا بما يرون على فهم القرآن ومعرفة بلاغته ، وإدراك سموه وعظامته ، ورأى العرب أن إحياء الشعر العربى والحرص على روايته إحياء لتاريخ حافل يعتزون بأحداثه ، ويفاخرون بوقائعه ، ويتمجدون بما يحدث عنه من مكرمات ومآثر .

ومن ثم حرصوا أشد الحرص على الرواية ، وتلقف أشعار القدماء ، ومعرفة آدابهم ، وأخذوا يشدون إليها الرحال ، ويكابدون مشاق السفر والانتقال ، وأصبحت البراعة فى رواية غرائب الشعر تعدل القدرة فى إنشائه ، والحفاوة بالرواية فى قصور الخلفاء ومجالس الولاة لا تقل عن العناية بالشعراء المجودين ، والفحول المبرزين — وبذلك راجت سوق الرواية ، ونفقت بضاعتها ، وانقطع لها جماعة من أصحاب الملكات القوية وذوى الفطر الموهوبة ، أخذوا يرحلون إلى البادية ، يشافهون الأعراب ويجمعون الغريب ، وينقلون ما ورثوه من هذا التراث المجيد ، وكانوا متحرجين فى روايتهم ، متثبتين فى كل ما يصل إليهم ، فلا يأخذون إلا ممن صحت عربيتهم ، وبعدوا عن كل تأثير أجنبى ، كتميم وقيس ، وأسد وهذيل ، وبعض من كنانة ، وبعض من طى . أما القبائل التى جاورت قطراً أعجمياً أو اتصلت بأمة غير عربية يظن أنها تأثرت بها أو نقلت عنها شيئاً من لهجتها فلم يأخذ الرواة عنها شيئاً . وقيل إن الرواة الذين كانوا يقصدون قبائل البادية لم يأخذوا عن لخم وجذام لأنهما جاوروا أهل مصر ، ولا عن بكر لمجاورتهم للفرس ،

ولا عن ثقيف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا عن قضاعة وغسان لحلولهم بالشام وهكذا .

ولقد وجد كذلك من أعراب البدو قوم أوتوا قوة الذاكرة ووفرة الحفظ ، فأخذوا يرتحلون إلى الحواضر حاملين مامعهم من بضاعة مزجاة ، وتجارة رابحة . وبذل لهم الخلفاء والأمراء من جزيل العطايا وسنى الهبات ماشجعهم على الرواية والانقطاع لها .

ولقد جرت الرواية فى عصر بنى العباس على سنتها فى عصر بنى أمية إذ ظل الرواة يرحلون إلى البادية ، وبقى الأعراب الحافظون ينتقلون من البادية إلى الحاضرة لبيع ماعندهم من أشعار . وعرض مايختزنون من آثار ، حتى فسدت لغتهم ، ولانت ألسنتهم ، وضعفت فصاحتهم ، فقلت الثقة بهم ، وبارت بضاعتهم ، ولم يعد يرغب فيها أحد .

وكانت الرواية أول الأمر هواية نفوس ألفتها ورغبة قلوب أحبتها وسجية عند بعض الناس ، حملتهم على أن يحفظوا ويختزنوا ماراعهم من أشعار ، وملك قلوبهم واستولى على مشاعرهم من القصائد ، ومن طبيعة المنبعث بشعوره ، المتجه بإحساسه ، الذى لايسيره غرض ، ولاتطغى عليه منفعة ، أن يتحرى الصدق فيما ينقل ، ويتوخى الصحة فيما يجمع .

ولما وضحت شدة الرغبة فى الرواية فيما عندهم ، وقوة الحرص عليها ، وكثر ما أغدق على الرواة من العطايا والمنح أخذوا يجعلون علمهم مهنة تدر عليهم المكسب وتجلب لهم الربح . وبعد أن كانت الرواية هواية نفس أصبحت رغبة كسب ، فقل فيها بعض الشىء الاعتصام بالأمانة ، والحرص على الصدق ، والمبالغة فى تحرى الصواب . وبذلك وجد الرواة الذين أضافوا إلى الحق باطلا ، وإلى الواقع خيالا ، وإلى الحادثة أحداثاً .

كل ذلك لأن همهم الكسب ، ووكدهم أن يروج ما اخترعوه ، ويسير فى الناس ماوضعوه ، فينالهم من وراء ذلك الأجر ، ويصيبهم ما أملوا من كسب . وأسباب الانتحال فى الرواية كثيرة ، فمنها :

١ — كان الأعراب يتخذون الرواية وسيلة للكسب ، وسبيلا لاجتلاب الرزق فيفدون إلى الحواضر بما عندهم للحصول على المال . فإذا نفد ما يحفظون عمدوا إلى الوضع والاختراع . ويحدثنا محمد بن سلام الجمحى أن ابن داود بن متمم بن نويرة ، قدم البصرة فى بعض مايقدم له البدوى من الميرة . فأتاه أبو عبيدة وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه ، وقاما له بحاجته وكفياه مؤونته ، فلما نفد شعر أبيه متمم جعل يزيد فى الأشعار ويضعها ، فإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله . ويقول الأصمعى عن أعرابى اسمه أبو ضمضم إنه أنشد لمائة شاعر كلهم يسمى عمرا . ويقول الأصمعى : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين .

٢ — حرص الرواة على إرضاء الأمراء وذوى الجاه وأصحاب النفوذ برواية ماتطرب له نفوسهم ، وتفتح له أسماعهم ، من مدائح يزعمون أن آباءهم مدحوا بها فى القدم ليرضوا غرورهم ، كما قال ابن سلام : أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فقال : ما أطرفتنى شيئاً . فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مدحا لأبى موسى الأشعرى . فقال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى للحطيئة ولكن دعها تذهب فى الناس .

وصاحب الأغانى يروى أن حمادا تقرب إلى خالد بن عبد الله القسرى

باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم فأكرمهم وأحسن إليهم وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء — قال على لسان قيس :

وقد حللنا بقسرى أخى ثقة	كالبدر يجلو دجى الظلماء والأفقا
لا يجبر الناس شيئاً هاضه أبداً	يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا
كم من ثناء عظيم قد تداركه	وقد تفاقم فيه الأمر وانخرقا

يقول أبو عمرو الشيبانى : إن حمادا أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله . والتوليد فيها بين جداً .

٣ — عدم تحرج بعض الرواة من الكذب والاختلاق ، لشهوة تحسها أنفسهم ، وشفاء لداء يتغلغل فى صدورهم ، ورغبة فى إظهار السبق والتفوق ؛ وقد كان على رأس هؤلاء الكذابين الوضاعين : حماد وخلف الأحمر ؛ أما حماد فيقول عنه المفضل الضبى : « لقد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك . فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب . ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم . فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ويحمل ذلك عنه فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ولقد أقر حماد بحضرة الخليفة المهدى وهو ولى للعهد بما زاده من عنده فى شعر زهير بن أبى سلمى ، حتى أمر حاجبه فأعلن فى الناس أنه يبطل رواية حماد .

وأما خلف فإنه كان كما يقول ابن سلام ، أفرس الناس ببيت شعر .

ويقال إنه وضع لأهل الكوفة أشعاراً كثيرة ثم نسك فى آخر حياته فأنبأهم بما وضع فلم يصدقه أحد. واعترف هو للأصمعى بأنه وضع أشعاراً. وقيل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ولامية أخرى على تأبط شراً رويت فى الحماسة.

٤ — على أن بعض الحفاظ من الرواة كانوا حين يتزاحم لديهم ماحفظوا قد يختلط عليهم بعض المتشابه ويلتبس لديهم المتقارب فى المعنى أو فى الوزن أو المتفق فى الروى. فقد يخلطون أبيات قصيدة بأبيات قصيدة أخرى، أو ينسبون أبيات شاعر إلى شاعر آخر وهكذا، حتى نسبوا الأبيات الآتية إلى ابن الدمينة وإلى نحو أربعين شاعراً وهى :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل شاقتنى إليك المضاجع
لقد ثبتت فى القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ولقد كثر الرواة كثرة عظيمة، ومن بينهم حماد الراوية المتوفى عام ١٥٥ هـ، وخلف الأحمر المتوفى عام ١٨١ هـ، وأبو عمرو الشيبانى، وأبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ، والأصمعى م ٢١٧ هـ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى م ٢١٣ هـ، وسواهم؛ وقد ختمت طبقة الرواة بالمبرد (٢٨٥ هـ) وثعلب (٢٩١ هـ)، فإليهما انتهت الرواية، وبهما ختمت؛ وحركة رواية الشعر فى هذا العصر هى التى حفظت لنا أشهر القصائد القديمة، وهى التى جعلت الرواة يقبلون على تدوين دواوين الشعراء، وجمع شعر القبائل المختلفة كهذيل وغيرها، وقد خلقت لنا هذه الحركة أعمالا جليلة فى البعث الأدبى وفى إحياء الشعر القديم. وكانت مقدمة لحركة النقد والتمحيص التى تلت حركة الجمع والرواية والتدوين.

طبقات الشعراء

شعراء العصر العباسى الأول كثيرون ، ويختلفون باختلاف نزعاتهم السياسية والاجتماعية والفنية :

١ — فهناك شعراء لهم صبغة سياسية ومن بينهم مروان بن أبى حفصة وكان عباسى الهوى ، وكذلك أبو تمام وابن المعتز ، من حيث كان دعبل شيعى الهوى والنزعة .

٢ — وهناك شعراء تغلب عليهم النزعة الاجتماعية ، وفى مقدمتهم أبو نواس شاعر اللذة ، وابن الرومى شاعر الهجاء فى عصره ، والبحترى شاعر المجتمع بأوسع ما نتصوره من دلالة .

٣ — وهناك شعراء شهروا بمذاهب فنية وهم شعراء الصنعة الذين سنتحدث عنهم بعد قليل ؛ وعلى الجملة فقد كان من أشهر شعراء هذا العصر :

١ — الطبقة الأولى من العباسيين وهم مخضرمو الدولتين كابن هرمة (١٥٠ هـ) ، وأبى دلامة (١٦١ هـ) ، والحسين بن مطير الأسدى ، وأبى حية النميرى ، وسديف بن ميمون ، وأبو الهندى ، وبشار (١٦٧ هـ) وهو إمامهم ويعد إمام المحدثين كذلك ، وصالح بن عبد القدوس (١٦٧ هـ) وحماد عجرد (١٦٨ هـ) ومطيع بن إياس (١٦٩ هـ) والسيد الحميرى (١٧٣ هـ) ، ومروان بن أبى حفصة .

٢ — والطبقة الثانية طبقة المحدثين الذين نشأوا فى صدر الدولة العباسية ، ومنهم أبو نواس (١٩٨ هـ) وهو إمامهم ، ووالبة (١٧٥ هـ) ، وسلم (١٨٦هـ) ، والعباس بن الأحنف (١٩٢هـ) ، وأشجع السلمى (١٩٥هـ) وأبى العتاهية (٢١١ هـ) ، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وسواهم .

٣ — والطبقة الثالثة طبقة أبى تمام (٢٣١هـ) والبحترى (٢٨٤هـ) وابن الرومى (٢٨٣هـ) وابن المعتز (٢٩٦هـ) وهى طبقة طارت شهرتها فى كل مكان .

الطبع والصنعة عند المحدثين

١ — بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه ، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى في تحديد معناهما أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب في الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ؛ أما الصنعة فهي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفني بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها في شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحي الشعر من ملكاته الفنية التي استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد في القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء في العصر الجاهلي : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعي الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الحطيئة ـ وهو شاعر إسلامي مشهور ـ عبد لشعره ،

قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعي شعره حين وجده كله متخيراً مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعي يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعده العقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبي وعظيم مكانته فى الشعر .

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ؛ كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبرا لحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة : إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على

معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرىء القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ، وفرق بين أن يجىء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها ـ خوفاً من النقد والنقاد ـ بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائد الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى ـ مذهب الصنعة والتصنيع ـ أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواه بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة فى عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سنى الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى التجويد والتجديد فى المعانى من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرىء القيس ومهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار

الطبع الأدبى الموهوب ، وليس فيها شىء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومى والحربى والسياسى لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقه زهير دعوة للسلام وتنفير من الحرب ووصف لأهوالها وويلاتها ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شىء بالمطبوع ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية ، وشتان بين هذه المعلقة وبين بائية النابغة « كلينى لهم الخ » أو بينها وبين قصيدة زهير « صحا القلب عن سلمى » لبعـــد ما بين الأثر المطبوع والمصنوع .

واستمر مذهب الصنعة بعد العصر الجاهلى ، يظهر فى شعر الحطيئة والراعى النميرى وغيرهما حتى جاء العصر العباسى .

٢ — كان الشعراء المحدثون ـ وهم الذين نشأوا فى ظلال الدولة العباسية وفى ظلال الامتزاج الذى حدث بين العرب والأمم الأخرى ـ يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها . وكان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع فى شعره (١) .

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى والنمرى ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابى يذهب شعره فى البديع (٥) ،

---

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان (٢) ١١٠ : ١ العمدة (٣) ٥٥ : ١ البيان
(٤) ١١٠ : ١ العمدة (٥) ٢٤٢ : ٣ البيان

وكان يحتذى حذو بشار فى البديع (١) ، وكان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما (٢)، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٣) ، وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٤) ، وكان أبو نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صب على قوالبه وجرى فى مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : هما واحد والعدة اثنان ! بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا أذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس (٥) ، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة (٦) ، وكان أسير المحدثين شعرا (٧) . والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه   بحلمى عنه وهو ليس له حلم (٨)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا للشعر ومذهبا جديدا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة (٩) وعلى أيدى مسلم وأبى تمام على الخصوص ، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها (١٠) ، بل هو فيما زعموا

---

(١) ٥٥ : ١ البيان .   (٢) ٥٤ : ١ البيان .

(٣) راجع ٢٠ : ٣ الأغانى ، ١١٠ : ١ العمدة ، ١٣ : ٢ زهر ، ٢٥٠ موشح ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٢٣ : ٣ الأغانى)

(٤) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(٥) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى .

(٦) ١١٠ : ١ العمدة .   (٧) ١٧٣ : ٣ العمدة .

(٨) وهى فى ديوانه ، وتنسب لمعن بن أوس خطأ .

(٩) ١٧٣ : ١ العمدة .   (١٠) ١١٠ : ١ العمدة .

أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع واللطيف[1] ، وأول من أفسد الشعر بالبديع[2] ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب[3] ، كان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا، فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان[4] .

٣ — وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى . « فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى الأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة[5] ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء[6] ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها[7] ، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه[8] ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع

---

(١) ٢٠ : ١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨ الموازنة .

(٣) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ : ٤ زهر الآداب .

(٤) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه .

(٥) ١٠٩ : ١ العمدة .

(٦) ١٦٨ : ٧ مهذب الأغانى .

(٧) ٩٦ إعجاز القرآن .

(٨) ٩٢ رسالة الغفران .

والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس (١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً (٢) ، وكان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشى التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة ، وتصوير وأضاف إليها شيئاً آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع فى شعره فيجلله الغموض فى كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى آخذه به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما يريد وجانب الغموض والمعانى العويصة فى شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبزغ من مذهب البرناسيين، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة ، وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع (٤) .

وكان لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام (٥) ويقل التصنع له فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا، وتصنعه للمطابقة كثير حسن وتعمقه فى

---

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى ريحانته (٣٠٤ - ٣٠٩) وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره .

(٢) ١١٠ : ١ العمدة . (٣) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى . (٤) ١٨٣ : ٧ مهذب الأغانى .

(٥) أى من إسرافه فيه .

وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلامة (١) والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق، كان بدويا أعرابيا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة (٢)، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلانى، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلاوة (٣).

أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٤)، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع (٥)، فهو حديث فى ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض فى فنه بألوان التصنيع وزخارفه وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرجه إلى مجال المصنعين (٦)، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى فى شعره، ولكن دون أن يتخذها مذهبا، وكان يستخدم الطباق والجناس فى شعره، وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر

---

(١) ٩٦ إعجاز القرآن.

(٢) ٩٠ الفن ومذاهبه.

(٣) ٣٥ طبقات ابن المعتز، والآمدى يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن)، ويفضله الجرجانى بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (٢٠٥ : ١ العمدة).

(٤) ١٠٦ : ١ العمدة، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للمعانى (٢٣٢ ج ٢ العمدة)، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران).

(٥) ٩٤ الفن ومذاهبه.

(٦) ٩٥ المرجع.

من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صبغ التدبيج (١) .

٤ — وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٢) ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه . ويقول عبدالقاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين (٣) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا وأقربهم قوافى وأوزانا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب (٤) ؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد ، «كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع ، وكان مسلم ينهج نهجا وسطا » (٥) . . ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعر حتى العصر الحديث .

---

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم فى القافية (١٣٧ و ١٣٨ : ١) العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى (١٧٢ سر الفصاحة) . (٢) ١١٠ ج ١ العمدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .

(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

تراجم للشعراء :

ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر

حيــاته :

ولد أبو العباس عبد الله بن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ . ومكث فيه ثلاث سنين ، قتل بعدها بيد الأتراك الذين كان بيدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة،وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها،الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب،وكان من أساتذته المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ،وثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ،وسواهما من فحول العلماء.

وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان . وله مؤلفات كثيرة جيدة منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزأين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين،هم:المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزاً بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق بعدها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبي بأمن خمول   من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات ابن عمه الخليفة العباسى المكتفى بالله عام ٢٩٥ هـ ، ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ،ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء العربية المعدودين .

بيئتـــه :

عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ، فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كلـه أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

١ — أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملـكات (١) .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره ، ومايختلج فى صدره من آمال وآلام ، وماتزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة . فشعره صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانياً ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيراً،وهو فوق ذلك صورة صادقة

---

(١) ويروى عن ابن مجاهد (٣٢٤هـ) : من قرأ لأبى عمرو ، وتمذهب للشافعى، وروى شعر ابن المعتز فقد كمل ظرفه (٢ : ١٠٣ طبقات الشافعية للسبكى) .

للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن ، لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

٢ — وقد أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثر تشبيهات ، وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته .

وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيداً مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس ، وأبى نواس . . . . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها .

وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والإبداع ، ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة، ومرح وطبع ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه كان يقول الشعر إرضاء لنفسه ، وتصويراً لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة،ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد .

أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحترى ؛ وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) .

٣ — ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق

---

(١) ١٦٣ ج ١ العمدة .

الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حينا ، ومقلد أحيانا أخرى .

٤ — وخياله الشعرى خيال واقعى، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من خيال ووصف وتصوير وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ، ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعذوبة . فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، مع جمال فى ترف البيان وألوان البديع ، مما حذا فيه حذو بشار ومسلم وأبى تمام . وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا ، فى قرب مأخذ ، وجودة قريحة ، وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأملا

منزلته الشعرية :

ابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشعر العربى القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهى الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه فى طبقته أباتمام والبحترى ؛ وبعض النقاد يجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين ، ويجعل أبا تمام والبحترى حاملى راية الطبقة الثالثة فى المحدثين .

ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى

طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء(١) » .

ويقول: « وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس ثم حبيب والبحترى ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرىء القيس فى القدماء(٢) » .

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز :

المدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز ، هى مدرسة المحدثين ، التى قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى : هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحاً ملموساً .

والثانية : هى الصناعة الشعرية المتأنقة ، التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء، وتعتمد على الزخرف البيانى فى الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب - كما يقول ابن رشيق - « لا تنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فمن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم ، والعتابى ، والنمرى ، وأبو نواس ؛ واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وبن المعتز . . فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به(٣) .

---

(١) ٨٣ جـ ١ العمدة . (٢) ٨٢ جـ ١ العمدة .

(٣) ١٠٨ - ١١٠ جـ ١ العمدة .

فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة. فقد كان يحب الفن للفن، وينظم الشعر ليلهو به، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين، وكان متكلفا مجيداً فى تكلفه، بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيداً فى طبعه، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول: «وما أعلم شاعر أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع، إلا للبصير بدقائق الشعر، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً، وأكثرهم بديعا وافتنانا، وأقربهم أوزانا وقوافى، ولا أدرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب»[1].

ويقول الجرجانى فيه: وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام، ولم يكن من المطبوعين[2]، وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع.

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه: «هو وإن كان فيه رقة الملوكية، وغزل الظرفاء، وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين، ولا تقصر عن مدى السابقين، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك، أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر، إلى جيد الكلام ووحشيه، وإلى وصف البيد والمهامه، والظبي والظليم، والناقة والجمل، والديار والقفار». والأصفهانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى، فرقة شعره ودقة تشبيهاته أثر من آثار البيئة فيه.

---

(١) ١٠٩ جـ ١ العمدة.

(٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة.

ويقول ابن شرف القيروانى فى رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثليـــة والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية ، والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

فن ابن المعتز فى التشبيـه :

طارت شهرة ابن المعتز الأدبية والفنية فى باب التشبيه ، وأتى فى ذلك بما سحر الناس وخلد فى صفحات الشعر والأدب . وسار المثل فى القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصويره لفنه ، وفى الحق أننا لانجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ، ولانجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عندأحد سواه . وكان ابن المعتزيقول : إذا قلت كأن ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فى (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة فى باب التشبيه ، يقول الباقلانى : وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر وقد تتبع من هـذا مالم يتتبع غيره ، واتفق له مالم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الثعالبى : تشبيهات ابن المعتزيضرب بها المثل فى الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه فى شعره فقـد جاءك الحسن والإحسان ولما كان غذى النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين فى البراعة

---

(١) ١٤٦ جـ ١ معاهد التنصيص . ٦٩٣ جـ ١ دائرة المعارف للبستانى ، ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعى لذى الرمة (٢٥ جـ ٢ آداب العرب للرافعى) ، وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلانى .

تهيأ له من حسن التشبيه مالم يتهيأ لغيره ممن لم يروا مارآه ، ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات [١] .

ويقول المطوعى : جل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير أو شبيه [٢] : ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات[٣] ويقول ابن رشيق : قالت طائفة الشعراء ثلاثة ، جاهلى ، وإسلامى ، ومولد فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز ، قال ابن رشيق وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر[٤] ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، ويسهل عليه تناولها كابن المعتز فى التشبيه [٥] ، ويقول الحصرى : وليس بعد ذى الرمة أكثر افتنانا وأكبر تصرفا فى التشبيه من ابن المعتز [٦] ، ويقول الدميرى : هو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره [٧] . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين [٨] وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والنقد وأشاد بها فى الأسرار . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمى : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام ومدائح

---

(١) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٢) ١٧٤ ج ١ زهر الآداب .

(٣) ١٤٦ ج ١ معاهد التنصيص .

(٤) ٨٢ ج ١ العمدة .

(٥) ٢٥٥ ج ١ العمدة .

(٦) ٢١٩ ج ١ زهر .

(٧) ٨٣ ج ١ دميرى .

(٨) ٢٢٢ ج ٢ شذرات ، ٢٧٠ الوسيط . ٢٤ العصر العباسى السباعى بيومى ٢٤٩ رسائل البلغاء .

البحترى وتشبيهات ابن المعتز ثم لم يخرج إلى الشعر فالموت أولى به . ويقول بعض المحدثين : فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس بخمرياته (١) .

وقد قلده الشعراء فى فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم ابن المعز يحتذى حذو ابن المعتز فى التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه (٢) . وكان العقيلى أبو الحسن على بن الحسين من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبى نواس وابن المعتز فى الخمر وتوليد المعانى (٣) . وكذلك احتذاه فى تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ (٤) هـ وأبو نواس والوأواء (٥) ، وابن خفاجه ، وسواهم .

ترجع بواعث هذه الملكة المصورة فى نفس ابن المعتز وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيه بعضها ببعض إلى ذهنه الخصب ، وعقليته الناضجة ، وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفنى يتذوق الجمال وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التى عاش فيها ، وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذى آثره ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة .

ويمكننا أن نصور التشبيه فى فن ابن المعتز ، تصويراً واضحا ، على نمط من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتى :

أولا : كثرة التشبيهات فى شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من

---

(١) ويشيد بها كثير من علماء الأدب والبيان . (٢) ١٨٣ جـ ١ زهر .
(٣) ٢١٤ جـ ١ ظهر الإسلام . (٤) راجع ١٥٢ المثل السائر
(٥) شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ جـ ٢ فوات الوفيات) .

قصائده ، ولا قطعة من مقطوعاته ، من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملكة القوية ظاهرة ملموسة فى فن ابن المعتز فى سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثر ظهورها فى أوصافه وخمرياته وغزله وطرده ، وهو فى هذا يبذ جميع الشعراء ، الذين لم يكثر التشبيه فى شعرهم هذه الكثرة ، فقد « عكف ابن المعتز على التشبيه وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير » .

ثانيا : تشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، بإخراجها فى مظاهر حسية يستمدها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، فى صور لها سحرها وجمالها الفنى الرائع . وقلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى ومجالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس فى الحياة ، وفاضت صنعته ـ كما يقول بعض المحدثين(١) ـ بأصباغ الزخرف الحسى ، الذى لم يغص فى بحار الفلسفة . وهى مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة فى أروع صورها وأجلها . عما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكامن هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ابن المعتز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللآلىء النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ ـ مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف ـ قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد وذلك هو سر تفرده فى هذا اللون » . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من المحسات ، ولابن المعتز فن مستقل فى تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والإحسان ، وسيأتى كثير من مثل

---

(١) ٨٧ و ٨٠ الصبغ البديعى فى اللغة العربية ـ مخطوط .

ذلك فى شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر إلى تشبيهات عقلية ، استمد صورها من المظاهر الحسية فى غالب الأحايين ، فيقول :

رددت إلى التقى نفسى فقرت ... كما رد الحسام إلى القراب

أو يقول :

اصبر على مضض الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

أو يقول :

لا تجمعوا بالله ويحكمو ... غلظ الوعيد ، ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز فى تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هو فنى فى تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذى يقدر الأشياء ، ويقدر الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله فى كل خصائصه التى أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها . ثم هو لم يحب أن يمثل عواطفه فى تشبيهاته ، لئلا تخرج عن حقائق الأمور التى تمثلها أمام العقل ، وفى رؤية البصر ، ثم هو يظهر لك إصباغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ، أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى فى تشبيهات ابن المعتز هى دقة التصوير التى امتاز بها وبلغ فيها منتهى الإجادة ، وتقدم بها على كثير من الشعراء الوصافين . فإنه كان يوضح الشبه بين الشيئين توضيحا بالغا مهما اختلفا فى الجنس وتباعدا فى الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات فى ربقة . ويعقد بين المتباينات معاقد النسب والألفة ، مما يدل على دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ، ومما يعطيه الناقد فى كثير منه منزلة الحاذق الصانع ،

والمصور الملهم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماماً فيه ، وأمسى من بعده عيالا عليه ، وتبعاً له .

فالبنفسج زهر غض يرف ، تبصر فيه زرقة أوراقه وحمرة ساقه ، يشبهه ابن المعتز لا بزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ، ولكن يشبهه بلهب نار لا يستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق فى التصوير ، ونظر نظرة خاصية غريبة ، فشبهه بزرقة النار ، أول ماتشتعل فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، وملك زمام الإجادة ، حين يقول :

ولا زوردية تزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار فى أطراف كبريت

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعاً يشبهه ابن المعتز بأشخاص الغربان ، ولكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل الغربان ذاهبة فى الفضاء ، طائرة فى جو السماء ، يدفعها الخوف لا الرجاء ، فيبدع فى ذلك كله غاية الإبداع حين يقول :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى   نطير غرابا ذا قوادم جون(١)

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه ، فى أن جعل ضوء الصبح ، لقوة ظهوره ، ودفعه لظلام الليل ، كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها . ثم صور ذلك كله فى قوله : « نطير غرابا » دون أن يقول غراب أو غراب يطير ، وذلك لأن الغراب وكل طائر إذا كان هادئاً واقفاً فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه كان ذلك أسرع لطيرانه ، ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار ، لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول .

---

(١) الجون : الأبيض والأسود من الأضداد ، والمراد به هنا الأسود .

والشمس في تموج شعاعها وفي إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرآة ، ولا يقنع بذلك بل يجعل المرآة في كف الأشل فيقول : « والشمس كالمرآة في كف الأشل » . . ويصور أشعة الشمس في تلألؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض بالذهب المصبوب على الأرض فيقول في إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

خامساً : وابن المعتز يسبغ على صوره في التشبيه ظل حياته المترفة المفعمة بألوان النعيم . فيشبه الآذريونة بكؤوس الذهب التي يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ، ويشبه النرجس بكؤوس الدراري في حشوها العقيق ، ويشبه العنب بمخازن البلور .. إلى آخر هذه الأوصاف التي استمدها الشاعر من حياته وبيئته .

أثر حياة ابن المعتز وبيئته في شعره :

شعر ابن المعتز صور أدبية جميلة تمثل حياته المترفة أتم تمثيل ، ففيه صور كثيرة مستمدة من الأزهار والورد والجواهر الكريمة وحياة الملوك ومظاهرها المختلفة .

فهو مثلا يصف العنب فيشبهه بمخازن البلور ، حين يقول في ابتداع وتجديد :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياء في ظروف نور

ويصف الهلال أول ظهوره ، حيث يرى قوسا من بياض ، محاطا بالظلام ، فيشبهه بزورق من فضة ، قد أثقلته حمولة من عنبر ، والعنبر أسود والزورق حين يكون مثقلا بما يحمل لا يبدو منه فوق سطح الماء إلا جزء صغير أشبه ما يكون بالقوس .

ثم جعل ابن المعتز الزورق من فضة ، ليكون الجزء البادى منه فوق سطح الماء أبيض متلألئا شبيها بالقوس الفضى الصغير الذى ينير من القمر حين يكون هلالا ، ومن هنا جاءت روعة هذه الصورة وطرافتها ، وذلك حيث يقول ابن المعتز فى وصف الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة　　قد أثقلته حمولة من عنبر

ويصف الهلال أيضا فيصوره بصورة منجل من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا ، والنرجس هنا يشير إلى ظلام الليل ، والمنجل شبيه بقوس الهلال ، والفضة تشير إلى ضوء الهلال ، والمنجل لا يستعمل إلا فى الحصد ، ولذلك تمم ابن المعتز هذه الصورة الجميلة حين جعل المنجل يحصد من زهور الظلام النرجس وحده ، أى يحصد ما يمثل الظلام فى الكون ، فيقول ابن المعتز فى إجادة بارعة فى وصف الهلال :

كمنجل قد صيغ من فضة　　يحصد من زهر الدجى نرجسا

ومن من الشعراء يستطيع أن يصور هذه الصور الرفيعة ؟ إن الشاعر المحروم لا يمكن أن يتحدث عن الفضة والذهب والبلور والزهور فى شعره مثلما تحدث عنها ابن المعتز ، وقد سبق بيت ابن المعتز الذى يصور فيه أشعة الشمس وقد أرسلت على الأرض بالذهب المصبوب عليها ، وهو :

وشارق يضحك من غير عجب　　كأنه صب على الأرض ذهب

ويقول ابن المعتز يصور لهب النار المرتفع من الموقد بأشجار الذهب :

وموقدات بتن يضرمن اللهب
يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

وهذه الصورة رائعة لاحد لجمالها ، وهى جديدة التصوير .

موازنات أدبية :

١ — يقول البحترى فى وصفه العناق :

ولم أنس ليلتنا فى العنـــا   ق لف الصبا بقضيب قضيبا

أخذه ابن المعتز وزاد عليه فى المعنى وفى جودة التصوير ، ودقـــة التعبير ، فقال :

فلو ترانا فى قميص الدجى   حسبتنا فى جسد واحـد

وهنا نرى ابن المعتز يرق فى الأسلوب والتعبير والوصف ، ويجيد فى التصوير إجادة بارعة .

٢ — وقال كثير :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالت بأعناق المطى الأباطح

أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

فقوله : « سالت عليه شعاب الحى » يقابل الشطر الثانى كله من بيت كثير . فهو أوجز ، على أن « سالت عليه شعاب الحى » أبلغ فى التصوير من قول كثير .

٣ — وقال أبو نواس فى الراح :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء در على أرض من الذهب

أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كميت كأنها أرض تبر   فى نواحيه لؤلؤ مغروس

فنجد ابن المعتز يعقد الصورة تعقيداً فنيا واضحا ، ويرسمها بإجادة دون أن تهتز اللوحة التى رسمها ، ونجده مع ذلك مجدداً ، وإن كان لأبى نواس شرف السبق وبساطة الأداء .

٤ — والعامة تشبه الورد بالخد والخد بالورد . وهو من المبتذل، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامى إلى الخاصى ، أوضم إليه معنى يشفع به ، كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه   خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدح بها إبراهيم بن المهدى ، ولما سمع إبراهيم منه هذا البيت، زحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال: يافتى شبهوا الخدود بالورود وأنت شبهت الورود بالخدود (١) . على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بعضهن إلى بعض .

وقال ابن المعتز فى هذا المعنى ، يصور بياض الورد ومافى جوانبه من احمرار :

بياض فى جوانبه احمرار   كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته : ولو اتفق له أن يقول حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل(٢) ، قال عبدالقاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ، فشبه على طريق العكس ، فقال هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض فى وجنة الخجل (٣) ، ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجانى غلطا فى التشبيه (٤) .

٥ — وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته   يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

---

(١) ١٥٨ ج ٢ زهر الآداب .   (٢) ١٥١ وساطة .
(٣) ١٧٢ أسرار .   (٤) ١٧ ج ٢ العمدة .

كأنما نصب كأسه قمر　　يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها　　قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :

وكأنه وكأن الكأس فى فمه　　هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم .

٦ — ولما كان ابن الرومى هو أقرب شاعر إلى ابن المعتز من طبقته ، فسنوازن هنا فى إيجاز بين قصيدتين للشاعرين فى موضوع واحد ، لنرى من هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين ، ولكن هذه الموازنة لا تعطينا حكما حاسما على شاعرية أيهما ، لأنه كثيراً ما يأتى أحد الشاعرين بمعان فى موضوع القصيدة لا يأتى بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين، اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما فى الخيال ، ووحدتهما فى الموضوع ، فوق وحدتهما فى الوزن . قال ابن الرومى من قصيدة فى وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة　　ضاهت بلون لها معصفرها

فى وجنات تحمر من خجل　　كأن ورد الربيع حمرها

يسعى إليها بكأسه رشأ　　أنشه الله وذكرها

فى كفه كالشهاب لاح على　　ظلماء ليل دجت فنورها

إن برزت للهواء غبرها　　أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه　　جن به مزهر ومزمار

وزانه من بنى العباد رشا　　بالجيد والمقلتين سحار

قد ركبت كفه مشعشعة إبريقها في الكأس هدار
يلمع فيها من كل ناحية كوكب نوره إليك نظار
فظلت في يوم لذة عجب وافى به للسعود مقـــدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار .

١ — ففي هاتين القطعتين وصف الساقي والراح ، وفي قطعة ابن الرومي زيادة وصف القينة التي تغني في مجلس الراح .

٢ — وصف ابن الرومي الساقي بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ — شبه ابن الرومي نور الراح في الكأس ، بالشهاب في ظلام الليل، أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار .

٤ — وصف ابن الرومي الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ — ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦ — وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ، لا يتعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض ، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ — وابن الرومي يفوته أحيانا ماهو أبلغ في الوصف . وأروع في أداء الغرض . من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز . كما رأينا في وصف ابن الرومي للساقي بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وابن المعتز يتفوق على ابن الرومي تفوقا ظاهرا حين يصف مظاهر الترف والملوكية في حياته . . ويروى أن لائما لام ابن الرومي ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال : ألا تنشدني شيئا من قوله ، الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون (وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها   والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب   فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ، هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

يطرزها قوس السحاب بأخضر   على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل   مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحرا يقلى زلابية   فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله   فيستحيل شبابيكا من الذهب

نقد لشعر ابن المعتز :

أولا : يأخذ بعض الكتاب على ابن المعتز أنه لا يزيد فى صوره الفنية على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك ، دون أن يعبر فى تصويره عن خلجات نفسه ومشاعره ، فهو حين يشبه الهلال «بزورق من فضة أثقلته حمولة من

عنبر » لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ومع ذلك فلم يحسن فى نقل نسخة تامة الشبه بالهلال ، ويكفى أن تتصور الهلال فى خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز ، لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ما شوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك تصويره للهلال بمنجل الفضة الذى يحصد من زهر الدجى نرجسا ، ففضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا فى الشكل الخارجى ولا صلة بينهما فى الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة ، ثم يجعله يحصد النرجس ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا فى الدجى ، وليس وراء ذلك كله شىء من العاطفة والإحساس أو إدراك شىء من خفايا الجمال ، وأسرار العاطفة .

وهذا نقد لا يقوم على أساس ، ويتلخص فيما يلى :

١ — أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير .

٢ — أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه .

٣ — أنه فى تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد عن الوضوح .

١ — وردنا على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة . ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه هوجو الشاعر الفرنسى الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسى ، فكيف يراعون لو كانوا يعلمون بما أتى به ابن المعتز .

٢ — وردنا على الثانى هو أن فن ابن المعتز فى التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يساير الفن الخالص ، لئلا تبعد الصور التى يرسمها عن حقائقها المرسومة ، وأى ضير على الفنان فى ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخاص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده

مهما سار فى طريقه بعيدا عن العاطفة ، فهو وحـــده مظهر يستثير العاطفة والوجدان .

٣ — وردى على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء فى الأدب ، لا تزال محل بحث النقاد الآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين كان ينادى بالوضوح والإفهام ، وبأن البليغ من الكلام ماكان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم فى تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الابانة ، ولم ير أن خير الكلام العامى المرذول . والقاضى الجرجانى لم يحاسب المتنبي فى وساطته على عمقه فى التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة عامة فى شعر المحدثين ، وعبد القاهر فى أسراره يقسم الغموض إلى ما سببه التعقيد فى الأداء فيرده ، وإلى ما سببه الدقة فى المعنى فيشيد به ، ويرى أن المعانى الشريفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ورأى بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض فى فن المتنبي هو سر عبقريته الشاعرة ، التى ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء .

ثانيا : ومن ردىء الشعر قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر   على شمس من الناس

فالجمع بين الليل والناس ردىء ، وقد وقع هنا باردا ، كما يقول أبو هلال (١) :

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله فى وصف كتاب قد شكلت حروفه :

بشكل يرفع الإشكال عنه   كأن سطوره أغصان شوك

---

(١) ٢٤٩ الصناعتين .

لأنه مدح الكتاب بجعل سطوره شوكا ، وإن كان لاحظ الشبه التام في صورته ، لكنه بالذم أشبه (١) .

ويمكن أن يقال إن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

نماذج لشعر ابن المعتز

١ — من شعره في الغزل :

قف خليلي نسأل لشرة (٢) دارا	أو محلا منها خلاء قفارا
ألبستني سقما أقام وسارت	واستجابت قلبي إليها فطارا
لي حبيب مكذب بالأماني	جعل الدهر موعدا وانتظارا
أيها الركب بلغوها سلامي	واتقوا أخذ طرفها السحارا

٢ — وله في وصف الخمر .

يامن يفندني في اللهو والطرب	دع ماتراه وخذ رأيي لحسبك بي
أفي المدامة تلحاني وتعذلني	لقد جذبت جموحا غير منجذب
وقد يباكرني الساقي فأشربها	راحا تريح من الأحزان والكرب
مازال يقبض روح الدين مبزله (٣)	حتى تغلغل سلك الدر في الثقب
وأمطر الكأس ماء من أبارقه	وأنبت الدر في أرض من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبا	نورا من الماء في نار من العنب
لم يبق فيها البلا شيئا سوى شبح	يقيمه الظن بين الصدق والكذب

٣ — وقال في الفخر :

أيها السائلي عن الحسب الأط	يب ، ما فوقه لخلق مزيد

---

(١) ٢٥٢ طراز المجالس

(٢) اسم محبوبة كان يتغزل بها الشاعر ، ويتلاعب باسمها كثيرا فينطق به : شر ، وشريرة

(٣) المبزل المثقب الذي يثقب به ختم الدن ، والمصفاة أيضا

نحن آل الرسول والعترة الحق وأهل القربى فماذا تريد ؟
ولنا ما أضاء صبح عليه وأتته رايات ليل سود
وملكنا رق الإمامة ميرا ثا ، فمن ذا عنا بفخر يحيد ؟

٤ — وله كذلك فى الفخر والشكوى :

خليلى إن الدهر ماتريانه نصبرا، وإلا أى شيء سوى الصبر؟
سألتكما بالله ما تعلمانى ولا تكتما شيئا فعندكما خبرى
أأرفع نيران القرى لعفاتها
وأضرب يوم الروع فى ثغرة النحر ؟
وأسأل نيلا لايجاد بمثله فيفتحه بشرى ويختمه عذرى ؟
ويارب يوم لايزول ظلامه مددت إلى المظلوم فيه يد النصر
فسبحان ربى مالقومى أرى لهم كوامن اضغان عقاربها تسرى
إذا ما اجتمعنا فى الندى تضاءلوا
كما خفيت مرضى الكواكب فى الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى
وأعوان دهرى إن تظلمت من دهرى

النثر الفنى فى العصر العباسى الأول

نهض النثر الفنى فى هـذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك فى عصر من العصور ، فقد رقت الأساليب ، وعذبت الألفاظ ، وعمقت المعانى ، وسمت الأخيلة ، وتعددت الأغراض ، واتسقت الأفكار . وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدنية وتعدد فى صور الحياة ، ومظاهر العيش ، وبما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف (١) الأجنبية .

وقد كان ابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبى الفنى فى الأدب العربى ، وقد أسهم مع عبد الحميد الكاتب فى دعم كيان هذا النثر ، وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية ، وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثرا واضحا بعيد المدى فى تطور النثر الأدبى والكتابة الفنية ، ومنهم : يعقوب ابن داود وزير المهدى ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذى كتب للمهدى والهادى والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون (٢) ، ويحيى بن برمك ، ثم ابناه: جعفر بن يحيى (١٤٢ — ١٩٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن ابن سهل (٣) ، وأخوه الفضل (٤) ، وأحمد بن يوسف (٥) ٢١٢ م هـ ، وعمرو

---

(١) راجع بلاغة بنى العباس فى البيان والتبيين للجاحظ (٣ : ٣٦٦ - ٣٨٧ ط الخانجى) .

(٢) راجع : ٥٥ : ١ البيان ، ٢٨٢ : ٢ زهر ، ٢٦٠ : ٣ زهر الآداب أيضاً .

(٣) يشيد به الجاحظ (٨٤ : ١ البيان) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ : ١ زهر .

(٤) تبناه يحيى البرمكى وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشاد الحصرى ببلاغته (١٦ — ١٩ : ٢ زهر) .

(٥) له ترجمة فى الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ — ٢٣٦) وكان عالى =

ابن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابى م ٢٢٠ هـ (١) ، ومحمـــد بن يزداد وزير المأمون (٢) .

وفى القرن الثالث الهجرى بلغ النثر الفنى منزلة سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعانى واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد (٣) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان « أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ » لم يعمل هذا الكلام فى أنفسهم عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبتدىء ويحذر وينذر » (٤) . والإطناب مذهب فارسى حتى فى الأساطير وكتابة التاريخ ، يقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب فى الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص

= الطبقة فى البلاغة ولم يكن فى زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ جـ ٢ زهر) ، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ جـ ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح المكاتبة فى التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ جـ ١ ديوان المعانى) .

(١) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٢) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء .

(٣) صـ ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشىء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفى رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٤) راجع مقدمة أدب الكاتب

وأحوال كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامة وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١) ، ولم يحفل الكتاب فى أوائل العصر العباسى الثانى بالبديع ، والتأنق الكثير فى الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ بأن «كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ» (٢) ، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣) .

وكان حامل لواء الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ ، واقتدى به كتاب عصره ، كالصولى وابن الزيات والحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد ابن حميد وأحمـــد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا فى هـذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك فى تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفـة العباسى الشاعر الأديب المشهور . وآخر من تأثر بالجاحظ هو التوحيدى (المتوفى عام ٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) ، وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والرسائل الإخوانية ، والرسالة الأدبية ، والتوقيع ،

---

(١) ٤ ج ٢ المثل السائر ، وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة فى هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ - ابن طيفور مخطوط) .

(٢) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية ، ٢٠٩ ج ٢ زهر .

(٣) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن .

والمقامة ، والأدب الوصفى ، وأدب الطبيعة ، وأدب القصة ، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبى فى هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت فى هـذا العصر كتب أدبيـة جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجـاحظ ، وأدب الـكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والـكامل للمبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على أيدى الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبى قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته فى هذا العصر الحافل .

ولسوف سنتحدث بالتفصيل عن كل لون من ألوان النثر فى هذا العصر ، مبينين العوامل التى أثرت فيه ، والظواهر التى جدت عليه .

---

(١) الخطابة فى العصر العباسى الأول

صور من الخطابة :

١ — خطب أبو العباس بالشام بعد مقتل مروان بن محمد فقال :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان، يتسكعون بكم فى الظلم ، ويتهورون بكم فى مداحض الزلق ، يطأون به حرم الله وحرم رسوله . ماذا يقول زعماؤكم غداً ؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » : إذاً يقول الله عز وجل : « لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبحلمه على جهلكم . فليفرخ روعكم[1] ولتطمئن بكم داركم ، ولتعظكم مصارع أولئكم ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

٢ — وخطب سليمان بن على عم أبى العباس ، فقال :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، قضاء مبرم ، وقول فصل ، وما هو بالهزل . الحمد لله الذى صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة غرضاً[2] ، والفىء إرثاً ، والدين هزواً ، وجعلوا القرآن

---

(١) يقال أفرخ روعه : أى خلا قلبه من الهم وعلى هذا يكون معنى أفرخ خلا ، ومعنى الروع القلب ، أما قولهم : أفرخ روعه بفتح الراء فالروع هنا الخوف .

(٢) إشارة الى ما نال الكعبة من بنى أمية من هدم وتدمير فى فتنة الزبير .

عضين(١)، ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فكأين ترى من بئر معطلة وقصر مشيد(٢) ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أمهلوا والله حتى نبذوا الكتاب، واضطهدوا العترة، ونبذوا السنة، واعتدوا واستكبروا، وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً».

٣ — وخطب أبو جعفر المنصور بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراسانى فقـــال :

«أيها النـاس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة : فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده، وفلتات لسانه، وصفحات وجهه، وأبداه الله لإمامه بإعزاز دينه، وإعلاء حقه.

إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص، أجزرناه خبيء هذا الغمد، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه، ثم نكس بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له، من إقامة الحق عليه».

٤ — ومن خطبة للمنصور :

ياعباد الله لا تظالموا، فإنها مظلمة يوم القيامة، والله لولا يد خاطئة،

---

(١) العضة. الفرقة، وجمعها عضون، والعضة «بالهاء» الكذب وجمعه عضون أيضا. فمعنى جعلوا القرآن عضين، جعلوه أجزاء، فقال بعضهم إنه شعر، وقال آخرون هو سحر، وقال غيرهم كهانة. وقيل جعلوه كذبا.

(٢) المشيد : المطلى بالشيد وهو الجص، والمشيد «كمكرم» المطول

وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم فى أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأتيته حتى أدفعه إليه [1] .

٥ — ومن خطبة للسفاح فى الكوفة حين بويع بالخلافة :

يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا [2] .

٦ — خطبة للمأمون :

خطب المأمون وقد سلم الناس عليه بالخلافة حين بلغه بخراسان قتل أخيه ، إذ أقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أيها الناس إنى جعلت لله نفسى ، إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا إلا تحله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة [3] تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى ، إلا ما كان فى الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا ، وميثاقا مشددا .

إنى أنى رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير [4] مستأهلا ، وللنكال [5] ،

---

(١) ٣ : ٢٣ جمهرة خطب العرب

(٢) ٢ : ٢١٣ شرح ابن أبى الحديد

(٣) نحله أعطاه والاسم النحلة

(٤) الغير : الأحداث

(٥) النكال : العقاب

معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول بينى وبين معصيته[1] .

وهذه الخطبة فى مناسبة معروفة وموقف رهيب ، إذ خطب بها المأمون الناس لما بلغه قتل أخيه الخليفة ، وقد أقبل الناس عليه يبايعونه بالخلافة ، وفيها يعلن المأمون سياسته نحو رعيته ، وهى أنه سوف يلتزم ماألزمه الله به فى معاملة الشعب ، ويعلن احترامه للدماء والأموال ، وأنه لن يحكم بهواه فى رضا ولاغضب ، وأنه يلزم نفسه العمل بما ألزمه به الله عز وجل ، ويفى بعهده مع الله رغبة فى زيادة نعمته ، ودفعا لحسابه ومسألته . . ويؤكد المأمون العهد وأنه لن يغير أو يبدل شيئا منه وإلا كان للخطوب وللعقاب مستحقا ، ثم يتعوذ بسخط الله ويرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يباعد بينه وبين معصيته . . وأسلوب الرسالة فيه إيجاز شديد ، وتشتمل على حكم عالية ، مع البلاغة النادرة والروعة الفائقة ، مما يدل على علو منزلة المأمون فى البلاغة ، وثبات قدمه فى الفصاحة .

٥ — خطبة داود بن على على منبر الكوفة :

كان داود بن على بن عبد الله بن عباس خطيب بنى العباس وأحد مؤسسى دولتهم ، نشأ هو وإخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلا - فى قرية الحميمة من أعمال عمان[2] ، وكان الوليد بن عبد الملك أجلى على بن عبد الله بن عباس وأهل بيته إليها غضباً عليه ؛ وخوفا من وثوبه إلى الملك والخلافة .

وأخذ هو وإخوته علمهم وأدبهم عن أبيهم على حبر قريش وابن حبرها

---

(١) ١١٩ و ١٢٠ الجزء الثالث من جمهرة خطب العرب لأحمد صفوت ط ١٩٣٣

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية وهى الآن مقر إمارة شرق الأردن

وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجذام وتنوخ وغسان وقيس فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحب الانتقام ، وجانبتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف والملذات والعكوف على الملاهى .

وكان داود أحد النابغين من إخوته فى هذه الصفات ويزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة . ولاه أبو العباس — عقب بيعته بالكوفة — ولاية الكوفة وسوادها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية فى مكة والمدينة فى هذا العام ١٣٢ هـ — وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم إلى المدينة ، فتوفى بها بعد شهرين من قدومه إليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ .

ولداود خطبة بليغة خطبها يوم بيعة أبى العباس السفاح على منبر الكوفة ، وهى . « الحمد لله ، شكراً شكراً إنا والله ماخرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن أرخى له من خطامه حتى عثر فى فضل زمامه ؟ فالآن (١) حيث أخذ القوس باريها وعادت القوس إلى النزعة (٢) ، ورجع الملك فى نصابه فى أهل بيت النبوة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرشنا) ، أمن الأسود والأحمر ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ، لاورب هذه البنية — وأومأ بيده إلى الكعبة — لانهيج منكم أحداً » .

---

(١) ظرف لأمن الأسود .

(٢) جمع نازع وهو الرامى يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم .

وهذه الخطبة الموجزة البليغة الرائعة تتضمن كل ما يمكن أن يقوله خطيب فى هذا المقام ، وكل ماكان يجب أن يقوله هذا الثائر العظيم فى هذه المناسبة .

وقد اشتملت على حمد الله وشكره على هذا النصر العظيم ، وعلى نفى أن يكون العباسيون قد قاموا بثورتهم لغرض شخصى ، من حب السيطرة أو حب الدنيا ؛ وعلى بيان مثالب الأمويين ومساوئهم فى الحكم . كما تضمنت التصريح بعودة الخلافة إلى أهلها وأصحابها من آل النبى الذين خرجوا لينتصروا للشعب الإسلامى الثائر ؛ ثم أمن داود بن على الناس ، اللهم إلا الأمويين خصوم العباسيين والمطاردين منهم بعد أن دالت الدولة لهم ، وأخذوا منهم مقاليد الخلافة ، وزعامة الإسلام .

وأسلوب الخطبة يمتاز بالجزالة والقوة والبلاغة، وبالإيجاز ، مع مافيها أحيانا من سجع مطبوع . ولا شك أن هذه الخطبة تمثل الملكات العربية السليمة فى هذا العصر .

٦ — ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ابنه فقال :

« أى بنى ، إنى مؤد حق الله فى تأديبك ، فأد إلى حق الله فى الاستماع منى ، أى بنى . كف الأذى ، وارفض البذا (١) واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ، لأنه يرديك بمشورته ، واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لاترديك ، وأن نتيجته لاتجنى عليك » .

---

(١) البذاء : السفه والافحاش فى المنطق .

٧ — وخطب المأمون خطبة الجمعة فكان مما قال :

« أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده . فإنه لايسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا مايبقى بمازول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا ، فقد جد بكم (١) ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، ومابين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أوالشقوة لمستحق لأفضل العدة » .

٨ — وخطب عبد الله بن طاهر بن الحسين الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال : « إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، والداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين . فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه وأهل معصيته الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا العصا (٢) ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ،

---

(١) الجد في الأمر : الاجتهاد وضد الهزل ، وقولهم « أجدك لاتفعل » بكسر الجيم استحلاف بالحقيقة ، وبالفتح استحلاف بالبخت ، وإذا قيل « وجدك لا تفعل » فتح لاغير .

(٢) أصل العصا الاجتماع والائتلاف وشقوا العصا أي شقوا الاجتماع والائتلاف وفرقوا الجماعة ، وأصل ذلك أن الحاديين يكونان في رفقة فاذا فرقهما الطريق شقت العصا التي معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها ويضرب لكل فرقة .

فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجأون ، وعدتكم التى بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة ، التى أمركم الله بلباسها ، غضوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدما على بصائركم فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » أيدكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنصر » .

٩ — حوار بين المأمون وإبراهيم بن المهدى :

لما ظفر المأمون بعمه ابراهيم بن المهدى [1] أمر بإدخاله عليه ، فجىء به يحجل فى قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولاحفظك ولا رعاك ولا كلأك يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم على رسلك يا أمير المؤمنين ، ولى الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاغترار فى الأمل هجمت به الأناة على التلف ، وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ، فإن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، ثم أنشأ يقول :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

---

(١) لما عقد المأمون ولاية العهد لعلى الرضا العلوى أنكر العباسيون عليه ذلك وخلعوه من الخلافة وبايعوا بها عمه إبراهيم بن المهدى فأسرع إليه المأمون فهرب وتوارى ولكن المأمون ظفر به .

فأطرق المأمون مليا ثم رفع رأسه فقال : إنى شاورت أبا إسحق والعباس فى قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما : بدأنا له بإحسان ونحن نستأمره فيه ؛ فإن غير فالله يغير ما به ، فقال : أما أن يكونا قد نصحاك فى عظم قدر الملك وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله . ثم استعبر باكيا ، فقال له المأمون : ما يبكيك ، قال : جذلا ، إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الإنعام، ثم قال: يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرمى يبلغ سفك دمى فحلم أمير المؤمنين وتفضله يبلغانى عفوه ، ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب ، قال المأمون : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وعفو الله بينهما وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم لقد حببت إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، أما لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا تثريب عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك ، ثم أمر برد ماله وضياعه .

١٠ — دخل معن بن زائدة الشيبانى على المنصور وقد أسن فقارب فى خطوه فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يا معن . قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد . قال على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال هى لك يا أمير المؤمنين ، قال فأى الدولتين أحب إليك ؟ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

١١ — ومن أقوال الوعاظ ما روى أن ابن السماك دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : عظنى . قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك غدا واقف بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته ، فأقبل الفضل بن الربيع

على ابن السماك فقال: سبحان الله! وهل يتخالج أحد شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله، فأقبل ابن السماك على الرشيد، وقال: إن هذا ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك، فبكى الرشيد حتى أشفق عليه الحاضرون .

تطور الخطابة فى هذا العصر

أسباب رقيها :

كان قيام خلافة بنى العباس انقلابا خطيراً هز المشاعر، وأثار الخواطر وأهاج النفوس، وقلب الأوضاع، ودفع إلى كثرة الجدل والمناظرة، واستدعى تأليف الجماعات، وقيام الكثير من الدعوات، وحض الناس على التشيع لبنى هاشم، وإعلان السخط والإنكار على بنى أمية، وسياستهم الجائرة، وما اقترفوه من سيئات، وارتكبوه من منكرات .

ولاشك أن حدثا جليلا مثل هذا الحدث، لابد أن يستعان فيه بالخطابة على جذب القلوب، وكسب الأنصار، وتحميس المتشيعين، وتأجيج نار البغض على الدولة الغابرة، ودفع الجنود بالبلاغة الباهرة إلى خوض المعارك القاهرة الظافرة .

وكان من شأن بنى العباس أن يقيموا الدعاة، ويبثوا الخطباء فى كل مكان يعلنون بالحجة الساطعة حقهم فى خلافة المسلمين، وإمامة الناس بعد سيد المرسلين

كما كان من شأنهم أن يعنوا عنـــاية بالغة بالمواسم الدينية، والأعياد الإسلامية فهم يخرجون فى مواكب رائعة وجموع حاشدة، ويسيرون بين الصفوف المرصوصة، حتى يصلوا إلى المسجد، ثم يدخلون فى خشوع ووقار

وأبهة وجلال ، وعظمة وبهاء ، ويؤمون الناس ويخطبونهم ، ويلقون عليهم بليغ العظات ، وروائع الآيات ، حرصا منهم على الظهور بمظهر الإمامة الدينية ، والزعامة الروحية ، وإعزاز الدين ، والغيرة على الإسلام ، لأن هذا المظهر هو الذى تأسس به ملكهم وقامت عليه دولتهم .

لذلك كان للخطابة فى عهد نفوذ الخلفاء العباسيين مكانة مرموقة ، ومنزلة كريمة ، وشأن عظيم .

وزاد من نهضتها ورقيها فى مطالع هذا العصر ما كان عليه مؤسسو الدولة من أصالة الطبع ، وسلامة الملكة وفصاحة الألسنة ، لأن خطر العى واللكنة والضعف لم يكن قد ظهر بعد فى مظهره الشديد .

وقد آزر الملكات ما كانوا يأخذون به أنفسهم ، من تعليم الناشئين الخطابة وفنون القول ؛ يروى (١) أن بشر بن المعتمر مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخرمة الخطيب ، وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحا . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ؛ وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما

---

(١) ١٢٦ : ١ البيان والتبيين للجاحظ ـ الطبعة الثانية ـ نشر التجارية .

عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهـــارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .. الخ .

وكان كذلك كثير من الخطباء والبلغاء يعيشون فى البادية ، حيث الفصاحة واللسن والبيان وقوة الحجة وشدة العارضة ، وقد كثر وفودهم على الخلفاء للاستمناح والشكوى والاستعطاف وغير ذلك .

فلا عجب إذن أن تنهض الخطابة وتزدهر ، ويعلو شأنها ، وترتفع منزلتها ، ويكثر الخطباء المفوهون .

ولقد كان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام محفوظ ، فقد استدعى الأصمعى لتأديب ولده ، وقال له : أريد أن يصلى بالناس فى يوم جمعة ، فاختر له خطبة ، وحفظه إياه ، فحفظه عشرا ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب به الرشيد (١) .

ثم وكل الخلفاء والأمراء والولاة الخطابة فى الناس ، إلى خطباء مختارين ، وعهدوا بذلك إليهم ، ماعدا المهتدى بالله (٢٥٥ – ٢٥٦ هـ)، فقد كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ، فيخطب الناس ، ويؤمهم (٢) ؛ وفى عام ٢٧٩ هـ صلى المعتضد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة (٣) ، وأصبح الخليفة لا يخطب إلا فى الأعياد (٤) ؛ ولمـــا عزم المطيع لله

---

(١) ٢٠ و ٢١ : ٢ الفرج بعد الشدة .

(٢) ٨ : ٢ المسعودى .

(٣) ٩٧ : ٢ تاريخ أبى المحاسن .

(٤) كان الخلفاء الفاطميون يخطبون فى كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء (٢٧٧ و ٢٨١ : ٢ الخطط للمقريزى) ، وكان الحاكم يخطب فى جامع عمرو جمعة وفى جامع ابن طولون جمعة وفى الأزهر جمعة ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكى انتقلت الخطبة إليه (١٣٨ : ١ حسن المحاضرة) .

(٣٣٤ - ٣٦٢ هـ) على الصلاة بالناس فى عيد الفطر لم يعرف مايقوله إذا انتهى فى الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل فى ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختارله دعاء (١) ، وخطب الطائع بعده فى عيد الأضحى (٣٦٣ هـ) خطبة قصيرة (٢) . وفى البصرة كان الخطيب يخطب كل صباح (٣) .

وفى آخر العصر العباسى الأول ضعفت الخطابة بزوال أسبابها ، وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة فى الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صارفى الكتابة وقد تنوعت أساليبها وأغراضها غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ، ولم يبق لها إلا مظهرها الدينى ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ، ويخطبون الناس ، وآخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣١٢ — ٣٢٩ هـ) (٤) .

أنواع الخطابة :

والخطابة فى هذا العصر تتنوع إلى خطابة سياسية ، وخطابة اجتماعية ، وخطابة دينية ، وخطابة أدبية .

ومن السياسية خطب زعماء البيت العباسى ، ومن الخطب الاجتماعية ماكان يلقى فى مختلف المناسبات القومية والاجتماعية ، ومن الخطابة الدينية خطب الوعظ والقصص وخلافهما . ومن الخطابة الأدبية الخطابة فى مختلف المقامات الأدبية التى كانت تحدث فى هذا العصر ، والتى أدت إلى نشأة فن المقامات .

---

(١) ٣٤٩ : ٢ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) ١٠٦ ب المنتظم - مخطوط .

(٣) ١٠٣ : ٢ الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة .

(٤) راجع ٢١٢ الأدب العربى للزيات ، ٥٤ ومابعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ١٠٤ ومابعدها العصر العباسى للسباعى بيومى .

دواعيها وموضوعاتها :

وقد تعددت دواعى الخطابة فى عصر نفوذ الخلفاء وتنوعت مظاهرها ، وكثرت ألوانها .

١ — فقد كانت الحاجة ماسة إليها فى تثبيت الملك ، ودعم الدولة ، وتوطيد أركان الخلافة ، وإقناع الناس بأحقية بنى العباس لها ، أو فى مجادلة الخصوم ، وتهديد المعارضين ، والتشنيع على بنى أمية ، بما قارفوا من أخطاء ، واجترحوا من مساوىء ، وفى إثارة النفوس ، وكسب القلوب ، وتحميس الجنود ، والتبشير بفتح ، والتهنئة بنصر ونحو ذلك .

٢ — كما اتخذوها أداة للوعظ ، وتذكير الناس بالآخرة ، وتحذيرهم من غرور الدنيا ومتاعها ، وذلك فى المحافل العامة ، والمواسم الجامعة ، والأعياد الدينية . وجعلها القصاص فى قصصهم وسيلة إلى إثارة المشاعر وإمتاع النفوس بذكر سير الأولين وتاريخ الماضين ومن أشهر القصاص موسى ابن سيار الإسوارى ، وأبو على الإسوارى ، وكان يقص فى فنون كثيرة ويستشهد بالقرآن الكريم فى قصصه ، وكان يونس بن حبيب يسمع منه كلام العرب ويحتج به ، ثم قص بعده أبو العباس الضرير ولم يدرك فى القصاص مثله ؛ وصالح المرى ، وكان صحيح الكلام ، رقيق المجلس ، وقال فيه سفيان بن حبيب حين رأى بيانا لم يحتسبه ومذهبا لم يكن يدانيه . « هذا ليس قاصا ، هذا نذير » .

٣ — كما كانت لسان الوفود الذين يفدون على دار الخلافة ، تأييداً لسياسة ، أو إظهاراً لمحبة ، أو طلبا لحاجة أو شكاية من مظلمة .

٤ — ومما يقرب من الخطابة فى روعة أسلوبها ، وشدة تأثيرها ، وسمو بيانها ، الحوار الذى كان يدور بين البلغاء والفصحاء ، من خاصة القوم ، ورجال الدولة . . . وقد مرت ألوان من هذا الحوار .

خصائصها :

امتازت الخطابة فى هذا العصر بجمال أسلوبها ، وفخامة ألفاظها ، وبعدها عن الحوشية والغرابة ، وعن الابتذال والإسفاف .

كما تمتاز بقوة تأثيرها ، وروعة تصويرها ، لاصطباغها بصبغة الدين وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم واعتمادها على الكثير من آياته والاقتباس من عظاته والاستشهاد بكلام الرسول . ويكثر فيها أسلوب الحجاج ، ومعانى الوعد والوعيد والتسفيه والتهديد ، والامتنان بالنعمة ، والشكر على كريم الهمة ، وجليل المودة .

على أن الحضارة التى غرقوا فيها قد أكسبتها غزارة فى المعانى ووفرة فى المادة ورقة فى الأساليب ، ودماثة فى الألفاظ ، مما ضاعف تأثيرها وزاد فى بهائها ورونقها .

أشهر الخطباء :

وقد نبغ فى هذا العصر أعلام من الخطباء المصاقع وفحول من البلغاء المقاول ، ممن نشأوا نشأة عربية قوية ؛ وورثوا ملكات البلاغة والخطابة من أصولهم العربية ، أو اكتسبوها بالتأدب والتعلم والدرس والحفظ .

وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع ، والشأو البعيد ، من أمثال بنى العباس وبنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، وعظماء القواد من العرب، ونابغى الناشئين من الفرس ، والأدباء من أهل الرواية للشعر والأخبار والقصص والأسمار واللغة والأدب والنقد .. ومن ولاة الدولة وخصومها، من خوارج وعلويين وشعوبيين .

وكان الخلفاء يخطبون الناس ويؤمونهم فى الصلاة ، واستمر ذلك بعد

هذا العصر إلى الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ ، والذى كان آخر خليفة عباسى خطب على المنبر . ويصف البحترى فى رائية بليغة له خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر وإمامته للناس ، وخطبته فيهم ، فيقول فيما يقول :

أبدت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المنير وتخبر
ووقفت فى برد النبي مذكراً . بالله تنذر تارة وتبشر

ومن خطباء هذا العصر من الخلفاء : السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون .

ومن الأمراء : داود بن على المتوفى عام ١٣٣ هـ ، وأخواه عبد الله وصالح وأبناؤه عبد الملك وإسماعيل وعبد الله ؛ ومنهم : سليمان بن على ، وابنه جعفر وبنوه : سليمان وداود وأيوب .. ممن يصفهم الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » فيقول : « وجماعة من ولد العباس فى عصر واحد لم يكن لهم نظراء فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجلون عن هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك »(١).

ويقول الجاحظ فى داود بن على : « كان أنطق الناس ، وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول ، ويقال إنه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط ، وله كلام كثير معروف محفوظ » (٢) .

ومن خطباء العلويين الهاشميين : جعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن وأبناؤه : محمد وإبراهيم وموسى .

ومن خطباء بنى طالب : عبد الله بن معاوية .

---

(١) البيان والتبيين الأول صـ ٢٦٥
(٢) ٢٦٣ : ١ البيان والتبيين .

ومن الوزراء : الفضل بن سهل وأخوه الحسن ذو الرياستين وزير المأمون وصهره ، وجعفر البرمكى .

ومن الخطباء : سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون[1] ، وطاهر ابن الحسين ، وعبد الله بن طاهر - ومنهم : العتابى الذى يقول فيه الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابى » ومنهم : خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة المتوفى عام ١٧٠ هـ الذى يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

وغيرهم من فحول الخطابة والبلاغة ، وأئمة البيان والفصاحة .

وقد ظهرت فى العصر العباسى الأول طبقة من القصاصين الذين كانوا يعتمدون على الخطابة فى قصصهم ، وقد ذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أسماء طائفة كبيرة منهم ؛ كما ظهرت طبقات كثيرة من الوعاظ فى هذا العصر ، ومن بينهم : أبو زكريا الرازى (٢٥٨ هـ) [2] ، وعلى [3] بن محمد المصرى (المتوفى ٣٣٨ هـ) [4] .

وكان كثير من الصوفية من الخطباء البارعين ، والبلغاء المفلقين . .

---

(١) كلام الجاحظ عليه فى البيان والتبيين ٥٩ : ١ .

(٢) زبدة الفكر ١٩ ب - مخطوط . (٣) ٨١ ا المنتظم - مخطوط .

(٤) ظهر فى العصر العباسى الثانى من الوعاظ : ميمونة البغدادية ٣٩٣ هـ (٣ : ٩٣ تاريخ أبى المحاسن) ، وأبو الحسين بن سمعون ٣٠٠ - ٣٨٧ هـ (٣١٩ : ٢ معجم الأدباء لياقوت) ثم محمد الشيرازى ٤٣٩ هـ (١ : ١١١ تاريخ بغداد) ، ومن الخطباء ظهر فى العصر الثانى : ابن نباته (المتوفى عام ٣٧٤ هـ : ٩٨٤ م) ، وعبد الواحد بن عبد الكريم (٤٩٤ هـ) بنيسابور (٢٨٤ : ٣ طبقات الشافعية للسبكى) .

(٢) الكتابة فى هذا العصر

صور للكتابة فى هذا العصر :

١ — كتب عبد الله بن المقفع فى وصف أحد إخوانه .

« إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ماعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يتشهى مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعو إليه ريبة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يأشر عند نعمة . ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل فى دعوة ولا يشارك فى مراء . ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضيا فهماً ، وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً على ماقد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحبا إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى . وكان لا ينقم على الولى ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها — ولن تطيق — ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٢ — وكتب يحيى بن خالد البرمكى وهو فى الحبس[1] إلى هرون الرشيد:

---

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها =

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين من عبد أسلمته(١) ذنوبه ، وأوبقته(٢) عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فحل فى الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود . ساعته شهر ، وليلته دهر ، . فقد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين ، وأسفاً على مافات من قربك ، لا على شىء من المواهب ، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدى عارية والعارية مردودة .

أما ماأصبت به من ولدى فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

فتذكر ياأمير المؤمنين كبر سنى ، وضعف قوتى ، وارحم شيبتى ، وهب لى رضاك ، بالعفو عن ذنب إن كان ، فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار مايجب به الإقرار حتى ترضى عنى ، فاذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى مالا يتعاظمك بعده ذنب أن تغفره ، مد الله لى فى عمرك وجعل يومى قبل يومك .

فلم يكن له جواب من الرشيد .

٣ — ومن رسالة لسهل بن هارون وجه بها إلى محمد بن سماعة القاضى :

= وصورتها ، فعزم على نكبتهم . حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ فقتل جعفر بن يحيى ليلا فى طريقه . وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

(١) أسلمته : خذلته ، فأسقطته من علياء مرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب .

(٢) أوبقته : أهلكته .

إنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه ، له سن مع أدب ، ولسان تقعده الرزانة ويسكته الحلم ، تكفيه اللحظة وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم لحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه . وقد آثرتك بطلبه ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك (١) .

وهذه الرسالة تشبه رسالة ابن المقفع السابقة فى وصف أحد إخوانه .

٤ — رسالة لعمرو بن مسعدة :

كتب إلى المأمون وقد تأخرت أرزاق الجند :

كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ماتكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم (٢) .

وكان عمرو بن مسعدة من بلغاء الكتاب فى العصر العباسى الأول ، وكان كاتب التوقيعات بين يدى جعفر البرمكى وزير الرشيد ، وتوفى عام ٢١٧ هـ . وكان كاتبا بليغا جزل العبارة وجيزها (٣) .

---

(١) ١ : ٢٤٩ الأمالى .

(٢) ٢٣٤ أدب الكتاب الصولى .

(٣) ٦ : ٨٨ معجم الأدباء ، ١ : ٥٥٥ ابن خلكان ، ٥ : ٥٠٢ الوافى بالوفيات ـ قسم ثالث مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومجلة المجمع العلمى =

وكانت بلاغة عمرو بن مسعدة مضرب الأمثال ، ولما وقف أحمد بن يوسف على هذه الرسالة الموجزة البليغة الرائعة أعجب ببلاغتها ، وقال : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ومضمون الرسالة شكوى وطلب إلى الخليفة المأمون بإرسال مرتبات الجند المتأخرة ، وفحواها إخبار بحالتهم مع طى الطلب والشكوى . . وهذا من غير شك مما جعل لها أهمية فى نظر بلغاء العصر العباسى ، ويضم إلى ذلك إيجازها الشديد البليغ الذى جعله أحمد بن يوسف من أسباب بلاغة الرسالة .

وفى رأيى أن هذه الرسالة لاتستحق هذا الاهتمام وذلك التقدير ، لأنها لاتثير فينا إحساسا . ولاتجعل الذوق يلتفت إليها ، وليس فيها فى رأى قارئها الخاصى، بله العادى، جديد ، وجملة « اختلت أحوالهم » أشبه بالذم منه بالمدح ، ولو قال بعد المقدمة : « على أحسن ماتكون عليه جند يذبون عن الخلافة ، ويتعرضون فوق ذلك لآلام الجوع والنصب ، ويقاسون الحرمان من تأخر وصول أرزاقهم ، واختلال أحوالهم من أجل ذلك ، لكان أروع وأبلغ من كلام ابن مسعدة السقيم ، مع اتحاد المضمونين ، وتوافق الأسلوبين فى أغلب التراكيب .

= العربى بدمشق من بحث للأستاذ محمد كرد على ، ٣ : ٥٩ عصر المأمون ، والحياة الأدبية فى العصر العباسى .

فصل للجاحظ فى الحسد (١)

الحسد ـ أبقاك الله ـ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود . علاجه عسر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، وماظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . وقال بعض الناس لجلسائه : « أى الناس أقل غفلة » فقال بعضهم : « صاحب ليل ، إنما همه أن يصبح » . فقال : « إنه لكذا ، وليس كذاك » فقالوا له : « فاخبرنا بأقل الناس غفلة » فقال : « الحاسد ، إنما همه أن ينزع الله منك النعمة التى أعطاكها ، فلا يغفل أبداً » . ويروى عن الحسن أنه قال : « الحسد أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس . وما أتى المحسود من حاسده إلا من قبل فضل الله عنده ونعمته عليه » . قال عز وجل : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان ، فقد ذم الله أهل الكتاب به فقال : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم » .

فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشر بين الحلفاء ، يكمن فى الصدر كمون النار فى الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد ـ بعد تراكم الغموم على قلبه ، واستكمان الحزن فى جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد عيشه — إلا استصغاره نعمة الله عنده ، وسخطه على سيده

---

(١) من رسالة الجاحظ فى الحاسد والمحسود .

بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يرجع فى هبته إياه ، وألا يرزق أحداً سواه - لكان عند ذوى العقول مرحوما ، وكان لديهم فى القياس مظلوما . وقد قال بعض الأعراب : « ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . والحاسد مخذول وموزور ، والمحسود محبوب ومقصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت فى السموات وأول معصية حدثت فى الأرض . خص به أفضل الملائكة فعصى ربه ، وقايسه فى خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . فلعنه وجعله إبليساً ، وأنزله من جواره بعد أن كان أنيساً ، وشوه خلقه تشويها ، وموه على قلبه تمويهاً ، نسى به عزم ربه فواقع الخطيئة ، فارتدع المحسود فتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده فشقى وغوى . وأما فى الأرض فابنا آدم حسد أحدهما أخاه فعصى ربه وأثكل أباه . وبالحسد طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة ، وبلغ به أقصى حدود العقوق ، إذا ألقى الحجر عليه شادخا فأصبح عليه نادما صارخا .

ومن شأن الحاسد - إذا كان المحسود غنيا - أن يوبخه على المال ، فيقول : « جمعه حراما ، ومنعه أيتاما ، وألب عليه محاويج أقاربه . فتركهم له خصماء ، وأعانهم فى الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر ، فقال : « لقد كفروا معروفك ، وأظهروا فى الناس ذمك . ليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون ، وإن وجد له خصما أعانه عليه ظلماً . وإن كان ممن يعاشره فاستشاره غشه : أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أودعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سئل عنه همزه ، وإن كان عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال إنه يحب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود .

وإن كان المحسود عالماً قال: « مبتدع لرأيه لامتبع ، حاطب ليل ، ومبتغي نيل ، لايدري ما حمل ، قد ترك العمل ، فأقبل على الحيل . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثني عليه ، ويصوم لتقبل شهادته ، ويظهر النسك ليودع المال بيته ، ويقرأ في المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته . وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخويص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غـيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك .

وكان عبد الله بن أبي قبل نفاقه نسيج وحده ، لجودة رأيه ، وبعد همته ونبل شيمته ، وانقياد العشـيرة له بالسيادة ، وإذعانهم له بالرياسة ، وما استوجب ذلك إلا بعد ما استجمع له لبه ، وتبين لهم عقله ، وفقد بينهم جهله ، ورأوه لذلك أهلا لما أطاق له حملا .

فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقدم المدينة ، ورأى « عبد الله » عز رسول الله ، شمخ بأنفه ، فهدم إسلامه لحسده ، وأظهر نفاقه . وماصار منافقا حتى صار حسوداً ، ولا صار حسوداً حتى صار حقوداً ، لحمق بعد اللب ، وجهل بعد العقل ، وتبوأ النار بعد الجنة . ولقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : « يارسول الله لاتلمه ، فإنا كنا قد عقدنا له الخرز قبل قدومك لنتوجه .

ولو سلم للمخذول قلبه من الحسد لكان من الإسلام بمكان ، ومن السؤدد في ارتفاع ، فوضعه الله لحسده ، وأظهر نفاقه . ولذلك قال القائل :

طال على الحاسد أحزانه   فاصفر من كثرة أحزانه
دعه فقد أشعل في جوفه   ماهاج فيه حر نيرانه
العيب أشهى عنده لذة   من لذة المـال لخزانه
فارم على غاربه حبله   تسلم من كثرة بهتانه

ورسالة الجاحظ « الحاسد والمحسود » التي ينصح فيها القارىء باتخاذ الحيطة والتوقى من سهام الحسد والحاسدين ، من أهم رسائله ، وأبلغ ما كتب من نثر فنى .

وأسلوبه هنا هو أسلوب الجاحظ الذى تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى لترى فيه رقة الألفاظ وسجاحة العبارة وجمال الأسلوب والزهد فى الصور العبانية ، وهو يتردد بين السجع والازدواج مع ميل إلى الإطناب والترادف ، وتعاور العبارات على الفكرة الواحدة .

والرسالة تمثل النثر الفنى فى عصر الجاحظ ، أصدق تمثيل ، فى بلاغته وجماله وتمشيه مع الحضارة العقلية والفكرية والأدبية التى سادت الأدب والثقافة آنذاك .

وفى هذا الفصل من رسالة « الحاسد والمحسود » يبين ضرر الحسد ، وينفر منه ، ويظهر خفاياه ، ويكشف نفسية صاحبه كشفا ، ويبدو من أسلوب الجاحظ هنا أنه أشبه بالعالم النفسى الذى يفصح عن طوايا النفوس ومشاعرها وأحاسيسها إفصاحا شديدا .

ولا شك أن الجاحظ قد سبق بهذا التحليل النفسى فى أسلوبه الكتاب والبلغاء والأدباء ، وأثرى بذلك الأدب ولغة العرب إثراء شديدا .

وقد ولد الجاحظ بالبصرة ١٦٠ هـ وكانت فى عنفوان الثورة العلمية والأدبية ، فأخذ عن علمائها وأدبائها ، كالأصمعى والأخفش والنظام المعتزلى الذى تخرج عليه فيما بعد ، وكانت له مدرسة وتلاميذ صارت لهم وله من الشهرة وذيوع الصيت ما كاد ينسى الناس النظام على قوة جدله ، وشدة عارضته ، وخلابة منطقه وسحر بيانه ، وكثرة جمعه للمسائل ، وإحاطته بالعلوم ، وليس يشك أحد أن الجاحظ كان نادرة من نوادر التاريخ ، وثروة ضخمة فى اللغة والأدب ، ولأسلوبه فى الكتابة مميزات جعلته صاحب طريقة عرف بها ، ونسبت إليه ، منها :

أولا : الإطناب الذى لا تحس فيه مللا ، ولا تشعر منه بسأم ، ولا تود معه أن ينقطع بك حبل الحديث ، لأنه يمزح جده بهزله ، ويستطرد إلى الملح والنوادر والطرف ، استجلابا للنشاط ، وإيقاظا للتفكير ، مستعينا بالترادف ، والاستقصاء للمعانى ، والإيفاء للموضوع .

ثانيا : الاهتمام باختيار الألفاظ ، وتنسيق الجمل ، وترابط الأسلوب : واعتماده على المنطق القوى ، والفكر السليم .

ثالثا : تقطيع الجمل إلى فقرات ، والتزام السجع حين يريد اقتياد العواطف وامتلاك زمام الوجدان .

وقد ظهرت هذه الخصائص والميزات فى أسلوبه فى هذا الفصل ظهورا واضحا ليس فيه خفاء .

والجاحظ صاحب باع طويل فى صناعة الكلام وأسلوب الكتابة ، كاد ينفذ به إلى القلوب ، ويخترق الأفئدة ، ويناجى العواطف ويمتلك المشاعر ، ويصل بقلمه المصقول ، وبيانه القوى ، إلى خلجات النفوس ، وخفايا الضمائر ، وله من ذهنه المتوقد ، وعقله الكبير ، ما جعل لمنطقه من التأثير ، وما لحجته من الرهبة ، ماساعده على الوصول إلى هدفه حين يرمى ، ولغايته حين يقصد ، لايستعصى عليه شامس ، ولا يتأبى عليه صعب .

٦ — وكتب أحمد بن يوسف يهنىء بمولود :

« أما بعد ، فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجاً ، أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقك ، وعرفنى من جميل رأيك . فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سرياً ، أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشتد سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله باراً تقياً ، يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك » .

وكتب فى الذم :

« أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ، ولا أوعر ، من طريقه إليك . ولا مستودعا أقل زكاء ولا أبعد ثمرة خير ، من مكانه عندك ، لأنه يحصل منك فى حسب دنى : ولسان بذى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك فى المعروف أن تحرزه ، وفى وليه أن تكفر به » .

٧ — وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة إلى أحد العمال :

« أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ، ليس فى واحدة منهما عـــذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة ، إما تقصير فى عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، وإما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك ، محلة النكر بك ، وموجب العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الإعذار والإنذار . وعلى حسب ما أنلت من عظيم العثرة . يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والإضاعة ، والسلام » .

٨ — وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وقد تنكر له وتلون عليه :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ؛ وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ؛ ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء : وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وأن امرأ أمسى وأصبح سالما   من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا النـــاس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالبـــاطل

فإن كنت اجترأت عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى . فإن كنت لا تهب عقابى ـ أيدك الله ـ لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك على كزين صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك .. واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم .. والسلام .

٩ — وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض إخوانه يصف سر من رأى ، ويذكر خرابها :

كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق . وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى ، وكأن خرابها ينشر . وقد وكلت إلى الهجر نواحيها ، واستحث باقيها إلى فانيها . وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . ليس له زاد فيرحل ، ولا مرعى فيرتع . فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها ، عليهم أردية السيوف ، وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت فى وجوهها غررا كأنها

صحائف البرق ، وامسكها تحجيل كاسورة اللجين ، فى جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم ينهض أواخره ، وقد صب عليه وقار الصبر ، وهبت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العين جمالا ، والقلوب جلالا . لاتخلف مخيلته ، ولا تنقض مريرته ، ولا يخطىء بسهم الرأى غرض الصواب ، ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب ، قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لاينتشر حبله ، ولا يتشظى عصاه ، ولا تطفى جمرته ، فى سن الشباب لم يجن مأثماً ، وشيب ولم يراهق هرماً . قد فرش مهاد عدله ، وخفض جناح رحمته ، راجما بالعواقب الظنون ، ساعياً على الحق يعمل به، عارفاً بالله يقصد إليه ، مقراً للحلم ويبذله، قادراً على العقاب ويعدل فيه ، إذ الناس فى دهر غافل ، قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشى ، خشنة المرام ، تطير بها أجنحة السرور ، ويهب فيها نسيم الحبور ، فالأطراف على مسرة ، والنظر إلى مبرة ، قبل أن تخب مطايا الغير ، وتستفر وجوه الحذر . وما زال الدهر مليا بالنوائب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن يومه ، ويغدر غده .

على أنها ـ وإن جفت ـ معشوقة السكنى ، وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء، وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء . والهم إلى فرجة ، ولكل سائلة قرار ، وبالله أستعين وهو المحمود على كل حال :

غدت سر من را فى العفاء فيالها	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها	لما نسجتها من جنوب وشمأل
إذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله	يقولون : لاتهلك أسى وتجمل

١٠ ـــ ولأحمد بن يوسف إلى المأمون :

داعى نداك يا أمير المؤمنين ، ومنادى جدواك ، جمعا الوفود ببابك ،

يرجون نائلك المعهود ، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بخدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ، ويحقق حسن ظنهم بطوله ، فعل إن شاء الله تعالى (١) .

١١ — ولابن قتيبة يقدم كتابه (عيون الأخبار) :

وهذه عيون الأخبار ، نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ، ولأهل العلم تذكرة ، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدبا ، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب ، وصنفتها أبوابا ، وقرنت الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وهى لقاح عقول العلماء ، ونتاج أفكار الحكماء ، وحلية الأدب ، والمتخير من كلام البلغاء ، وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف .

١٢ — ومن رسائل أبى اسحق الصولى على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه ، وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوم به من أود وعدل به من زيغ ولم به من منتشر ، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرها :

أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً ، فإن لم تغن أغنت عزائمه

وكتب إلى ابن الزيات يستعطفه :

« كتبت وقد بلغت المدية المحز ، وعدت الأيام بك على بعد عدوى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثر خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عند أذاتها . فصرت أضر على منها ، فكف الصديق عن نصرتى خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك » .

---

(١) ١٦٩ : ٥ معجم الأدباء لياقوت ـ طبع القاهرة .

١٣ — وقال أبو يوسف فى كتاب « الخراج » الذى كتبه للرشيد :

وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ؛ يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ماأمروا به ، وعلى ماوظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح . أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجبة والنكال ، حتى لايتعدوا ماأمروا به ، وماعهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لم يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف ، وخيانة لك فى رعيتك ، واحتجان شىء من الفىء ، أو خبث طعمته أوسوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك ، أو تشركه فى شىء من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ماتعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة .

حالة الكتابة فى هذا العصر

يراد بالكتابة هنا هذا الفن البليغ من النثر الذى أداته القلم وعماده التجويد والتهذيب ، واصطناع الصور الأدبية الرائعة التى تحدث فى النفس ارتياحا وإعجابا ، وتبعث فيها نشوة وهزة ، وهو ما نسميه الكتابة الإنشائية أوالفنية أو الأدبية ، التى يتأنق فيها الكتاب ، ويعنى بها الأدباء ، ويدرسها النقاد والعلماء ، ويحفظها ويتأدب بها الشداة فى الأدب ، لأنها مظهر من مظاهر البلاغة والبيان ، وفيها متعة للنفس ، وغذاء للروح .

أنواع الكتابة وموضوعاتها :

وللكتابة الفنية فى هذا العصر ألوان عدة :

١ — فنها الرسائل الإخوانية التى يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شكر أو شفاعة أو عتاب ، وما إلى ذلك ، وهى أوسع ميداناً وأكثر افتتانا ، وأعذب بيانا ، وأعلى منزلة ، وأسمى قدراً ، وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته ، وأخلاق الناس ومنازعهم .

٢ — ومنها الرسائل الأدبية المطولة التى يكتبها البلغاء ، يسجلون فيها خواطرهم ويدونون آراءهم فيما يعن لهم من شئون الاجتماع أو الفكر أو الأدب ، أو يعملون على تأييد مذهب وتفضيل فريق على فريق ، أو يكتبونها فى الترويح عن النفس أو الفكاهة والسخرية ، ونحو ذلك ؛ مما يتجلى فى السير والأسمار والخرافات والأخبار والقصص ، كرسائل الخميس التى كان يكتبها البلغاء فى هذا العصر ، لتقرأ فى خراسان تأييداً للدعوة والدولة والخلافة ، وكرسائل ابن المقفع ، وككتب الجاحظ ورسائله مثل البخلاء والتربيع والتدوير والحاسد والمحسود ومناقب الترك .

فضلا عن اصطناع الكتابة فى فنون أخرى عديدة : كالوصف والمناظرة ونحو ذلك من الموضوعات التى كانت وقفاً على الشعر .

٣ — ومن ألوان هذه الكتابة الرسائل الديوانية أو الرسمية ، التى تصدر من ديوان الرسائل بنوعيه (الخاتم والتوقيع) ، فى شأن من شئون الدولة ؛ وكانت الكتابة فى هذا الديوان بخلافها فى الدواوين الأخرى الكثيرة ، إذ كانت تعتمد على التأنق فى الأسلوب والجمال فى العبارة والبراعة فى إظهار المعنى بصورة واضحة مقبولة .

ونحن نعلم أن المدنية ازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ازدهاراً بالغاً ، وأعمال الدولة اتسعت اتساعا ظاهراً ، بسبب مخالطة الأعاجم للعرب ،

ونفوذ الفرس فى الدولة ، وسعة سلطان الخلافة فى المشرق والمغرب ، فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين التى تقوم بانجاز الأعمال المتعددة ، وخصوا كل ديوان منها بعمل من الأعمال ، وأشرف على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام الكسروى فى الإدارة وطبقوه فى دولة الخلافة . . ومن الدواوين التى كانت موجودة : ديوان الخراج والنفقات ، وديوان المظالم والشرطة ، وديوان الضياع والإقطاعات ، وديوان الخواص وديوان الجيش ، وديوان المعاون ، وديوان المشرق ، وديوان المغرب . وديوان الحسبة ، وديوان القضاء .

وكان الوزير الذى يقلد منصب الوزارة تسند إليه إدارة تلك الدواوين كلها ، ماعدا ديوان الجيش ، فكان يشرف عليه كبار القواد فى جيش الخلافة وقد يتصرف فيه الخليفة بنفسه أو بواسطة حاشيته . فإذا كان الوزير أثيراً لدى الخليفة ، موثوقا به الثقة كلها ، وشهر بحسن التدبير ، وصواب الرأى ، ألقى إليه الخليفة مقاليد جميع الأمور . ووكل إليه إدارة جميع الدواوين ، فيصبح المشرف على جميع أعمال الدولة ، والمتصرف فى شئون الحرب ، كالفضل بن سهل ، الذى وكل إليه المأمون ذلك كله ، ثقة به ، بعد أن انتصر جيش الخلافة بقيادة طاهر بن الحسين على عيسى بن ماهان بتدبير الفضل وحسن سياسته ، ولقبه الخليفة « ذا الرياستين » وكان له علم على سنان ذى شعبتين ، وكتب على سيفه من ناحية رياسة التدبير ، ومن الأخرى رياسة الحرب . . ولخطر منصب الوزير وجلاله اشترط فيمن يتقلده أن يكون عالماً أديباً بليغاً أريباً مصيباً داهية محنكا ، قد أدبته التجارب وعلمته الأيام ، يروى أن المأمون كتب فى اختيار وزير : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقه ، واستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن أؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه

اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ؛ إن أحسن إليه صبر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه (١) .

والذين تسنموا هذا المنصب الخطير (٢) كانوا من صفوة الناس وأعلام أدبا وخلقاً وكفاية ودراية وذكاء وفهماً : كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ، وأبى أيوب المورياني وزير المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدى ، ويحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير المأمون وأخيه الحسن بن سهل وأحمد بن يوسف وسواهم ، ممن كانوا درة فى جبين الدهر ، وغرة فى وجه الخلافة ، وشجعوا العلوم والآداب ، وأيدوا حركة الترجمة ورعوها . وكان لكل وزير كاتب أو أكثر . يعينه على أعماله ، ولولاة الأقاليم كذلك كتاب ، فابن المقفع مثلا كان يكتب لوالى كرمان داود ابن عمر بن هبيرة . وكان أكثر هؤلاء الوزراء والكتاب ممن نبتوا من أصول فارسية ، وكان الوزير قلما يختار لمنصبه إلا إذا كان من أفذاذ الكتاب .

---

(١) ٢١ الأحكام السلطانية .

(٢) قال ابن خلكان : اختلف أرباب اللغة فى اشتقاق كلمة الوزارة على قولين : أحدهما : أنها من الوزر وهو الحمل فكأن الوزير قد حمل عن السلطان الثقل ، وهذا قول ابن قتيبة ، والثانى أنها من الوزر بفتح الواو والزاى وهو الجبل الذى يعتصم به لينجى به من الهلاك ، وكذلك الوزير معناه الذى يعتمد عليه الخليفة والسلطان ويلتجىء إلى رأيه ، وهو قول أبى إسحاق الزجاج « ٢٢٩ : ١ وفيات الأعيان » .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الكلمة ليست عربية بل هى مأخوذة من اللغة الفهلوية من كلمة « فيشيرا » ومعناها الأمر أو التقرير .

ولم يكن لقب الوزير موجوداً فى الدولة لمن يتولى مثل هذا المنصب قبل الخلافة العباسية ، وكان يسمى قبل ذلك كاتبا ومشيرا .

وقد ألفت فى أدب الكتاب والوزراء كتب كثيرة ، منها : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وأدب الكتاب للصولى ، وكتاب الكتاب لابن درستويه ، وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، وكتاب الأحكام السلطانية وسواها ، وألف القلقشندى المصرى أخيراً كتابه الضخم « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » وحول ثقافة الكاتب وشخصيته يقول أبان ابن عبد الحميد اللاحق من قصيدة رفعها إلى الفضل بن يحيى بن خالد مستميحاً عطفه وفضله ، راجياً أن يكون فى حاشيته ، وقائماً بخدمته (١) :

أنا من بغية الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب	ناصح رائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ	ـشة إما تكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة وانتقاد	أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعـ	ـلم بقول منور الإفصاح
وظريف الحديث فى كل فن	وبصير بترهات الملاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد	لغدو دعيت أو لرواح
لست بالناسك المشمر ثوبيه	ولا الماجن الخليع الوقاح

وهكذا اتسعت الدواوين باتساع الأعمال . وتنوعت بتنوع مطالب الدولة ، بيد أن الكتابة - فيما عدا ديوان الرسائل - كانت لا تتجاوز ضبط الجباية وحساب الإيراد والنفقات والمرتبات ومحاسبة الولاة وتصريف الأمور ، مما لا يخرج عن التسجيل فى الدفاتر ، والتعداد والإحصاء ، وليس

---

(١) يروى أن أبانا لما رفع هذه القصيدة إلى الفضل دعاه فلما دخل عليه أتاه بكتاب فرمى به إليه وقال له : أجب عنه ، فأجاب أبان بما فى نفسه وأحسن . فأمر له بألف ألف درهم ، وكان يرى أول داخل عليه وآخر خارج من عنده ، فحسده أبو نواس فهجاه فأقصاه الفضل عنه .

فى ذلك كله مجال لبراعة أو بيان وإفصاح ، ولا يهتم الباحث الأدبى بالحديث عنه ، إلا من حيث الثقافة العامة الواجب الإحاطة بها وفهمها .

فأما الكتابة فى ديوان الرسائل فهى التى تلقى العناية والاهتمام من كل جانب ، لأن رسائل الدولة ذات البال إنما كانت تصدر عن هذا الديوان ، وترد إليه ، ولذلك تولاه فحول البيان ، وأعلام البلاغة ، وحذاق الأدب ، المحيطون بشتى الثقافات ، فكان ما يصدر عن هذا الديوان مثلا أعلى فى الفصاحة والجمال وتمثيل العواطف والمشاعر ، مع عمق الفكرة وجلال التصوير .

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها : طبقة الكتاب ، الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم فى نقد (٣) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية ، من الفرس والروم والسريان والقبط ، من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة ابن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا

---

(١) ١٠٥ : ١ البيان (٢) ٣٢٥ : ٣ (٣) ٢٤٠ : ١

واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تعبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (١) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٢) ؛ وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية .

هذه هى الكتابة الفنية التى عرفت فى هذا العصر .

أما الكتابة العلمية ، التى هى كتابة التأليف والتدوين ، والتى تحفل بالاصطلاحات ، ويراعى فيها دقة الفكر ، وترتيب المقدمات لتؤدى إلى النتائج ، وضبط العبارة ، وتحكيم المنطق ، والتى تعتمد أكثر ما تعتمد على الحقائق ، لا على التهويل والانطلاق مع الخيال والانسياق وراء العاطفة .

نقول : أما هذه الكتابة فلم يكن لها كبير خطر فى هذا العصر ، لأن العلوم كانت لاتزال موضوعاتها مختلطة ، وكانت حينذاك فى بداية التدوين . حاشا كتب الأدب التى كتبت بلغة شبيهة بلغة الرسائل الأدبية ، أما الكتب التى ترجمت فى هذا العصر فى مختلف العلوم والثقافات ، فإنها لم تأخذ السمت التأليفى الذى ظهر بوضوح بعد عصر نفوذ الخلفاء .

نهضة الكتابة فى هذا العصر :

بلغت الكتابة الفنية فى هـــذا العصر من الرقى والسمو مالم تبلغه فى أى عصر من العصور وذلك لظهور آثار الثقافات الأدبية والفكرية ، ولكثرة محفوظات الأدباء من آداب العرب والآداب المترجمة ، ويروى أن رجلا سأل ابن المقفع : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع

---

(١) ١٠٤ : ١ (٢) ١٥١ : ١

يعنى به الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثاً على النهوض بالكتابة ، داعياً إلى ارتفاع شأنها ، وسمو منزلتها ، ثم كان التنافس القوى بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزاً على تجويدها والتأنق فى أساليبها .

ولئن كانت الكتابة فى آخر عصر بنى أمية ، قد صارت صناعة عتيدة ، لها أصولها ومناهجها ورسومها وقواعدها ، بما زاد فيها سالم مولى هشام ، وتلميذه عبد الحميد ، من تهذيب وصقل وتجويد وجمال تصوير ، فقد نهضت وازدهرت فى عصر نفوذ الخلفاء ، وصارت صناعة من أشرف الصناعات وأصبحت سلم الوصول إلى المجد ، والصعود إلى رتبة الوزراء وغيرها من أشرف المراتب وأسمى المناصب ، ونبغ فيها فحول لم يجد الدهر بمثلهم فى البلاغة والفصاحة والحذق والبراعة واللطف وشرف الصناعة ، حتى بذوا فحول الشعر فى عظمة الجاه ، وسعة النفوذ والسلطان .

خصائص الكتابة فى هذا العصر :

(ا) تمتاز الكتابة الفنية فى هذا العصر بعدة ميزات ظاهرة فى الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال . ومن هذه الميزات :

١ — سعة الخيال وطرافته ، وعمق المعانى ودقتها وتنوعها وجدتها وسعتها ، وظهور آثار الثقافات الأصيلة والمترجمة فيها ، واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى أدلتها والإقناع بها .

٢ — التأنق فى الألفاظ وحسن تخيرها والبعد بها عن الحوشية والغرابة .

٣ — أما أسلوبها فقد امتاز بالتجويد والتهذيب ، واستعمال المحسنات البديعية ، والإكثار من ألوانها ، مع وضوح العبارة ، وحسن الإشارة ، وجودة الوصف ، وجمال السبك ، وقوة الأداء ، والتنوع فى تخير الأساليب ،

فى جزالة حيناً ، وعذوبة حيناً آخر . وقد عمد الكتاب إلى اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطولة ، وفى بعض المنشورات والعهود ؛ وإلى تنويع عبارات البدء والختام فى الرسائل ؛ وكانوا يبالغون فى الإيجاز حيناً وفى الإطناب حينا آخر ، وفق ماتقتضيه الأحوال والمقامات ؛ وكان بعض الكتاب يحرص على الإيجاز ويوصى به ، ولكنه لم يكن السائد فى أسلوب كتابة الرسائل فى هذا العهد ، ويروى عن جعفر البرمكى أنه كان يقول لكتابه : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

٤ — وقد اقتبس الكتاب من الكتابة الفارسية أورع ماراقهم منها من تهويل فى الخطاب وتعديد الألقاب ، وإفراط فى استعمال طرفى الإيجاز والإطناب، وشدة تلاؤم الخيالات وابتداعها ، وتلاحم المعانى واختراعها ، والمقدمات التى كانوا يفتتحون بها رسائلهم المطولة ، وبعض عهودهم ومنشوراتهم .

(ب) ونلاحظ أن كتاب الرسائل كانوا يكثرون من التهذيب والتنقيح والتجويد ، وتوخى الصحة والسلامة والبلاغة والبراعة ، حذاراً من النقد الذى قوى فى هذا العصر . وقد كان الكتاب يفرقون بين أسلوب وأسلوب وعبارة وعبارة ، ويضعون الفروق بين التراكيب والصيغ ، ويطالبون سواهم بها ، ويحرصون هم عليها ، ويعيبون على من خالفها ، يروى أن عاملا للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب إليها من رسالة : « وأدام كرامتك » ، فلما قرأت الكتاب وقعت على ظهره : « أصلح خطأك وإلا صرفناك عن عملك » ، فأعاد الإمعان فى أسلوبه فلم يهتد لخطئه ، فعرضه على صديق له ، فقال : إنما كرهت قولك فى صدر الرسالة : « وأدام كرامتك » لأن كرامة النساء دفنهن ، فغير ذلك الدعاء وأعاد عليها الكتاب فوقعت على ظهره : « أحسنت ولا تعد » .
ومن دقتهم فى ملاحظة الفروق بين الأساليب أنهم خصوا « أبقاك الله وأمتع

بك » بالابن والخادم المنقطع إلى كاتب الرسالة وأشباههما ، ولقد كتب محمد ابن عبد الملك الزيات إلى عبدالله بن طاهر رسالة ، وردت فيها كلمة « وأمتع بك » ، فكتب إليك عبد الله :

أحدت عما عهدت من أدبك	أم نلت ملكا فتهت فى كتبك ؟
أم قد ترى أن فى ملاطفة الـ	إخوان نقصاً عليك فى أدبك ؟
أكان حقاً كتاب ذى مقـة	يكون فى صدره (وأمتع بك) ؟
أتعبت كفيك فى مكاتبتى	حسبك ماقد لقيت من تعبك

فرد عليه ابن عبد الملك بقوله :

كيف أخون الإخاء يا أملى	وكل شىء أنال من سببك
أنكرت شيئاً فلست فاعله	ولن تراه يخـــط فى كتبك
إن يك جهل أتاك من قبلى	فعد بفضل على من حسبك
فاعف فدتك النفوس عن رجل	يعيش حتى الممات فى أدبك

وكذلك جعلوا « أطال الله بقاءك » أرجح وزنا من قولهم « أبقاك الله طويلا » ، قال ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد : « من الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها ، فى كتب السادات والملوك ، على اتفاق المعانى ، مثل « أبقاك الله طويلا » ، وإن كنا نعلم أنه لافرق بين قولهم « أطال الله بقاءك » وبين قولهم « أبقاك الله طويلا » ولكن جعلوا هذا أرجح وزناً وأنبه قدراً فى المخاطبة ، كما أنهم جعلوا « أكرمك الله وأبقاك » أحسن منزلا فى كتب الفضلاء والأدباء من « جعلت فداك » على اشتراك معناه ، واحتمال أن يكون فداءه من الخير ، كما يحتمل أن يكون فداءه من الشر . على أن كتاب العسكر قد أولعوا بهذه اللفظة ، حتى استعملوها فى جميع محاولاتهم ، وجعلوها هجيراهم فى مخاطبة الشريف والوضيع » .

ويروى أن الربيع قال : دخلت على الشافعى وهو مريض فقلت له : « قوى الله ضعفك » فقال : لو قوى ضعفى قتلنى ، قلت : والله ماأردت إلا الخير ، قال : أعلم أنك لو شتمتنى ماأردت إلا الخير ، قل : « قوى الله قوتك وضعف الله ضعفك » .

وهذه الدقة المأثورة عن الشافعى يؤكدها ماروى عنه أنه قال : « أكره أن تقول : « أعظم الله أجرك فى المصائب » ، لأن معناه أكثر الله مصائبك ليعظم أجرك » .

طبقات الكتاب :

١ — الكتاب فى عصر نفوذ الخلفاء العباسيين طبقات :

ا — فالطبقة الأولى: هى التى أدركت الدولتين ، وهى طبقة ابن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثى ، وعمارة بن حمزة ، وأبى أيوب الموريانى . ممن كتبوا للمنصور .

ب — والطبقة الثانية : طبقة أبى عبيد الله معاوية ويعقوب بن داود وزيرى المهدى ؛ ويحيى بن برمك ويوسف بن القاسم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد .

ج — والطبقة الثالثة: طبقة جعفر بن يحيى ، وأخيه الفضل ، وإسماعيل ابن صبيح ؛ والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل، وأحمد بن يوسف، وعمرو ابن مسعدة ، وأحمد بن أبى خالد الأحول - ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون .

د — والطبقة الرابعة : الطبقة التى ربيت فى عصر المأمون وجمعت بين الآداب والبلاغة العربية والدخيلة ، وقرأت كتب اليونان والفرس والهند، وإليها انتهت البلاغة ، وفتحت أبواب البديع ؛ وبذ أعلامها فحول الشعر

فى عظمة الجاه والرياسة ؛ مثل: الجاحظ ومحمد بن عبدالملك الزيات وإبراهيم ابن العباس الصولى ، وسعيد بن حميد ، والحسن بن وهب ، وسليمان بن وهب ؛ وسواهم ممن كتبوا للخلفاء بعد المأمون .

٢ — ويجعل بعض الكاتبين(١) هذه الطبقات طبقتين ؛ الأولى : رئيسها ابن المقفع ، وطريقته تنويع العبارة . وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخى السهولة ، والعناية بالمعنى ، والزهد فى السجع ؛ وقد حد البلاغة فقال : « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ، وقال لبعض الكتاب : « إياك وتتبع الوحشى من الكلام طمعا فى نيل البلاغة فإن ذاك هو العى الأكبر ؛ وقال الآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » .

والثانية : رئيسها الجاحظ ، وطريقته أشبه بالأولى فى سهولة العبارة وجزالتها ، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ؛ وزيادة الإطناب فى الألفاظ والجمل والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل ؛ وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائيـــة .

وهؤلاء الكتاب جميعا صفوة من البلغاء والفصحاء وأرباب البيان ، ممن ملكوا أزمة البلاغة ، وبلغوا أعلى منازل الفصاحة والبراعة ، وامتازت كتابتهم بطول النفس ، وجمال الأداء ، وبراعة الأسلوب ، وشرف المعانى ، وحسن الابتداع فى الأخيلة ، مع الازدواج حينا ، والسجع حينا آخر . . إلى غير ذلك من الخصائص والميزات التى أفضنا فى شرحها .

---

(١) ص ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات

أشهر الكتاب فى هذا العصر :

ومن أعلام الكتاب فى هـــذا العصر محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣ هـ(١) ، وإبراهيم بن العباس الصولى م ٢٤٣ هـ(٢) ، وسعيد بن حميد ٢٦٠ (٣) هـ ، والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥ هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ (٦) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة الكاتب م ٢٧٧ هـ (٧) ، والمرثدى وكان يكتب للموفق (٨) ؛ ونطاحة الكاتب أحمد من إسماعيل بن الخصيب الانبارى كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ؟ وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (٩) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢ هـ (١٠) ،

---

(١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء، ٢٧٨ : ٣ وما بعدها عصر المأمون ، ٢٧ : ١١ ومابعدها الطبرى . ٣٩ : ٤ مسعودى ، ٤٣ الرسالة العذراء.

(٢) راجع : ٥٦ : ٤ مسعودى ، ١٧٣ فهرست ، ٢١ : ٩ الأغانى ومابعدها، ٢٠٠ : ١ المفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق، ٩٩ خاص الخاص.

(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الأعيان ٥٤ — ٥٧ : ٢ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ : ٤ ، ١٢٢ : ٤ زهر ، ٩١ : ٤ المسعودى ، ٤٢ : ٢ ثمرات الأوراق .

(٤) راجع : ١٧٧ فهرست — ٥٠٦ سمط اللآلى — ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد — ٤٤ : ٣ زهر ، ٢٢١ — ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء .

(٥) وفى معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات فى آخر خلافة المتوكل .

(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومى — ١٧٧ فهرست — ١٥٤ — ١٦٠ : ٧ مهذب الأغانى — ٥٠٦ : ١ سمط اللآلى — ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٣٨٦ — ٣٨٨ : ١ وفيات الأعيان ، ٤٦ : ٣ زهر .

(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٣٦ — ٥١ : ٢ معجم الأدباء .

(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦ أدب الكتاب للصولى .

(٩) راجع : ١٨٠ فهرست — ٢٧٧ ج ١ معجم الأدباء ، ويرى عنه الصولى كثيراً جداً فى أدب الكتاب ، وله كتاب طبقات الكتاب .

(١٠) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء .

وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ) ، وعلى ابن الحسن المتوفى بعد ٣١٠ هـ وقد جاوز التسعين (٢) ، وعلى بن العباس النوبختى م ٣٢٧؟ عن سن عالية (٣) ، وابن المعتز م ٢٩٦ ؛ وأبو بكر محمد بن يحيي الصولى م ٣٣٦ (٤) وهو الذى جمع ديون ابن المعتز (٥) ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤ هـ (٦) وحميد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ هـ (٧) ، وأبو الحسن جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (٨) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد (٩) .

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة فى الأدب العربى والتأليف فيه ، ومنهم :

(ا) الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان .

(ب) أبو سعيد الحسن السكرى النحوى م ٢٧٥ هـ وكان راوية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام .

---

(١) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح .
(٢) ٢٩٥ معجم الشعراء .
(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء ، ١٤٥ جـ ٢ زهر .
(٤) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ جـ ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة أدب الكتاب .
(٥) ١٧٥ جـ ٢ زيدان .
(٦) ٢٥٢ جـ ٤ تاريخ بغداد .
(٧) ٤٦٣ معجم الشعراء .
(٨) ٤١٧ جـ ٢ معجم الأدباء ، ١٨٨ فهرست .
(٩) ١٨٨ فهرست .

(ح) ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ[1]، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

(د) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة [2] .

(هـ) ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤-٢٨٠هـ)[3]، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع فى الشعراء واختيار المنظوم والمنثور [4] .

(و) ومنهم أبو العيناء بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣ [5]) .

---

(١) ١٥ ! وما بعدها فهرست ، ٤٤٩ - ٤٥٠ : ١ وفيات الأعيان ، ١٧٠ : ٢ وما بعدها زيدان .

(٢) راجع ١٧٢ : ٢ زيدان .

(٣) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، و٢٥١ الموشح ، ٢١١ : ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ : ١معجم الأدباء ، ٤٨ و٩٣ و ٩٤ : ١ ديوان المعانى .

(٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء فى مجلد مخطوط هى : الحادى عشر فى بلاغات النساء وقد طبع منفرداً فى مصر ، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولا من رسائل مختارة .

(٥) ١٨١ فهرست - ١٧٥ : ٤ مسعودى - ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١- ٣٢٤ : ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢- ٣٣٠ و٣٣٢ : ١ زهر ، ١٧٠ نكت الهميان - ١٧٠ : ٣ تاريخ بغداد - ١٨٠ : ٢ شذرات الذهب ، ٦١ : ٧ معجم الأدباء ، ١٤٥ : ٣ سمط اللآلى ، ٢١٨ - ٢٢١ : ١ أمالى المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعراء لابن المعتز

(٣) فن التوقيعات

التوقيع فن بليغ من فنون النثر ، ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير فى أسفل الكتب الواردة إليه ، بإبداء الرأى فيما يرفع إليه من شكوى ، أو يقدم له من رجاء ، أو يستشار فيه من أمر .

وللتوقيع فى اللغة معان متعددة: جاء فى اللسان: وقع [١] ظنه على الشىء قدره وتوهمه . والتوقيع الإصابة . وتنظر الأمر ، وتوهم الشىء؛ ومن معانيه اللغوية التأثير ، يقال : جنب هذه الناقة موقع . أى أن فيه تأثيراً خفيفاً من الحبال التى تشد عليها ، والمناسبة بينه وبين المعنى الاصطلاحى ، أن التوقيع فى أسفل الكتاب تأثير خفيف ، إلى جانب ما كتب فيه من عبارات طويلة .

ووقع القوم : عرسوا ، أى نزلوا آخر الليل ، كما أن التوقيع يكون فى آخر الكتاب المرفوع . ووقعت [٢] الإبل : بركت أو اطمأنت بالأرض بعد الرى ، فكأن الموقع بعد توقيعه قد اطمأن إلى ما أبداه من رأى .

والتوقيع فى الكتاب إلحاق شىء فيه بعد الفراغ منه ، وقيل هو مشتق من التوقيع الذى هو مخالفة الثانى الأول . قال الأزهرى : توقيع الكاتب فى الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول ، وهو مأخوذ من توقيع الدبر [٣] ظهر البعير . فكأن الموقع فى الكتاب يؤثر فى الأمر .

وفن التوقيع موجود من قديم فى الأدب الفارسى ، ووجد فى الأدب

(١و٢) بتشديد القاف .

(٣) الدبر بفتح الدال والباء القرحة فى ظهر البعير .

العربي منذ عصر صدر الإسلام ، ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر حين كتب إليه سعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء فوقع له عمر : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . وقد رويت توقيعات كثيرة للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية ... ولكن هذا الفن قد نضج واستحكم وقوي في عصرنا هذا عصر نفوذ الخلفاء ، ونبغ فيه كثير من أعلام الكتاب وفحول البلغاء ، وروى منه الكثير كذلك لخلفاء بني العباس ووزراء دولتهم في هذا العصر .

وكان الكتاب يتنافسون في إجادته ، ويتبارون في بلوغ أقصى الغاية فيه حتى غلبت على توقيعاتهم روعة الإيجاز ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وشدة التأثير ، ولطف الإشارة ، وكانت توقيعاتهم أحياناً مثلا أو حكمة أو آية من القرآن أو حديثاً مأثوراً عن رسول الله ، أو بيتاً من الشعر .

وكان الأدباء الناشئون يحفظونها ويروونها ويعنون بجمعها ، وقد يبذلون في التوقيع الواحد من الدراهم إلى عشرين درهما .

نماذج من التوقيعات :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط : إن حلمك أفسد علمك ، وتراخيك أثر في طاعتك ، فخذ لي منك ، ولك من نفسك .

ووقع المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت فأشكيناك وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفراق السلامة .

ووقع لوالي مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهر عسكرك من الفساد يعطيك النيل القياد .

ووقع في قصة فقير : سل الله من رزقه . . ووقع المهدي في قصة رجل حبس في دم : ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب .

ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان : داو جرحك لا يتسع .

ووقع فى نكبة جعفر البرمكى : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .

ووقع المأمون فى قصة متظلم من أحمد بن هشام : اكفنى هذا الرجل وإلا كفيته أمرك .

وقال عمرو بن مسعدة : كتبت كتابا إلى عامل فأطلته فأخذه المأمون من بين يدى وكتب : قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فإما اعتدلت وإما اعتزلت . . . وينسب هذا التوقيع لجعفر البرمكى أيضاً .

ووقع المأمون فى كتاب لإبراهيم بن المهدى : القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله .

ووقع جعفر البرمكى فى قصة محبوس : العدل أوقعه ، والتوبة تطلقه .

ووقع يحيى البرمكى لمظلوم : طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً .

ووقع طاهر بن الحسين فى قصة مستمنح : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

تراجم بعض الكتاب

ابن المقفع

١ — ظهر ابن المقفع ، وأحدث أثره فى النثر الفنى وفى تطوره ، وكان الكتاب من قبله قد حولوا الكتابة إلى صناعة لها أصولها الفنية ، وكان بعض منهم يعرفون الفارسية أو الرومية أو اليونانية أو السريانية ، ومن بينهم : أبو العلاء سالم كاتب هشام ، وأستاذ عبد الحميد ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل وكان يعرف اليونانية ، وجبلة بن سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى العربية[1] ، وعبد الحميد الكاتب أحد أعلام النثر الفنى وأئمته ، وكان يعرف الفارسية .

ويقول بعض الباحثين : إنه استخرج أمثلة الكتابة الفنية التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى[2] . وإنه أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية[3] ، ويصفه ابن النديم بأنه سهل سبل البلاغة فى الترسل وعنه أخذ المترسلون[4] .

ويقول عنه طه حسين : إنه أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وإنه كان يعرف اللغة اليونانية[5] ، وهذا مما لا يوافقه عليه باحث ، ويصف ابن عبد ربه فى العقد

---

(١) راجع ص ١٧١ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٦٩ الصناعتين طبعة صبيح ، ١٩ : ٢ ديوان المعانى ، وهما لأبى هلال العسكرى . (٣) ٥٧ : ١ النثر الفنى لزكى مبارك .

(٤) ١٧٠ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١٠ مقدمة نقد النثر لقدامة وهى بقلم طه حسين .

الفريد عبد الحميد الكاتب بأنه أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر (١) .

ولقد تأثر ابن المقفع ببلغاء عصره وفى مقدمتهم عبد الحميد ، وكان أحد المترجمين من الأدب الفارسى والثقافة الفارسية (٢) ، ولا شك أن ابن المقفع كان إمام الكتاب والمنشئين فى عصره ، وقد آخى فى أسلوبه بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، ويعد من أبلغ البلغاء ؛ ومن أساطين الفصاحة فى الأدب العربى . . ولغته وتركيب جمله أدنى إلى البساطة والوضوح من كتاب عصره ، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة ، وأقل تلميحا وإشارة .

وبلا ريب أحدث فى الكتابة الفنية كثيراً من الأصول : فى المنهج والأسلوب وطرق الأداء ، وفى نظامها فى البدء والختام . . وفى تكرار التحميد فى فصول الرسائل ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وفى تضمينها الكثير من المعانى الدقيقة والحكم العويصة ، والأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية التى لم تكن سائدة بين كتاب عصره . وبذلك كان له فضل كبير على النثر الفنى .

ولا شك أن نثر ابن المقفع الأدبى هو مظهر من مظاهر النثر الفنى فى العصر العباسى الأول ، الذى تأثر بالمؤثرات الجديدة ، وبثقافات الأمم القديمة العريقة ، كل التأثر .

٢ — وقد عاش ابن المقفع ستة وثلاثين عاما ، هى كل عمر هذا الفتى

---

(١) ٥ : جـ ٢ العقد الفريد .

(٢) ٧٢ الفهرست لابن النديم .

الشاب ، الذى أودع الفكر العربى أسمى روائعه ، وأثمن كنوزه ، فإذا استثنينا منها ستة عشر عاما هى مرحلة طفولته وصباه ، كانت هذه الحكم الرفيعة ، والآداب الخالدة ، والآثار الباهرة ، نتاج عشرين عاما ، هى كل حياة ابن المقفع الأدبية والفكرية ، وهو نتاج لو نسب لمعمر بلغ المائة أو جاوزها لكان كثيرا عليه ، ولكان دليل عبقرية فذة ، ومواهب فائقة . .

ولقد شهد له معاصروه بشدة الذكاء وحصافة الملكات ، وبسعة الثقافة ، قالوا : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ، واجتمع الخليل وابن المقفع ، فمكثا مدة يتجاذبان أطراف الحديث . فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال : « ماشئت من علم إلا أن علمه أكثر من عقله » وسئل ابن المقفع عن صاحبه فقال : ماشئت من علم إلا أن عقله أكثر من أدبه ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير » .

ويعد ابن المقفع من أفذاذ الأدباء والمفكرين فى تاريخنا العقلى .

فهو من الجانب الأدبى قد وهب اللغة العربية ثروة طائلة فى الأفكار والمعانى والأغراض ، بل وفى الأساليب أيضا ، ومنحها أعظم ما استطاع أديب عربى أن يمنحها إياه ، من ثراء فى الأداء والتعبير ، وغنى فى التخيل والتصوير ، وسعة فى المعانى والتجارب والتفكير .

بل قد كساها حللا رائعة بمؤلفاته وترجماته ، التى حفظت على العربية شبابها ورواءها . ويذهب لفيف النقاد ، من بينهم المستشرق جب ، والمستشرق الفرنسى موسيه ، إلى أن النثر الفنى مدين فى وجوده فى أدبنا العربى لابن المقفع . فهو فى نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات النثرية الجديدة ،

وهو أول مؤلف الإنشاء الأدبى فى اللغة العربية . ومهما كان فى هذا الرأى من مغالاة ، فإن ابن المقفع هو رائد الطبقة الأولى من الكتاب فى العصر العباسى . وقد آخى فى طريقته بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، واستخلص من الأدبين الفارسى والعربى اللذين كان يجيدهما طريقة عرفت به، وأخذت عنه . وتظهر مزيته فى ترتيب أفكاره ، وحسن تقسيمها ، وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه ، وعذوبة ألفاظه ، حتى لتبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان . . ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه، ولا ألفاظه تستهلك معانيه . كان يقدر اللفظ على المعنى تقديرا واعيا . وأسلوب ابن المقفع فى سلاسته وجزالته وجماله وسحره يمثل رأيه فى البلاغة التى كان يعرفها بأنها « هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » .

وكان يتجنب الغرابة والحوشية ، ويقول : إياك والتتبع لحوشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العى الأكبر » . وفى حرصه على الإيجاز مايبرر قوله « الإيجاز هو البلاغة » إن ابن المقفع من الجانب الأدبى يعد أمة وحده فى البلاغة ورصانة القول ، وشرف المعانى ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . . وله فضل كبير فى تطور فن الفصة فى الأدب العربى ، ويصفه الوزير جعفر بن يحيي البرمكى هو وطبقته من الكتاب فيقول : « عبد الحميد الكاتب أصل ، وسهل بن هرون فرع، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر » .

أما ابن المقفع من الجانب الفكرى فعملاق جبار ، ترشدنا إلى ذلك كتاباته وحكمه وآراؤه وتآليفه . كان ابن المقفع واسع الاطلاع على الثقافتين : العربية ، والفارسية ، نقل خير ماقرأ باللغة الفهلوية إلى اللسان العربى ، وزاد عليه الكثير من آثار خبرته وحكمته وتجاربه فى الحياة .

نجده فى كتابيه : « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » ـ اللذين جمع فيهما طائفة من أفكاره وحكمه ومن أقوال الحكماء فى الأخلاق

والآداب وتربية النفس وسياسة الملك ـ كان يحاول أن يرسم خطوطا عريضة لمجتمع قوى ، تسوده المحبة والطمأنينة والثقة والصداقة . وفى الكتابين آثار من الثقافة والحكم الفارسية ، وصور من النظم الساسانية فى الحكم . وإذا كان فيهما آثار من مذاهب فلاسفة اليونان فهى منقولة من الفرس ، الذين تأثروا ـ فيما تأثروا ـ بالمذاهب اليونانية . ويرجح كثيرون أن كتابه « الدرة اليتيمة » هو نفس كتاب « الأدب الكبير » .

وكتاب « كليلة ودمنة » كان قد ترجم من الهندية إلى الفهلوية فى عهد كسرى أنوشروان ، وأضاف الفرس عليه أبوابا ، مثل « باب بعثة برزويه » ، فترجمه ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وأضاف عليه فصولا جديدة مثل « باب غرض الكتاب » ، و « باب الفحص عن أمر دمنة » ، و « باب الناسك والضيف » و « باب البطة ومالك الحزين » ويرجح بعض المستشرقين ومنهم « هرتل » ، وغيره أن الباب الأول وهو مقدمة الكتاب من إضافة على بن الشاه الفارسى المتوفى عام ٣٠٢ هـ . وفى هذا الكتاب أصول كثيرة لنظام الحكم وسياسة الرعية . ويبدو أن روح الإصلاح الاجتماعى ، التى انطوت عليها جوانح ابن المقفع هى التى دفعته إلى ترجمته . وهو يعد من نفائس الآثار الفكرية ، ومن روائع كتب الأدب العربى ، وقد ترجم إلى اللغات العالمية ، واحتل منزلة سامقة فى الفكر الإنسانى .

ومن الكتب المفقودة ، التى ترجمها ابن المقفع : « خداينامه » أى سير ملوك الفرس وتاريخهم ، وكتاب « التاج » . أما كتب الفلسفة اليونانية التى ينسب إليه ترجمتها ، فمترجمها عن الفارسية هو ابنه محمد ، وليست من ترجمة ابن المقفع نفسه .

هذا هو ابن المقفع ، الذى كان ميلاده ، بخوزستان بفارس فى قرية تسمى « جور » ، من أبوين فارسيين ، عام ١٠٦ هـ ـ ٧٢٤ ميلادية ، وكان أبوه قد سماه « روزبة » ، وكان والده « داذويه » يتولى كتابة خراج

فارس للحجاج بن يوسف . ونقم عليه الحجاج فضربه حتى تقفعت يده ، فلقب بالمقفع ، وعرف ابنه بابن المقفع . ونشأ هذا الفتى الصغير مع أبيه فى البصرة ، يستظلان بولاء آل الأهتم، المشهورين باللسن والخطابة والفصاحة، وتلقى ثقافته الأدبية فى بيئة البصرة حيث العلماء والرواة والمدارس وسوق المربد . وعمل فى كتابة الرسائل لولاة بنى أمية على بلاد فارس ، فكتب لداود بن هبيرة ، حتى قامت الدولة العباسية فى ٣، ربيع الأول ١٣٢ هـ - ٣٠ اكتوبر ٧٤٩ م ، وقتل داود . ثم كتب لعيسى بن على عم الخليفة العباسى أيام ولايته على كرمان عام ١٢٢ و ١٣٣ هـ ، وأسلم على يديه ، وكتب بعده لسليمان بن على أيام ولايته على البصرة من عام ١٣٣ - ١٣٩ هـ ، ثم ولى البصرة بعده سفيان بن معاوية ، فنقم على ابن المقفع ، لانتمائه لأعمام الخليفة ، الذين غضب عليهم المنصور ، واضطهد ابن المقفع وقتل عام ١٤٣ هـ - ٧٦٠ م .

ومات ابن المقفع بعد أن خلف ثروة عظيمة للأدب والفكر العربى ، وأمثلة رفيعة يحتذيها البلغاء والأدباء فى كل عصر وجيل . مات المفكر العظيم ، الذى جمع بين عقل الحكيم وتفكيره وطبع الأدب وذوقه ، والذى كانت حياته مثالا رفيعا للإنسانية وللسمو النفسى والخلق . . مات هذا الشاب الفارسى الأصل العربى اللسان . ولكن ذكره لم يمت لأن آثاره الأدبية لاتزال حية ، باقية لن تموت .

٣ — ويهمنا أن نعرض هنا نصا لابن المقفع من كتاب كليلة ودمنة ، وليكن هذا النص هو « باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين » .

فهذا النص لعبد الله بن المقفع من كتاب كليلة ودمنة وهو آخر أبواب هذا الكتاب الخالد ، الذى أثرى به عبدالله بن المقفع الأدب العربى، وقدم للفكر الإنسانى - فى مختلف مراحله - أعظم زاد من الحكمة والمعرفة .

وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية إلى العربية . لما احتوى عليه من أعظم الأصول فى سياسة الملك ، وفى دعائم الحضارة والاجتماع ، وكان الفرس قد ترجموه من السنسكريتية إلى الفهلوية ، ومن عجب أن تفقد الأصول الفارسية كلها لهذا الكتاب الخالد ، ولا يبقى إلا الأصل العربى الذى ترجمه ابن المقفع إلى العربية ، وعنها ترجم الكتاب إلى جميع اللغات العالمية ، وذاعت شهرة الكتاب فى كل مكان ، وطار اسمه فى كل ناحية . . يقول ابن المقفع :

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف :

قد سمعت هذا المثل (١) ، فاضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه .

قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

قال الملك : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف :

زعموا أن حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ذاهبة فى السماء ، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكنها ما تنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسمقها (٢) .

وكانت إذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فإذا

---

(١) هو ما ذكره فى الباب السابق ، باب « ابن الملك وأصحابه » من أن الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ، وقد يصيب الرجل الجاهل الرفعة والخير ، والرجل الحكيم العاقل البلاء والضر .

(٢) أى علوها ، وهو بمعنى السموق ، وفى الأصل : سحقها ، أى بعدها وذلك لارتفاعها .

انقاض [1] وأدرك فراخها ، جاءها ثعلب قد تعهد [2] ذلك منها لوقت قد علمه ريثما ينهض فراخها فوقف بأصل النخلة فصاح بها وتوعدها [3] أن يرقى إليها أو تلقى إليه فراخها . فتلقيها إليه .

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة ، فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها : ياحمامة مالى أراك كاسفة البال سيئة الحال ؟ فقالت له : يامالك الحزين إن ثعلبا دهيت به كلما كان لى فرخان جاءنى يتهـــددنى ويصيح فى أصل النخلة فأفرق [4] منه فأطرح إليه فرخى . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ماتقولين فقولى له : لا ألقى إليك فرخى ، فارق [5] إلى وغرر بنفسك [6] فاذا فعلت ذلك وأكلت فرخى طرت عنك ونجوت بنفسى .

فلما علمها مالك الحزين هـــذه الحيلة طار فوقع على شاطىء نهر ، وأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف فوقف تحت النخلة ثم صاح كما كان يفعل ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لهـا : أخبرينى من علمك هذا ؟ قالت : علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطىء النهر فوجده واقفا ، فقال له الثعلب : يامالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال : عن شمالى ، قال : فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يمينى أو خلفى ، قال: فاذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية أين تجعله ؟ قال : أجعله تحت جناحى ، قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحيك ، ماأراه [7] يتهيأ

---

(١) أى خرج منه الفرخ . (٢) أى تفقد وعرف .
(٣) أى تهددها . (٤) أخاف .
(٥) أى اصعد . (٦) أى عرضها للهلاك .
(٧) أى ما أظنه .

لك ، قال : بلى ، قال : فأرنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يامعشر الطير فقد فضلكم الله علينا ، إنكن تدرين فى ساعة واحدة ماندرى فى سنة وتبلغن مالا نبلغ ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح ، فهنيئا لكن فأرنى كيف تصنع ؟

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحيه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه (١) همزة دق عنقه ، ثم قال : ياعدو نفسه ترى الرأى للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك ، ثم قتله وأكله .

وهذا النص يرشد إلى أن الإنسان يجب أن يعى دروس الحياة كاملة ، وأن ينصح نفسه قبل أن ينصح غيره ، ويحذر من شر الأشرار كما يحذر هو غيره من شرهم ، وأن يكون عميق الإدراك بعيد الفطنة ، لايغتر بكلام محتال مخادع ، أوماكر متلطف .

وأسلوب ابن المقفع مع بلاغته وروعته يكاد هنا يتعثر فى أداء مضامينه ، لأن الترجمة للمعانى الفلسفية الدقيقة لا يكاد يقوم بها أسلوب بليغ مهما دقت بلاغته ، وعلت منزلته فى الفصاحة . وانظر إلى قوله : « فشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة ، فلا يمكنها ماتنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة » فالأسلوب مفكك غير متلاحم الأجزاء مع ضعف نسجه ، وقلة روعته ، وفى آخر النص يكرر ابن المقفع « فأرنى كيف تصنع » مرتين.

والنص قصة من قصص كتاب كليلة ودمنة ، وهى كأغلب قصص الكتاب قصة على لسان الطير والحيوان يرويها الفيلسوف الهندى بيدبا للملك دبشليم مرشدا وموجها ومعلما ، وتبتدى كل قصة بسؤال من الملك للفيلسوف قد سمعت هذا المثل مثلا ، أو قد عرفت ما أخبرت به من الأمر

---

(١) أى كسره .

السابق ، فاضرب لى مثلا فى شأن كذا . . فيرد عليه الفيلسوف قائلا : إن مثل ذلك مثل كذا وكذا ، ويسترسل من قصة إلى قصة ، ومن عبرة إلى عبرة ، ومن عظة إلى عظة حتى ينتهى تقريره للحكمة المقصود تقريرها أمام الملك .

ولهذا القصص فوق مضمونه الاجتماعى والفكرى فائدة جليلة لما فيه من التسلية والمتعة والبهجة والتشويق والطرافة .

ومثل ذلك القصص مما ضرب به المثل فى روعته وحكمته ، ومما اهتم به الباحثون والمفكرون والسياسيون اهتماما كبيراً ؛ وفى القرآن الكريم قصص خالدة على ألسنة الطير مثل قصة الهدهد ، وقصة النمل مع سليمان ، وذلك لأن الحكمة إذا جاءت على ألسنة الطيور والحيوانات كان وقعها فى النفس أعظم ، وأثرها فى القلب أكبر ، وكانت فرحة الإنسان بها أشد ، ومتعته بها أجل .

وقد ألف الكتاب قصصا على ألسنة الحيوانات والطير لتعليم الحكمة عن طريق القصة استجماما للنفوس وترويحا للقلوب ، وليكون الجد فى صورة متعة تجتذب إليها العامة ، ويتسلى بها الخاصة . ويقول طه حسين فيه : فى هذا الكتاب حكمة الهند وجهد الفرس ولغة العرب (١) » .

والأصل الهندى للكتاب هو كتاب « بنج تنترا » (٢) ويذكر أن سبب تأليف الكتاب رغبة ملك من ملوك الهند اسمه « السلطان الخالد » فى تعليم أبنائه المعرفة والحكمة ، وحب العلم والعلماء ، وكانوا لا يقبلون على هذا الباب ، وأشار أحد المقربين إلى الملك عليه باستدعاء كاهن برهمى حكيم

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة ص ٨ تحقيق عبد الوهاب عزام .

(٢) معناه خمس رسائل .

اسمه « وشنوشرما » لتعليم أبناء الملك فاستدعاه ، ووكل إليه الإشراف على تعليم أبنائه فوضع الكاهن لهم هذا الكتاب ليحببهم فى المعرفة بأسلوب مشوق ، وذلك نحو عام ٣٠٠ ق م .

وترجمة ابن المقفع للكتاب تجعل اسم الحكيم الهندى الذى ألف الكتاب « بيدبا » وقد وضعه للملك دبشليم لتعليمه سياسة الرعية . ولزوم العدل والبعد عن الطغيان ، وقد استعان بيدبا فى تأليفه بتلاميذه حيث مكثوا يؤلفون فيه سنة كاملة ، وجعلوه قصصا على لسان الحيوان لأهمية الفن القصصى فى التهذيب والتوجيه .

ويذكر الفردوسى فى « الشاهنامة » فى سبب ترجمة الكتاب إلى الفهلوية أن الملك أنو شروان سمع من برزويه الطبيب أن فى بلاد الهند عشبا يحيى الموتى فبعث أنو شروان برزويه للبحث عن هذا العشب العجيب . فسافر وظل يسأل عنه ، ويجوب البلاد فى طلبه فلم يعثر عليه فسأل العلماء فى الهند فأرشدوه إلى كليلة ودمنة لأنه بآدابه يحيى القلوب الميتة . فنسخه وقدم به على أنوشروان وترجم الكتاب له من السنسكريتية إلى الفهلوية ، وذلك فى عهد أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) ، ثم ترجم ابن المقفع الكتاب من الفهلوية إلى العربية فى حكم المنصور فى القرن الثانى الهجرى ، وكليلة ودمنة من أبناء آوى . وكان يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة .

وكان لكليلة ودمنة صداه العميق عند كل الناس فى عصر ابن المقفع وبعد عصره ؛ حتى قال ابن خلدون : « لقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة » .

الجاحظ شيخ الأدباء فى العصر العباسى

١٥٠ — ٢٥٥ هـ

١ — عاش الجاحظ فى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٣٣٤ هـ) وأدرك سنوات من حكم المنصور . والجاحظ هو عمـــرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه .

وقد نشأ بالبصرة فقيرا حائرا ، يعيش بكده وسعيه ، حتى لقد روى أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان(١) ، ثم انصرف إلى العلم والأدب يطلبهما فى البصرة وبغداد ، ويتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، ويسمع من الأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة ، ويأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش صديقه ، ويأخذ الكلام عن النظام . هذا مع إدمانه المطالعة ، حتى قيل إنه ماوقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكترى دكاكين الوراقين ليبيت فيها للمطالعة . وكذلك انقطع للعلم والتأليف حتى أصبح علماً ذائع الشهرة فى هذا المجال ، وأقبل الناس على كتبه ، وعدوا التلمذة عليه شرفا ، ويصور ذلك ماروى عن سلام بن زيد أحد علماء الأندلس ، قال : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء الجاحظ ، فخرجت لا أعرج على شىء حتى قصدته وأقمت عليه عشرين سنة .

وقد انفرد الجاحظ بآراء فى التوحيد صارت مذهباً من مذاهب المعتزلة وألحقه المأمون بديوان الرسائل ولكنه استقال منه بعد ثلاثة أيام .

وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق وأهدى إليه كتابه « الحيوان » ، ولما قتل ابن عبد الملك فى بدء خلافة

---

(١) هو نهر بالبصرة .

المتوكل هرب الجاحظ ثم قبض عليه ، وجيء به مقيدا إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد بعد قتل ابن الزيات فلما نظر إليه قال: والله ماعلمتك إلا متناسيا للنعمة، كفوراً للصنيعة معددا للمساوىء . فقال له الجاحظ: خفض عليك أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن أحسن من أن أحسن فتسىء ، وأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى. فقال له ابن أبى دؤاد : قبحك الله ماعلمتك إلا كثير تزويق الكلام ، ثم قال جيئوا بحداد ، فقال : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى؟ فقال : بل ليفك عنك ، فجىء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم وعمل يوم فى ساعة وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى وليس بجذع ولا ساجة (١) ، فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه ، وقال ابن أبى دؤاد لبعض الحاضرين : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ، ثم قال ياغلام سر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة وخفا ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر فى مجلسه ، ثم أقبل عليه وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان . واصطلحت الحال بينهما ، وأهدى إليه الجاحظ كتاب « البيان والتبيين » .

واتصل الجاحظ أيضاً بالفتح بن خاقان وسافر معه إلى دمشق ووصف مسجدها فى كتابه « البلدان » ، كما أنه دخل أنطاكية .

وهكذا قضى الجاحظ أيامه فى العلم والأدب والتصنيف حتى أصيب بالفالج فى أعقاب عمره وكان ذلك فى أواخر خلافة المتوكل ، قيل إن المتوكل وجه من يحمل الجاحظ إليه من البصرة ، فقال لمن أراد حمله : ومايصنع أمير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، وعقل حائل .

---

(١) الساجة : شجرة عظيمة خشبها صلب .

وظل كذلك حتى توفى فى آخر خلافة المعتز وذلك عام ٢٥٥ هـ . وقد كان شعار الجاحظ فى طلب العلم قوله : « إذا سمعت الرجل يقول ماترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه مايريد أن يفلح » ، وقوله أيضا : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم لم يدع الأول للآخر شيئا ، فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

على هذه الطريقة طلب الجاحظ العلم فاطلع على علوم المتقدمين والمتأخرين واستنبط واجتهد وانتقد وزاد وألف فى الأدب والعلم والدين ، وكان إماماً فى كل منها .

٢ — ويقول المرزبانى فيه رواية عن أبى بكر أحمد بن على : كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدرة فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور .

وقال ثابت بن قرة : ماأحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة : أولهم عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته ، والثانى الحسن البصرى فلقد كان من دراري النجوم علما وتقوى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين ،

وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سبحان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، وإن جد خرج فى مسك عامر ابن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزبد ؛ حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ، وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه . والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والأدب ، وبين النثر والنظم ، والذكاء والفهم ، طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أربه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

ويقول فيه ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلها عيال فيها على ثلاثة ، أما الفقه فعلى أبى حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ .

ولقد ألف أبو حيان التوحيدى (٤٠٠ هـ : ١٠٠٩ م) كتاباً فى تقريظ الجاحظ . وقيل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟ فقال أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة .

وقد كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية ، فى النصف الأول من القرن الثالث ؛ وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وقد عاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ، ومجداً يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات

الثقافة الإسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الإشـــادة به ـ كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ ـ وبالغوا فى الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ، ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والأدب والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ، ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لايسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جـــده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لايغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » ، وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها (١) .

٣ ـ ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة ، وهو مجد بوأه صرحه الخالد كفايته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شىء إلا من مجد الأدب وشهرة العلم ؛ ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، لتعرضه لخصومات كثيرة حذراً من أن يأفل به نجم الكتاب ، كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الإخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على

---

(١) ٢١١ جـ ٢ البيان للجاحظ نشر السندوبى ـ ط ١٩٢٧ .

سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ماسر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما لأنه كان مقصراً فى الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا ولذلك أخـــذ يذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل ، وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة فذلك ماترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح لايتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا فى روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب فى كل شيء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس ، وكثيرا ماكان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبدالملك الزيات (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والذى أهدى له كتاب « الحيوان » ، وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد

شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه و بيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لاننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ماكان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق فى أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذى وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٨ — ٢٥٥ هـ) ، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق ، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

٤ — وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بشتى ألوان الثقافات المختلفة التى مازجت الثقافة الإسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة

لا تقف عند غاية. وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري ؛ وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك في أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ ، ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته ، وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها كأبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان .

وقد اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين و بمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد ما ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القيـــاس المضمر (المذهب الكلامي عند البديعيين(٣)) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق الذي ذكر أنه خرج في أسلوب سقيم ، فالجاحظ فيما يبدو قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو (٤) ، وذلك ما أراه ، وأنكر باحث

---

(١) ٤٠ ج ١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧ ج ١ المرجع

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (١٥ ج ٣ البيان) فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشعوبيين ، ويحتمل أن يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان .

(٤) راجع ٦٢٢ المرجع السابق .

آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا ، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، فى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك ، لم أعرفك قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز وسقت بارون بياتى نشنلسيم (٣) .

وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى « مؤلفه البيان » أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا فى الحيوان وفى كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل بآراء لأرسطو فيه (٤) وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً (٥) ، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه (٦) . ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ، ويذكر كتب اليونان فى المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى (٩)

---

(١) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

(٢) صـ ٣ مقدمة نقد النثر .

(٣) صـ ١٩ البخلاء ، ١٩ الجاحظ لمردم بك

(٤) ٦١ : ١ البيان

(٥) ٦٩ و ١٢٨ : ١ البيان

(٦) ١٥ : ٣ البيان

(٧) ٧٥ : ١ البيان

(٨) ٧ : ٣ البيان .

(٩) ١٦٥ : ٢ البيان

ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر[١]، وأقسام الدلالة عند الجاحظ[٢] ، هى من تفكير أرسطو . ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيهـا ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق ، وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[٣] ، وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى[٤] .

ويذكر الجاحظ فى البيان « صناعة الكلام » ويعنى بها حينا علم الكلام[٥]، وحينا آخر البيان[٦] ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق[٧] وصناعة الخطابة ويذكر أحيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة[٨] » .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى[٩] له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى « هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة[١٠] » ، وقال: « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر

---

(١) ١٥ : ٣ البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم
(٢) ٦١ : ١ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر
(٣) ٧ : ٣ البيان
(٤) ٤٢ الجاحظ لمردم بك
(٥) ٦٩ : ١ البيان
(٦) ١٠٨ : ١ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ : ٤ زهر)
(٧) ٧٩ : ١ البيان
(٨) ١٨٣ : ١ البيان
(٩) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان
(١٠) راجع الشفاء لابن سينا ، وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء

الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة » ، ودعوة الجاحظ إلى الوضوح[1] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الإغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة[2] موجود فى خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لاحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) فى مواضعه[3] والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب[4] ، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجحه أن سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر .

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها أرسطو[5]

---

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ : ١ البيان

(٢) ١٢١ : ١ البيان

(٣) ٥١ : ١ البيان . ويشير إلى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١٨٠ : ١ البيان)

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب)

(٥) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل هى التى يفيض عبدالقاهر فى شرحها فى الدلائل ، ونصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكامل فيها الأنس =

لايشير إليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم لم يطلع على نفس كتابى أرسطو ، وإنما أرجح اطلاعه على ترجمات لكثير من آرائه فى الكتابين ، ولاشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .

٥ — وللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالته فى تفضيل النطق على الصمت(١) وكتابه البيان والتبيين .

والبيان ، أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه(٢)، ويشيد به أبو هلال (٣) ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب(٤)، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقد واللغة، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين، وآثارهم الأدبية .. وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والإسلام ، ويذكر ابن رشيق أنه لايبلغ جودة وفضلا (٥) ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٦) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٧) ، ورد عليه بعض المعاصرين (٨) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان ، كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه

= والشنب ، لأن الشاعر باعد فى القول (١٣٤ ج ١ الأغانى ، ٣٣٥ : ١ الكامل) .. وليس أمامنا مايدل على معرفة الجاحظ بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) تجدها فى (١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ) .

(٢) ٨٠ العصر العباسى الاسكندرى . (٣) ٦و٧ الصناعتين .

(٤) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٢٢٧ : ١ العمدة

(٦) ٥٣و٥٤ التصحيف والتحريف (٧) ١٩٨ : ١ ذخيرة

(٨) ٥٠ : ٢ النثر الفنى .

وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة [(١)] . أو كما يصورها بشر بن المعتمر [(٢)] ، أو كما يراها ابن المقفع [(٣)] ؛ ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى ، وتعطينا صورة مجملة لنشأته [(٤)] .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة [(٥)] ، ويتكلم على السجع [(٦)] ، ويشير إلى التفصيل والتقسيم [(٧)] ، والاستطراد ، والكناية [(٨)] ، والأمثال [(٩)] والاحتراس [(١٠)] والقلب [(١١)] ، والأسلوب الحكيم [(١٢)] ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامى بهذا الاصطلاح [(١٣)] ؛ ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال: والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك [(١٤)]

---

(١) ٧٩ : ١ البيان (٢) ١٠٤ : ١ ومابعدها البيان
(٣) ٩١ : ١ البيان (٤) ٣ مقدمة نقد النثر
(٥) ١١٦ : ١ البيان (٦) ١٩٤ : ١ البيان .
(٧) ١٧٠ : ١ و ٩١ : ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة ، راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .
(٨) ١٨٠ : ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٨٥ : ٣ البيان .
(٩) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ : ١ ، ٢٢٤ : ٢ البيان .
(١٠) ١٦١ : ١ ومابعدها البيان (١١) ١٨٠ : ١ البيان .
(١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ : ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز فى الجواب » (١١٦ : ٢ البيان) .
(١٣) ١٠١ البديع ، ٧٦ : ٢ العمدة .
(١٤) ٤٠ : ٣ الحيوان

وهو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء ، والمعنى ليس شيئاً مذكوراً (٢) ، وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لاداعى إلى ذكره هنا خوفا من كثرة الإسهاب . والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيراً فى بيانه (٣) ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف (٤) » ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الإفهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لاتجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه (٥) .

ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (٦) فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان وهى التى أوحت إلى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان (٧) ، ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ فى البيان كما ذهب إليه بعض الباحثين .

وكتاب « البيان » يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٢) ١٠٥ مملكة الجمال .

(٣) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ : ٢ البيان .

(٤) ٥ : ١ الكامل للمبرد

(٥) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون

(٦) ص ٦ و ٧ الصناعتين

(٧) ومن هؤلاء طه حسين الذى يرى أن الجاحظ هو أول من اهتم بالبلاغة وأول مؤسس للبيان العربى حقا (راجع ص ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر بقلم طه حسين) .

فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صوراً صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده . والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ ، وهو ذو قيمة فذة فى تاريخ الأدب والأدباء لاسيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الساحرة من الأدب العربى : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد إلى الإلمام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان .

والكتاب ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية وبطلها .

وهو أصل من أصول الأدب ، وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى آدابها .

وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصى واتجاهه الأدبى المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل إعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه: البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر فى صحيفة من تحبيره وتنميقه إلى غير ذلك من شتى الآراء التى كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها .

وإذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية ـ فى كتابه ـ عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وابن سلام وابن العاصى

وكإبراهيم بن السندى وعبد الكريم بن روح الغفارى ومحمد بن بشير الشاعر وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » : كابن قتيبة وقدامة وأبى هلال والقاضى الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى وسواهم .

ولقد خدم الجاحظ البيان العربى فى كتبه عامة ، وكتابه البيان والتبيين خاصة ، فهو أظهر من أفرده بالتأليف وأسبقهم ، فوق ماجمع من مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لايمكن الغض منها أو الاستهانة بها وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما « الحيوان » و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل .

والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده .

٦ — ولقد عاش الجاحظ فى عصر ازدهر فيه الأدب ودراساته ، وحمل لواءه طوائف عدة :

١ — طبقة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يروونه إشباعا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١)

---

(١) ١٠٦ : ١ البيان والتبيين .

ومن عامة رواد الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والإخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (١) .

٢ — وبجوار هذه الطبقة من الأدباء عاش الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحق ومنصور النمرى ومسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام(٢)..وبجوار هؤلاء وهؤلاء وجدت جماعات كثيرة من الخطباء ورجال الأدب والبيان من بيت بنى على وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٣) .

٣ — طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٥) ،

---

(١) ٢٢٤ : ٣ المرجع .
(٢) ٥٤ : ١ المرجع .
(٣) ١٠٦ : ١ البيان .
(٤) ١٠٥ : ١ البيان .
(٥) ٢٢٥ : ٣ المرجع .

وحكم مذهبهم فى نقد البيان (١) ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاه الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى المتوفى سنة ٢٠٥ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها: إن بشراً مر بإبراهيم ابن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وهى فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٢)، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٣) وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بأدبهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الإسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل .

---

(١) ٢٤٠ : ١ المرجع
(٢) ١٠٦ : ١ المرجع
(٣) ١٥١ : ١ المرجع

وللجاحظ مذهب أدبي كامل دعا إليه في كتابه البيان والتبيين في مواضع متفرقة منه لاسيما الجزء الأول من كتابه الكبير، وهذا المذهب مستمد من عقليته وثقافته وبيئته، وهو المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة في كتابه البيان والتبيين .

ويمكننا إرجاع هذا المذهب إلى عناصره الأولى من: سحر اللفظ وتلاؤم الحروف، ووضوح المعنى، وترك التكلف والتعقيد والإغراب والوحشية والسوقية، ومراعاة المقام وإصابة الغاية، مع الحذق والرفق والتخلص إلى حبات القلوب وإصابة عيون المعاني في سحر وإيجاز، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة في البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه وطبعه أوزيه، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة في بيئته، ومع الحرص على إيثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال على ذلك : بالفكاهة الجميلة، والاستطراد الساحر، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته، وبالرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التي تلقى في روع السامع والقارىء روح الهيبة والإعجاب بهم وبالمؤلف، وبمناقشة الآراء التي تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعاً مسايراً للمؤلف في اتجاهاته الفكرية والأدبية، إلى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبي التي ترجع إلى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع إلا إذا طلبها الطبع واستدعاها المقام .

ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية في كتاب الجاحظ التي رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته إنما هو غرض قصد إليه الجاحظ وأراده، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن بما يوجهه المؤلف إليه من آراء وأفكار، وليكتسب به رضاه وتقديره وإعجابه . ولا أحيلك في فهم مذهب الجـــاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أي صفحة

منه ؛ وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والمنجهى من الأساليب متناسياً روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى ، فهو حينا يشيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان ، وحينا يكرر الدعوة إلى الوضوح والإفهام ومسايرة الذوق والطبع ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر ، وحينا يدعو إلى ترك التكليف والتعقيد والتعقير وإيثار الأساليب السمحة الكريمة الساحرة .

ومن أجل ذلك كان الجاحظ يلقب حقاً بشيخ الكتاب وعرف بهذا اللقب فى حياته وبعد حياته .

والجاحظ أديب وكاتب ومترسل ومؤلف وناقد ، وليس شاعراً مع أن له شعراً ، ولا يضيره ذلك ، نعم لا يضيره أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذانى فيه : « هو من أحد شقى البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف (١) » ؛ فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه .

ولكن البديع يبدو أنه كان يتحامل على الجاحظ تحامل من يريد أن يزيح من طريقه كل من لهم قدم فى الأدب والبلاغة ليظل هو العلم فى هذا المجال على

---

(١) ٨٢ المقامة الجاحظية ـ مقامات البديع .

من العصور ، ولذلك تجد البديع ينقد أدب الجاحظ بأنه « بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ منقاد فيه لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة[1] .

وقد روى للجاحظ شعر قليل ، هو أشبه بشعر العلماء .

وأدب الجاحظ كما يقول فيه بعض الباحثين[2] : أدب واقعي بل طبيعي ، يؤثر فيه التصريح على التلويح ، ويصور الحقيقة كما هي ، ويرى فى ذلك السبيل الأقوم ، بل هو يدعو إلى هذا المذهب ، ويعيب من يرغب عنه .

وهو أدب حي ، مستمد من الدرس والتفكير والتجارب ، ولا تكاد تجد مؤلفاً يعطيك من هذه الثلاثة كما يعطيك الجاحظ ، فهو يشارك الرواة فى سعة حفظه وروايته ، ويشارك الفلاسفة فى تفكيره الحر واعتماده على المعقول ، ويبذ الجميع فى ملابسته للناس على اختلاف طبقاتهم وفهمه لروح عصره . ولو قيض لمجموعة مصنفاته البقاء ، لكان لدينا صورة ناطقة عن عصر الجاحظ فى كل مناحيه ، وعما وصل إليه العلم والأدب والاجتماع .

ويعتمد أدب الجاحظ على عناصر شتى ، أقواها بلاغة العرب فى الجاهلية والإسلام ، والكتاب والسنة ، وما نقل إلى العربية من آداب الفرس واليونان والهنود وفلسفتهم ، ولكن أظهر ما يكون فيه الرأى الشخصى والتفكير الحر .

لئن كان ابن المقفع إمام الكتاب فى عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم

---

(١) ٨٢ و ٨٣ المرجع .

(٢) راجع ص ٢٠ و ٢١ الجاحظ لخليل مردم .

فى عصر الوضع والتأليف والإبداع وتكوين الأدب الحضرى المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئاً من فصاحة البداوة وروعتها .

وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف فى الأدب ، وكل من ألف بعده متأثر بطريقته شعر أم لم يشعر . قال ابن النديم فى الفهرست : « ابن خلاد الرامهرمزى حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ » وقال أيضا : « الآمدى مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب » .

ولم يقف أثره عند هذا الحد بل تعداه إلى أن أصبحت الكتاب ترسم خطاه فى الإنشاء بل تقتبس جمله ذات الجلبة فى السمع والروعة فى النفس . قال القاضى الفاضل : « وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره ، أو شن على كلامه الغارة .

٧ — وشخصية الجاحظ فى مؤلفاته وأدبه تطالعك من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بنفسه وعقله وثقافته ومنزلته فى مجتمعه حتى ليخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم كأنه منهم ، فلم يفن شخصيته فى شخصياتهم ، بل رآهم إخوانه ، وله عليهم حق الصداقة ، ودالة الأخوة ، ولم يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم فى أحيان كثيرة . وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ تغيب فى جو بعيد عنك تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعوراً صادقاً أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه

البليغ فيها عصا الساحر المتحدى التي تسترعى السمع والبصر . وتبهت الفكر والعقل وتلهب العاطفة والشعور .

والعجب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيراً ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه «كاتباً لاشخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم» .

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه وفى بحثه وتأليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم ولمن يفكر فى مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ ، يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ، ولذلك كان كتاب «البيان» موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه» كما كان ابن شهيد . إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات (١) ومادام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله فى فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته ماداموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب البيان والتبيين .

٨ — وللجاحظ مؤلفات كثيرة نذكر بعضها بإيجاز :

---

(١) راجع ٤٩ : ٢ النثر الفنى لزكى مبارك .

(١) كتاب البيان : وقد أهداه إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير فى مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة فى الأدب والبيان حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف فى التأليف ، من كثرة الرواية التى قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه فى كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيباً يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شىء ، إنما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيرا منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا تواءم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الجاحظ الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشىء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهـــذا الأسلوب الاستطرادى أيضاً جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصول كتابه وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد من الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد إلى آخر هذه الألقاب ، التى نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئاً منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته

ويقول بعض العلماء : فخر أهل البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل .

(٢) كتاب الحيوان : وقد ألفه الجاحظ قبل كتاب « البيان والتبيين » وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، وهو أول كتاب ألف فى موضوعه ، وقد طبع فى سبعة أجزاء ، ويبحث عن طبائع الحيوان ، وما ورد فيه من الأخبار والقصص والنوادر والخرافات والفكاهة والمجون ، وما قالته العرب فيه من الشعر فضلا عما اختبره المؤلف بنفسه .

وفى استطراد الجاحظ الكثير فى هذا الكتاب ، يقف القارىء فى أثناء ذلك على أخبار ممتعة وفوائد قيمة تمثل له المعارف الإسلامية وما بلغته فى القرن الثالث . فهناك أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين ، وهناك تفسير كثير من آى القرآن والحديث ، وهناك آراء المتكلمين ومذاهب الفرق الإسلامية ، وهناك شبه الملحدين والزنادقة والرد عليهم ، أضف إلى ذلك معارف الهنود واليونان والفرس مما ترجمه العرب ومما تسوق إليه المناسبة فى ذلك الكتاب ، فضلا عن أنه يصور كثيراً من وجوه الحياة فى القرن الثالث .

(٣) كتاب البخلاء : وهو كتاب طريف جمع فيه الجاحظ أخبار البخلاء ونوادر الأشحاء ، وصدره برسالة سهل بن هرون فى البخل وهى من أبلغ وأمتع وأنفس ما كتب فى هذا الموضوع . والكتاب ممتع جذاب لما فيه من فكاهات ساحرة .

ولقد أضاف إليه الجاحظ ما اتفق له من النوادر مع بعض البخلاء ، ولا يخلو من آراء سديدة فى الاقتصاد والتدبير .

(٤) كتاب المحاسن والأضداد : وهو كتاب حسن جمع الجاحظ فيه

نحو ثمانين موضوعا متقابلة ، فهو يعقد للموضوع فصلا يذكر فيه محاسنه ثم يعقبه بضده وهكذا إلى آخر الكتاب . وقد بدأه بذكر محاسن الكتابة وختمه بذكر شيء من محاسن الموت ، وجميع المواضيع التى عالجها ذات بال : كمحاسن الجواب والمشورة والعفو والوفاء وحب الوطن وأضدادها . وقد صرح الجاحظ فى المقدمة بأنه لم يسبق إلى هذا الكتاب بقوله : « وهذا كتاب وسمته بالمحاسن والأضداد لم أسبق إلى نحلته ولم يسألنى أحد صنعه » والكتاب من أكثر كتب الجاحظ تنسيقاً وترتيبا وأشدها مراعاة لحسن التبويب وضم كل معنى إلى مشاكله . وقد جرى على سننه البيهقى فألف كتاباً سماه « المحاسن والمساوىء » .

(٥) كتاب التاج فى أخلاق الملوك : يبحث عما يتعلق بأمور الملوك فى السياسة والتدبير وفى حياتهم الخاصة وآداب مجالستهم ورسوم الدخول عليهم ومحادثتهم وما إلى ذلك من أحوالهم العامة والخاصة ، وفيه شواهد عن ملوك الفرس وخلفاء العرب . والكتاب يدل على ما بلغه العرب من العزة والسلطان ورسوخ قدمهم فى الحضارة . وما يظن أن رسوم أعرق قصر بالمدنية فى الوقت الحاضر تفوق ما ورد فى ذلك الكتاب من الرسوم والآداب .

(٦) الفصول المختارة من كتب الجاحظ : وهو كتاب اختاره عبيدالله بن حسان من عشرين كتاباً للجاحظ وهذه أسماؤها : كتاب الحاسد والمحسود ، كتاب المعلمين ، كتاب التربيع والتدوير ، كتاب مدح النبيذ ، كتاب طبقات المغنين ، كتاب النساء ، كتاب مناقب الترك ، كتاب حجج النبوة ، كتاب مسائل القرآن « وفيه بحث عن خلق القرآن » ، كتاب الرد على النصارى ، كتاب المودة والخلطة ، كتاب استحقاق الإمامة ، كتاب استنجاز الوعد ، كتاب تفضيل النطق على الصمت ، كتاب صناعة الكلام ، كتاب مدح التجارة وذم عمـــل السلطان ، كتاب الشارب والمشروب ، كتاب الإمامة ، كتاب مقالة الزيدية والرافضة .

(٧) ثلاث رسائل للجاحظ هى : الرد على النصارى التى مر ذكرها مع الفصول المختارة ، ذم أخلاق الكتاب ، رسالة القيان .

(٨) الحنين إلى الأوطان .

(٩) إحدى عشرة رسالة طبعت فى مصر ذكر أكثرها فى الفصول المختارة وما لم يذكر منها هو : فخر السودان على البيضان ، كتاب الوكلاء والموكلين .

(١٠) رسالة فى بنى أمية : وقد سماها بعضهم رسالة النابتة .

(١١) كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : فيه كثير من الأدلة العقلية على وجود الخالق وحكمته وتدبيره وهو كتاب قيم وأسلوبه عال ولكنه بأسلوب الحكماء أشبه .

ومن كتبه المخطوطة التى لم تطبع بعد : كتاب المعرفة ، كتاب نظم القرآن ، كتاب التسوية بين العرب والعجم ، كتاب السلطان وأخلاق أهله ، كتاب البلدان ، كتاب الأخبار ، كتاب المغنين والغناء والصنعة ، كتاب آى القرآن ، كتاب حانوت عطار ، كتاب التمثيل ، كتاب فضل العلم ، كتاب جمهرة الملوك ، كتاب عناصر الآداب ، كتاب الأمثال ، كتاب الرسالة اليتيمة ، رسالة فى القضاة والولاة ، كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية ، كتاب العالم والجاهل .

(٩) ألوان من نثر الجاحظ

الكلام البليغ :

ومتى شاكل — أبقاك الله — اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قمنا بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع صاحبه من تأويل الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين . ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور به مأهولة .

ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريض . ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوبا ، خبت إليه المعانى ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم .

كلام الرسول :

عاب النبى صلى الله عليه وسلم التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وألقى الله عليه من المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام والإيجاز ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة

حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت به قدم ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر .

وما سمع كلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

جوامع كلمه :

يجب للرجل أن يكون سخياً لايبلغ التبذير ، شجاعا لا يبلغ الهوج ، محترساً لايبلغ الجبن ، ماضياً لايبلغ القحة ، قوالا لايبلغ الهذر ، صموتاً لايبلغ العى ، حليما لايبلغ الذل ، منتصراً لايبلغ الظلم ، وقوراً لايبلغ الظلم ، وقوراً لايبلغ البلادة ، ناقداً لايبلغ الطيش ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك فى كلمة واحدة وهى قوله : « خير الأمور أوساطها » ، فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم وعلم فصل الخطاب .

سحر البيان :

قال بعض الربانيين وأهل المعرفة من البلغاء ، ممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن مايقول وما يعرض للسامع من الافتتان بحسن مايسمع : أنذركم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه

المتكلم قولا متعشقا ، صار فى القلب أحلى ، وللصدر أملأ . والمعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وعلى حسب مازخرفت . والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى .

بلاغة العرب :

كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حين أن يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو فى حرب . فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى ارسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه فى البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئا الذى فى أيدينا جزء منه ، لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

ونحن — أبقاك الله — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فعنا العلم

على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل ، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير .

وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم أن الذى قلت هو الحق ، وأبصر الشاهد عيانا .

فهذا فرق ما بيننا وبينهم ، فتفهم عنى ـ فهمك الله ـ ما أنا قائل فى هذا ، واعلم أنك لم تر قوما قط وأشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما ، من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طويل جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة . ولو عرفوا أخلاق كل ملة ، وزى كل لغة ، وعللهم فى اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كل شىء من ذلك ، ولم اختلفوه ولم تكلفوه ؟ ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤونتهم على من خالطهم .

الكتاب :

الكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا ، إن شئت كان أبين من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت

ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه . ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس .

ومتى رأيت بستاناً يحمل فى ردن ؟ وروضة تقلب فى حجر ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لاينام إلا بنومك ، ولاينطق إلا بما تهوى . آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة .

ولاأعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولاصاحباً أظهر كفاية ولاأقل إملالا وإبراما ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولاأبعد من مراء من كتاب .

ولا أعلم نتاجاً فى حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ، ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ، مايجمع لك الكتاب .

صامت ما أسكتته وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك فى حال شغلك ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك ، ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك . وعرفت به فى شهر ، مالا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر ، مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن

الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقاً وأكرم عرقا ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء .

قال ابن الجهم : « إذا غشيني النعاس فى غير وقت نوم — وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة — تناولت كتاباً من كتب الحكمة ، فأجد اهتزازى للفوائد، والأريحية التى تعترينى عند الظفر ببعض الحاجة ، والذى يغشى قلبي من سرور الاستبانة أشد إيقاظاً من هدة الهدم . وإذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه ، فلو ترانى وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطع المادة من قلبه . وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد ، فقد تم عيشى وكمل سرورى » .

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذ عنده من عشق القيان لم يبلغ فى العلم مبلغا رضياً ، وليس ينتفع بإنفاقه ، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل فى العلم ما يؤمل الأعرابى فى فرسه .

سياسة الحزم :

من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل فى موضع القتل، وأحيى فى موضع الإحياء ، وعفا فى موضع العفو وعاقب فى موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الرب فى تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه . وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء . ولا خير فيمن كان خيره محضا ،

وشر منـــه من كان شره صرفا ، ولـكن اخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لايهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والأطماع والإخافة . ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ماعرف منه . فخير الخير ما كان ممزوجا ، وشر الشر ما كان صرفا .

ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده . لـكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم . وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار وفى جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء ، وذلك المكروه محبوبا . وإنما الشأن فى العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد .

الصـــوت :

أمر الصوت عجيب ، وتصرفه فى الوجوه عجب ، فمن ذلك أن منه مايقتل كصوت الصاعقة ، ومنه مايسر النفوس حتى يفرط عليها السرور فتقلق حتى ترقص، وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل هذه الأغانى المطربة . ومن ذلك مايكمد ، ومن ذلك مايزيل العقل حتى يغشى على صاحبه كنحو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحنة ، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى لأنهم فى كثير من ذلك لايفهمون ، وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبى الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكانى الشجا .

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى والإبل تصر آذانها إذا حدا فى آثارها الحادى وتزداد نشاطا

وتزيد فى مشيها . ويجمع بها الصيادون السمك فى حظائرهم التى يتخذونها له ، وذلك أنهم يضربون بعصى معهم ويطعطعون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار ، مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل فى الحظيرة . ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها . ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروعها تلك الأصوات . وقال صاحب المنطق : الأيايل تصاد بالصفير والغناء ، والصفير تسقى به الدواب ، وتنفر به الطير عن البذور .

العـــرب :

لم يكونوا تجارا ولا صناعا ، ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم صغار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما فى أيديهم وطلب لما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البلادة ، والثروة التى تحدث الغرة . ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان فياف وتربية العراء ، لا يعرفون الغمق ولا اللثق (١) ، ولا البخار ولا الغلظ ؟ ولا العفن ولا التخم ، أذهان حديدة ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب ، والاهتـــداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كل أمنية ؛ وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر .

---

(١) الغمق : الفساد من كثرة الأنداء . واللثق : نحوه .

ألوان من رسائل الجاحظ

رسالة فى الاعتذار :

أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، وإن أحق من عطفت عليه بحلمك ، من لم يستشفع إليك بغيرك . وإننى بمعرفتى بمبلغ حلمك وغاية عفوك ضمنت لنفسى العفو من زلتها عندك ، وقد مسنى من الألم مالم يشفه غير مواصلتك .

رسالة أخرى فى الاعتذار :

قال الجاحظ :

تشاغلت مع الحسن بن وهب بشرب النبيذ أياما فطلبنى محمد بن عبد الملك الزيات لمؤانسته فأخبرته باتصال شغلى مع الحسن بن وهب فتنكر لى وتلون على فكتبت إليه رقعة نسختها :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت — أيدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء . وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً   من الناس إلا ماجنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عنى شبيه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : « عمر كان خيراً لى منك ، أرهبنى فاتقانى ، وأعطانى فأغنانى » .

فإن كنت لاتهب عقابى ـ أيدك الله ـ لخدمة ، فهبه لأياديك عندى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ماأنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد . وتتجافى عن عقاب المصر ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان،ومن لا يعرف الشكر إلالك والإنعام إلى منك،هجمت عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيدك الله ـ أن شين غضبك على كزين صفحك عنى،وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم ، والسلام .

رسالة فى الشوق :

ما أضاء لى نهار ولا دجا ليل مذفارقتك إلا وجدت الشوق إليك قدحز فى كبدى،والأسف عليك قد أسقط فى يدى،والنزاع نحوك قد خان جلدى . فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد أبليت بما تكابد ، وذكرت ـ وأنا على فراش الارتماض ، ممنوع من لذة الاغتماض ـ قول بشار :

إذا هتف القمرى نازعنى الهوى	بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا	وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بينى زمانا وبينها	كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ونجرى فى مودتنا إليه ، فى شعره هذا . وذكرت أيضاً ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم،ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويجرعنيه من مرارة نأيهم وبعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك،وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدى وكنه ما يتضمنه قلبى وهى :

بخدى من قطر الدموع ندوب ... وبالقلب منى مذ نأيت وجيب
ولى نفس حتى الدجى يصدع الحشا ... ورجع حنين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمها ... يخبر عنى اننى لكئيب
كأنى لم أفجع بفرقة صاحب ... ولا غاب عن عينى سواك حبيب

رسالة له إلى ابن الزيات :

لا والله ماعالج الناس داء قط أدوى من الغيظ ولارأيت شيئا هو أنفذ من شماتة الأعداء ولا أعلم بابا أجمع لخصال المكروه من الذل . ولكن المظلوم مادام يجد من يرجوه والمبتلى ما دام يجد من يرثى له فهو على سبب درك،وإن تطاولت به الأيام ، فكم من كربة فادحة وضيقة مصمتة قدفتحت أقفالها وفككت أغلالها،ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك وفى حسن النية بينى وبينك،لامشتت الهوى ولامقسم الأمل،على تقصير قداحتملته .

إلى الفتح بن خاقان :

كان الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب من أكابر العلماء ، وفحول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان محباً للجاحظ ، معجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلا للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فألف له رسالته المشهورة فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإياك ممن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصد عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دون

الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ، والصبر على المحافظة فى أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت فى تحقيقه لديهم . فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علمهم ليعملوا ، وبين لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناس التبين . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة فى المنفعة احتملوا ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال مافيه معجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على ملكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفى مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأول إليه متطرقاً ، والعدو عليه متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح [1] ومن معجب برأيه ذى خطل فى بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملا ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد اضطغنه الحرمان . ومن لئيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطىء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو

---

(١) المتصفح : المقلب لوجوه الأشياء علّه يعثر على ما يوجب المؤاخذة والانتقاد .

لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه . لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قدغره الإملاء، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

ومن صاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفرقة ، نفاق فى الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب . ومفتون مرتاب ، وخارص (١) لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده . يريد أن يسوى بالكفاة ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولإحسان كان من غيره . وليس ممن يرب (٢) قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس (٣) شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله ؟ !

ثم أعلمتنى بذلك أنك بنفسك بدأت فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق . وقد استدللت بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكترائك وتفقدك لأخابير الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء . على أن ماظهر من نصحك أمم (٤) فى جنب مابطن من إخلاصك ، فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعاذنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد » .

---

(١) الخارص : الكذاب المختلق للأباطيل . (٢) يرب : يزيد ويصلح.
(٣) الدروس : المحو والابلاء . (٤) أمم . قريب ظاهر .

النقد فى العصر العباسى الأول

انقسم نقاد الأدب وعلماؤه فى هذا العصر إلى طبقات :

ا — فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم ، وتزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، — وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ ﻫ ، وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى (١) ، وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه أحداً (٢) » . وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم (٣) ، وكان كما يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما للعرب .

ومنهم ابن الاعرابى م ٢٣١ ﻫ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء (٤) فكان يقول فى شعر أبى تمام : « إن كان هـذا شعراً

---

(١) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبيين ٢٠٩ : ١ ، العمدة ٧٣ : ١

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٥ .

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠٤ ، أخبار أبى تمام ٢٤٤

فكلام العرب باطل (١) ، وأنشده ابن الطوسى أرجوزة لأبى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبهافلما علم أنها لحبيب قال خرقوها(٢)، وكان ابن الأعرابى يعيب شعر أبى نواس فأنشده رجل شعراً له وهو لايعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبى نواس أنكره (٣) ، وكان يستشهد فى كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين،ولعله لو علم بذلك ما فعله (٤) ، وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة (٥) ؛ وكان الأصمعى يقول : ختم الشعر بالرماح (٦) ، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٧) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبى تمام (٨) .

ومنهم إسحاق الموصلى الذى كان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم(٩) ، فتعصب على أبى نواس (١٠) ، وطعن على أبى العتاهية (١١) ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبى تمام ١٧٥ ، ص ٤٥ ومابعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ، الموازنة ١٠ . وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

(٣) راجع ٢٨٩ : ١ زهر

(٤) أخبار أبى تمام للصولى ١٧٧

(٥) العمدة ٧٣ : ١

(٦) البيان ١٩٧ : ٣

(٧) الأغانى ٢٣ : ٣

(٨) الموشح ٣٠٤

(٩) أخبار أبى تمام ٢٢١

(١٠) راجع ٢٦٣ و٢٦٤ من الموشح ، الأغانى ٢٨ : ٣

(١١) الموشح ٢٥٨ .

وكان لا يعتد ببشار ويقدم مرواناً عليه[١] . وسمع أبي تمام ينشد شعراً له فقال ياهذا لقد شددت على نفسك[٢] ، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبى لا يرضى طبقة النقاد التى احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعى معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما[٣] ، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء فى الأدب وحده بل كان كذلك فى الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الأقدام عليه[٤] .

وكان المأمون — رغم ثقافته الواسعة — يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية[٥] . ودخل عليه أبو تمام فى زى أعرابى فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب مايأتى به فلما انتهى إلى قـــوله :

هن الحمام فإن كسرت عيافة   من حائهن فإنهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت ياهذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبتك بدويا ثم تأملت معانى شعرك فإذا هى معانى الحضريين وإذا أنت منهم ، فغض به ذلك عنده[٦] .

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأخرى . فقد كان هوراس الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن

---

(١) الأغانى ٢٨ : ٣
(٢) ٨ الموازنة ، وترى برواية أخرى (٢٢٧ الموشح)
(٣) الوساطة ٥٠ ، والموازنة ١٠   (٤) الأغانى ٣٥ : ٩
(٥) ديوان المعانى ٣٦٢ : ١
(٦) ديوان المعانى ١٢٠ : ٢

تدرس ليلا ونهاراً ، فان الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه (١) .

واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا بميلون إلى الذى يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى(٢) ، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون(٣) .

ب ـ وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهليا كان أو إسلاميا أو محدثاً كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز (٤) ، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب (٥) ، وفضل خلف لامية مروان على لامية الأعشى(٦) ، ويشرح الجرجانى والباقلانى مذهبهم فى النقد(٧) .

جـ ـ وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ، ومن هؤلاء جماعة من الكتاب تعمقوا فى نقد الشعر ومناهجه ولا سيما بعد إطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن

---

(١) قواعد النقد الأدبى ص ١٤٤ وما بعدها

(٢) إعجاز القرآن ١٠٠

(٣) العمدة ٧٣ : ١

(٤) الحيوان ٤٠ : ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ : ١ ، العمدة ٧٤ : ١

(٥) أخبار أبى تمام ١٧٤ وما بعدها ، رسائل ابن المعتز ١٤

(٦) العقد ص ٤٠٢ : ٣

(٧) الوساطة ٣٧ ومابعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠

(٨) زيدان ١٥٧ : ٣

مناذر م ١٩٨ : فقد أنشد أباعبيدة قصيدته فى رثاء عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفى [1] :

كل حى لاق الحمام فودى ما لحى مؤمل من خلود

وهى التى عارض بها قصيدة أبى[2] زبيد الطائى :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل طول الخلود

فقال : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين ، واحكم لأفصحهما وأجودهما [3] .

انتهى الكتاب

(١) راجعها فى الكامل للبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ : ٣ ، والمبرد شديد الاعجاب بها ، ٢٢٨٨ : ٢ الكامل

(٢) راجعها فى (٢٨٦ ومابعدها جمهرة أشعار العرب)

(٣) ١٥ طبقات الشعراء لابن المعتز

خاتمة الكتاب

هذه هى نهاية تلك الدراسات المستفيضة للأدب العباسى وجوانب التجديد فيه ، وهى دراسات استغرقت جهدا طائلا ، ووقتا كثيرا ، وتعد ـ كما هى ـ صورة واضحة للعصر العباسى وتاريخ النشاط الأدبى فيه ، وألوان هذا النشاط وأعلامه .

ولا أملك ما أقوله إلا أن أحمد الله على توفيقه ، وأسأله السداد والهداية ، إنه أجل مأمول وأكرم مسئول ، وما توفيقى إلا بالله ؟

المؤلف

فهرست الكتاب

ملاحظة :

لايفوت القارىء تصويب بعض الأخطاء المطبعية ، وفى صفحة ٢ سطر ١٤ من القسم الثانى ذكر اسم أبى مسلم وأبى سلمة الخلال كل مكان الآخر ؟

مؤلفات وتحقيقات

د. محمد عبد المنعم خفاجي

ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان ـ مجلد
الادب الاندلسي
الادب الجاهلي (دراسة ونصوص)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
اسرار البلاغة — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف
الاسلام والغزو الفكري — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف
اشعار الشعراء الستة الجاهلين
اعجاز القرآن (للباقلاني)
الاقتصاد الاسلامي
البديع (لابن المعتز)
التفسير الاعلامي للادب العربي ـ مجلد — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام ـ مجلد
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الرؤيا الابداعية في شعر
احمد زكي ابو شادي — بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

شاعر الشام خليل مردم
الفكر الاسلامي بين الاصالة والتجديد
فلسفة التاريخ الاسلامي
قصة الادب في ليبيا العربية
المختار من الحديث النبوي الشريف.
من تراثنا الخالد

تحت الطبع :

الآداب العربية في العصر العباسي الاول
الادب العربي الحديث ومدارسه
اعلام الادب في عصر بني امية
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر
دراسات في الادب والنقد
دراسات في النقد الادبي
فصيح ثعلب والشروح التي عليه
قصة الأدب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
القصيدة العربية بين التطور والتجديد

